

جون شين ين في
إس جيه روزان

The MURDER
of MR. MA

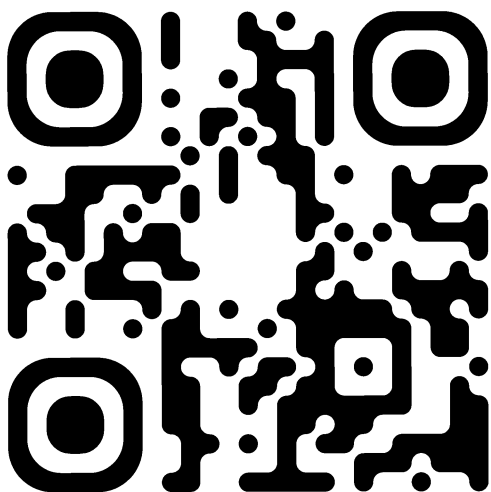
مقتل السيد مَا

رواية



مكتبة

ترجمة: هند حسني



سجل في مكتبة

اضغط! الصفحة

SCAN QR

مقتل السيد مآ





للنشر و التوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● تأليف: جون شين ين نّي وإس جيه روزان

● العنوان الأصلي: The Murder of Mr. Ma

● ترجمة: هند حسني

● العنوان العربي: مقتل السيد مّا

● تحرير: محمد المتيّم

● حقوق النشر:

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

Copyright © 2024 Erasmus Fox

● رقم الإيداع: 25083/2024م

● الطبعة الأولى: يناير/2025م

● الترقيم الدولي: 978-977-992-426-7

● حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

مكتبة

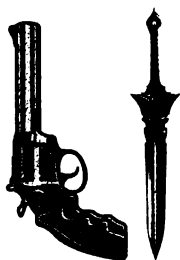
t.me/soramnqraa

جون شين ين ني
إس جيه روزان

The MURDER
of MR. MA

مقتل السيد مَا

رواية





المقدمة

بيكين 1966

مكتبة

t.me/soramnqraa

ترتبط كل قصة بجميع القصص الأخرى.

تقع البلاد في فوضى عارمة. تهتز الأرض تحت أقدامٍ تهرع في كل اتجاه. يسرع الناس لإعلان نقائهم قبل أن تبادر الجهة الأخرى بإعلان الشيء ذاته. الكثيرون على يقين تام، ومع ذلك يتعارضون بشدة بعضهم مع بعض.

نحن من عشنا حياة طويلة، شهدنا أحوالاً كهذه من قبل.

كتبْتُ قصصًا عديدة على مدار حياتي الطويلة. لكن بقي بعضها غير مروي، رغم مرور سنوات عديدة على حدوثها. حان الوقت لكتابة تلك القصص أيضًا. سأدون أكبر قدر ممكن منها، وأروي كل واحدة كما رأيته بعيني. أما الأحداث التي لم أكن حاضراً فيها، فسأرويها كما قُصت عليّ. إلى أي مدى ستكون الشهادات المنقولة موثوقة؟ ستكون

موثوقة بقدر شهاداتي الخاصة، أراهن على ذلك. سواء كان ذلك للأفضل أو للأسوأ.

أخبرني صديق عزيز ذات مرة أنه لا توجد نهاية حقيقية للقصة. إذا كان محققاً، فهذا يعني بالضرورة أن ليست لها بداية حقيقية أيضاً. حسناً، لكن القصة التي سأرويها الآن يمكن القول، لأغراض السرد، إنها تبدأ في مدينة لندن، في عام 1924، بالقرب من قوس الرخام.



الفصل الأول

لندن، 1924

مستندًا إلى درابزين حديدي، تأملتُ المعالم والأصوات السائدة في حديقة هايد بارك بعد ظهر يوم ربيعي. زينت أزهار النرجس الصفراء حدود العشب الزمردى، حيث جلس المتنزهون على بُسُط ذات نقشات كاروهات. ركض بينهم أطفال يضحكون وهم يطاردون الكلاب الصغيرة النابحة. أضفت أشعة الشمس الغاربة على كل شيء توهجًا ذهبيًا دافئًا. عند زاوية المتحدثين، رفر ف علم الاتحاد بفعل نسيمات الهواء العلية، العلم الذي يحمله المحافظون المصريون على قمع الاشتراكيين بواسطة شعارات صاخبة كـ «الخونة سيدمرون إنجلترا!» وما شابه ذلك. أما الاشتراكيون، الذين تركزوا بجانبهم، لوحوا بلافتات حمراء هاتفين: «تسقط الرأسمالية!». نساء شابات في بذلات رسمية –وأكثر من واحدة في سراويل– حملن لافتات تطالب بحق الانتخاب الكامل، وليس النسخة المحدودة المتاحة حاليًا. دفع آخرون بقضايهم المتمثلة

في أن الخلاص يكمن في النقابات العمالية، قمع النقابات العمالية، استقلال الهند، معارضة استقلال الهند، الكنيسة الكاثوليكية، الإلحاد، الحزب الليبرالي، أو إنهاء استهلاك الكحول، بينما رجال ونساء في زي رسمي يضربون الطبول ويغنون التراتيل بحماس في محاولة لإنقاذ الأرواح.

آه على البريطانيين؛ كثيرًا ما يخطئون، لكنهم لا يفتقرون أبدًا إلى الآراء والحماسة للتعبير عنها. ربما فكرتُ وأنا أستدير للسير نحو مسكني، يمكننا نحن الصينيين أن نتعلم درسًا منهم، رغم أنني لم أتمكن بأي حال من الأحوال من معرفة ماهية هذا الدرس.

عند اقترابي من المنزل الصغير القريب من المتحف البريطاني، بدأ قلبي ينبض بمزيج معتاد من الترقب والخوف. كان لهذين الشعورين مصدر مشترك: احتمالية لقاء الأنسة ماري ويندل.

الآنسة ويندل، ابنة صاحبة المنزل، كانت أروع امرأة رأتها عيناى على الإطلاق. أحاط شعرها الذهبي اللامع بوجهها النضر ذي الوجنتين المتوردتين، وعيناها الزرقاوان تشعان بالبهجة، وحركاتها سريعة ورشيقة. منذ لحظة لقائنا، اشتعل في روحي شغف لم أتوقع قط أن أجده في إنجلترا.

غير أن حماسة تلك اللحظة لم تكن متبادلة. عندما جئت للإقامة مع آل ويندل لأول مرة، شاركت ماري والدتها ازدراءها للصينيين وبالكاد تحدثت معي. لم أستطع لوم السيدتين؛ فقد امتلأ رأساها بصور مرعبة: الأعين المسحوبة والأظفار الطويلة والبشرة الصفراء، التي نشرتها المجلات الرخيصة والعروض المسرحية الهابطة والأفلام السينمائية. بفضل إلحاح القس روبرت إيفانز، رجل الكنيسة المعروف

لي ولآل ويندل، وافقت الأرملة ويندل على تأجير غرفة العلية لي تحت مسمى الإحسان المسيحي.

خلال الأشهر التي قضيتها هناك، اعتقدت أن سلوكي قد جعل السيدتين تعذّلان فكرتهما عن الصينيين. أصبحت السيدة ويندل صديقة جيدة لي، وأصبحت ماري تبتسم وتغمز لي في أثناء انطلاقها إلى عملها في محل القبعات أو إلى كنيسة القديس جورج في بلومزبري. لم أفصح بعدُ لماري عن مشاعري الحقيقية تجاهها، معتقدًا أن الوقت لم يكن مناسبًا تمامًا. لكنني أملت، عندما خطوت إلى المدخل في وقت ما بعد الظهيرة، أن أرى ابتسامتها المتألقة وربما إجراء محادثة قصيرة دافئة معها.

لكن، لم يكن ذلك مقدّرًا.

ناداني صوت السيدة ويندل: «لاو شيه!».

انضم إليها كلبها، نابليون، نابحًا. علّقت قبعتي فوق المرأة ودخلتُ غرفة الجلوس، حيث وجدتُ صاحبة المنزل تتحدث مع شاب ذي شعر أحمر يرتدي زي السائق. نهض الشاب بسرعة عندما دخلت.

قالت السيدة ويندل بعبوس: «لاو شيه، جاء هذا الشاب ليصطحبك معه. يقول إن الأمر عاجل. أرجو ألا تكون في ورطة».

أجبت: «على حد علمي، لست في ورطة. كيف يمكنني مساعدتك، أيها الشاب؟».

- ذهبتُ إلى مكتبك في الجامعة، يا سيدي، لكن قيل لي إنك قد غادرت.

ها هو عامل بريطاني ينادي صينيًا بـ «سيدي».

رمشتُ قائلاً: «نعم، بدأت عطلة الربيع».

ولا أستطيع إنكار امتناني لذلك؛ محاولة تعليم اللغة الصينية لأشخاص تفوق حاجتهم لتعلمها رغبتهم في ذلك - كان أمرًا مرهقًا. تطلعت إلى بضعة أسابيع هادئة أعمل خلالها على رواية، لم تأتني فكرتها بعد، لكنني أملت في ذلك.

تابع الشاب: «اتصلت برئيسي، ووجهني للانتظار هنا. بالطبع بعد إذن السيدة. (أوماً برأسه للسيدة ويندل) يطلب منك أن تأتي فوراً».

- مَنْ رئيسك هذا المتلف لرؤيتي؟

- حضرة المحترم برتراند راسل، يا سيدي.

- برتراند راسل؟

حين سمعت اسمه، ارتفع صوتي قليلاً عن المعتاد، ثم ازدردت ريقي قائلاً: «حضرة المحترم برتراند راسل أرسل في طلبتي؟».

- تفضل بالمجيء معي على الفور، يا سيدي.

قلت مرتبگًا، ولكن بسرور: «سيدة ويندل، سأخرج مرة أخرى».

عندما مشيت مرة أخرى إلى المدخل لأحضر قبعتي، استعاد وجه السيدة ويندل تعبير الرضا المعتاد. ربت على رأس نابليون مبتسمةً، ربما سعدت مثلي، ولكن لأسباب مختلفة، لأن مستأجرها استدعي لمقابلة المحترم برتراند راسل: عالم الرياضيات، الفيلسوف، المفكر الليبرالي، والصديق العظيم للصين، والأهم بالنسبة إليها ربما، هو أنه الابن الثاني لأحد النبلاء.

عند الخروج من المنزل في بيكين، يجد المرء نفسه وسط دوامة من الناس، يندفعون هنا وهناك، سيرًا على الأقدام، أو في عربات الرّكشة أو الكراسي المحمولة، أو -بالنسبة إلى الأثرياء- في عربات تجرها الخيول.

أثار المرور النادر للسيارات الرهبة وقشعريرة الخوف في النفوس، لأنها اقتصرت على الدبلوماسيين والنبلاء والأثرياء وأصحاب النفوذ.

أما في لندن، فسيطرت السيارات، التي ازدادت عددًا قبل الحرب، على الشوارع بلا منازع. دُفع المشاة إلى الأرصفة على جانبي الطريق، بينما ارتجفت الخيول وانكمش رجال العربات خوفًا. اجتاحت الشاحنات، وسيارات الأجرة، وحتى سيارات المواطنين الخاصة، الشوارع بضجيج محركاتها ونفير أبواقها، مهيمنة على المشهد تمامًا.

خلال الفترة التي قضيتها في لندن، لم أتمكن من اكتساب خبرة واسعة في السيارات، سوى القدرة على التمييز بين السيارات الراقية وتلك الأدنى جودة. السيارة التي دعاني السائق لركوبها كانت من طراز موريس أوكسفورد، وهي تليق تمامًا بالسيد برتراند راسل؛ ماكينة ممتازة لا تتسم بالبهرجة. تسير بثقة هادئة بينما نجوب شوارع لندن بسرعة. حاولت أن أبدو لمن ينظر إلى النافذة أنني أنتمي إلى هذا المكان لا محالة.

توقفنا أمام منزل مهيب في منطقة وست إند، مبني من الطوب الأصفر والحجر الجيري الأبيض. أسرع السائق الشاب لفتح بابي، ثم قادني إلى عتبة المنزل. عندما ضغط على الجرس، خفق قلبي كخفقانه عند وصولي إلى منزلي. يرغب المحترم برتراند راسل في التحدث معي! أملت أن ألتقي بالسيد راسل في وقت ما خلال إقامتي في لندن، حيث شعرت أن لدينا الكثير لنحدث عنه. أوضحت كتاباته بجلاء رأيه في أن مشكلات الصين لم تكن من صنعها، بل ناجمة عن تلك الدول التي كانت تحاصرنا، كلٌ لتحقيق مصالحها الخاصة. لم تكن إنجلترا بريئة في هذا الصدد، وكنت متحمسًا لتبادل الآراء مع السيد راسل في عديد من الموضوعات ذات الصلة.

غير أن ما أملته لم يتحقق مرة أخرى.

أجاب على رنين السائق كبير الخدم، أصلع الرأس ككرة البلياردو. قدمت بطاقة زيارتي، فوضعها كبير الخدم على صينية فضية بينما انسحب السائق إلى سيارته. أرشدني كبير الخدم إلى غرفة جلوس مفروشة بالسجاد. عند المدفأة الحجرية في الغرفة، ذرع رجل طويل ذو شعر فضي الغرفة جيئةً وذهاباً.

قال كبير الخدم بصوت رصين: «سيدي، السيد لاو شيء».

اندفع الرجل الطويل عبر الغرفة لمصافحتي قائلاً: «لاو شيء! أنا برتراند راسل. سعيد بلقائك. منذ أن علمت بوصولك إلى الجامعة وأنا أفكر في دعوتك إلى هنا، لكن دائماً ما يعطلني شيء أو آخر».

- أتفهم ذلك تماماً، يا سيدي. أنا متحمس لمقابلتك. قرأت كتبك وأتطلع لمناقشة أمور الصين معك، والكثير من الموضوعات الأخرى.

- نعم، حسناً، أنا أيضاً أتطلع إلى تلك المناقشات، لكن أخشى أننا سنضطر إلى تأجيلها ليوم آخر. لا يوجد وقت كافٍ الآن. الحقيقة هي أنني طلبت منك الحضور إلى هنا ليس للحديث معك، يا لاو شيء، بل لاعتقالك.



الفصل الثاني

توقف قلبي عن الخفقان الحماسي. في الواقع، توقف تمامًا. يريد برتراند راسل اعتقالي؟ ماذا فعلت؟

بدأ السيد راسل يضحك قائلاً: «آه، يا عزيزي!».

هذا أكثر مما أتحملة. سأعتقل وهو يجد الأمر مضحكاً؟

- شحب وجهك تمامًا. ربما وجب عليّ أن أعبر عن نفسي بطريقة مختلفة. أحتاج إلى مساعدتك، كما ترى. اعتقالك لن يستمر طويلاً ولن يكون له أي تبعات عليك سوى قضاء ساعة أو ساعتين في زنزانة. ولكنه سيكون عوناً كبيراً لصديق لي. تفضل، اجلس وسأشرح لك الأمر.

شعرتُ بضعف في ركبتيّ، وما زلت لا أملك فكرة عما يتحدث عنه، لذلك رحبت بالدعوة وجلست على الكرسي.

- وصلني خبر أن صديقي دي رين جيه قُبض عليه عن طريق الخطأ وسط مجموعة من المشاغبين الصينيين في لايمهاوس. أنا...
- دي رين جيه؟ القاضي المشهور دي؟
- دُهلِت لسماعي أقاطع برتراند راسل. أما هو، فبدا مسرورًا.
- نعم! هل تعرفه؟
- بالتأكيد، أعرفه مما سمعته عنه فقط. القاضي دي موجود في لندن؟
- نعم. وكما قلت، وجد نفسه مسجونًا. هذا وضع مزعج يمكن أن تحلّه بعثة بلدك الدبلوماسية، لولا حقيقة خدمته في الحرب. كان دي ضمن الوفد الصيني في جينيف عندما أُلحق بالفيلق العمالي الصيني في فرنسا، لحل النزاعات بين العمال والبريطانيين في الجبهة. كما فهمت الوضع، كان دي محقًا. لكن كما تعلم، يعير مواطني اهتمامًا أقل لـ «الحق» مقابل «الجنسية البريطانية». باختصار، اكتسب دي أعداء. أحدهم، الكابتن ويليام بارد، هو الآن مفتش في شرطة العاصمة في المنطقة نفسها حيث يقبع دي في السجن. لم يكتشف بارد بعد أنه محتجز في زنزانته، وأود إخراجَه من هناك قبل أن يفعل. هل ستساعدني؟
- بالكاد عرفت ماذا أقول.
- أنا آسف، يا سيدي. اعتُقل القاضي دي، ومن أجل إطلاق سراحه، يجب أن أعقل أنا؟ لست متأكدًا أنني أفهم الأمر.
- لا أستطيع لومك. دعني أقترح أمرًا، نذهب إلى السجن بينما أشرح لك الأمر. إذا قررت عند وصولنا أنك لا تريد المشاركة، سنفترق دون أن يُكنَّ أحدنا أي ضغينة للآخر. هل يبدو هذا مقبولًا؟

لم أتمكن سوى من الإيماءة بصمت، ويبدو أن ذلك كان كافياً. استدعى السيد راسل السيارة وسرعان ما وجدت نفسي أجوب شوارع لندن مرة أخرى، لكن هذه المرة برفقة برتراند راسل جالساً إلى جوارى.

أخبرني السيد راسل أنه تعرف على القاضي دي في بيكين، حيث ساعده في كتابة كتابه الشهير «مشكلة الصين».

قال السيد راسل: «لا أعرف لماذا يوجد دي في لندن الآن، لكن بمجرد إطلاق سراحه، أتوقع أننا سنكتشف السبب. أما دورك في هذا الأمر، يا صديقي العزيز، فسيكون ببساطة تبديل الأماكن معه. ستدخل معي إلى السجن وأعرفك بصفتك مترجمي. لغتي الصينية جيدة، وإنجليزية دي مثالية بالطبع، لكنه كان ذكياً بما يكفي لعدم استخدامها أمام الشرطة. سنلتقيه، ستبقى أنت في السجن، وسيخرج هو، ثم سأتصل بالبعثة الصينية وأبلغهم أن محاضراً متميزاً من جامعة لندن محتجز في السجن عن طريق خطأ فادح من الشرطة. سيتحركون بسرعة لإخراجك، أضمن لك ذلك.

- ولكن لماذا لا يمكنك استخدام الاستراتيجية نفسها لإطلاق سراحه؟ أي دبلوماسي صيني سيعرف تمامًا أن دي ليس ضمن المشاغبين في لايمهاوس.

- هذا صحيح بالتأكيد. لو تطلب الأمر ببساطة الاتصال بالبعثة وترك عجلة العدالة تأخذ مجراها، لفعلت ذلك. تكمن المشكلة في أنه إذا أدرك الكابتن بارد أنه يحتجز دي، فقد يدفعه ذلك إلى تصفية حسابات قديمة.

- آه، أنت تخشى على سلامة القاضي دي.

- نعم، ولكن ربما ليست بالطريقة التي تتصورها. دي، كما سمعت، مقاتل ماهر. أي مواجهة جسدية يرغب بارد في بدئها سيواجهها

دي بكفاءة. في الأماكن الضيقة، دون فرصة للهرب، أخشى أن يجد دي نفسه مضطراً لإلحاق ضرر جسيم بأي رجل يهاجمه. قد يؤدي هذا إلى مشكلة قانونية يصعب إخراجه منها. لا، يجب أن يخرج قبل أن تُكتشف هويته. إذًا، ما رأيك، يا سيد لاو؟ ربما ستخرج من السجن في الوقت المناسب لتنضم إليّ أنا ودي على العشاء. هل يناسبك ذلك؟

تناول العشاء مع برتراند راسل والقاضي دي! ما الذي يمكن أن يناسبني أكثر من ذلك؟ لكن، ما زالت الخطة تبدو غير متقنة.

- اعذرني، يا سيدي. هل يمكن أن تنجح تلك المخادعة؟ هل أنا ودي نشبه بعضنا إلى هذا الحد؟

- بالطبع لا! لكن هذه إنجلترا. بالنسبة إلى نوع معين من الإنجليز، يبدو الصينيون جميعهم متشابهين. أؤكد لك أن رجال شرطة العاصمة من هذا النوع. بالإضافة إلى أن دي قد تخفى. يضع رقعة عين أو شيئاً من هذا القبيل. (ضحك السيد راسل مرة أخرى) سترتيديها، وتبدلان ملابسكما، وأعدك أن الشرطة لن تلاحظ الفرق.

توقفت السيارة عند بوابات مركز شرطة العاصمة في لايمهاوس. وافقت على المشاركة في خطة راسل مخالفاً كل منطق سليم لدي. نزلنا من السيارة، وللمرة الثالثة في ذلك اليوم، يدق قلبي بقوة وأنا أقترّب من الباب، ولكن هذه المرة دون تلك الإثارة المتوقعة.

لم يكن رجال الشرطة مسرورين عندما قدمنا طلبنا. قلت بأكثر أسلوب رسمي يمكنني تبنيه للضابط الممتلئ الجالس خلف المكتب العالي المصنوع من خشب البلوط: «هذا المحترم برتراند راسل. نحن هنا للتحدث مع أحد سجنائكم».

مكتبة
t.me/soramnqraa

تأملنا الرقيب من أعلى سائلاً: «حقاً؟».

قال السيد راسل ببطء وهو يقدم بطاقة زيارته: «نحن كذلك، يا عزيزي. وقتي محدود، لذا سأكون ممتناً إذا استطعنا المضي قدماً في الأمر».

تفحص الرقيب بطاقة السيد راسل وكأنه يتوقع أن يقفز منها شيء ما.

- إذا كنت تبحث عن أحد هؤلاء الصينيين، فهم جميعاً في الزنانات. ومع ذلك، عليك التحدث مع الكابتن بارد بشأن ذلك. أمرته: «إدًا، أحضره فوراً».

شعرت بسرعة باحمرار وجنتي؛ لم أكن معتاداً على إعطاء الأوامر للإنجليز.

ضحك رجال الشرطة الآخرون واحمر وجه النقيب كما احمر وجهي.

- ماذا قلت لي؟ لا أتحمل أن يأمرني صيني بما يجب عليّ فعله! بدأ الآخرون يهتفون: «أحسن، يا توم!» و«لَقْنَه درساً!»، بينما طرق السيد راسل على المكتب قائلاً: «يا عزيزي...». قفز الرقيب من مقعده العالي واندفع لمواجهةنا. تصاعدت صيحات الاستهجان من الآخرين. كل ما استطعت فعله أن أمنع نفسي من التراجع نحو الباب، لكن لم أستطع تحمل فكرة ترك برتراند راسل وحده بين هؤلاء الأوباش.

- مهلاً! ماذا يحدث هنا؟

قالها صوت جديد بلهجة حازمة، فتوقف الضحك على الفور.

- أليس لديكم ما تفعلونه؟ أنا متأكد أنني أستطيع أن أجد لكم عملاً. أيها الرقيب، لقد تركت مكتبك، سيُخصم يوم من راتبك. والآن، أنت، أيها السيد. تبدو في مركز هذه الفوضى، ماذا فعلت لإثارة هؤلاء الرجال هكذا؟

وُجه السؤال الأخير للسيد راسل. بينما أطبق الرقيب على فكيه واعتلى مقعده مجدداً، وانسحب الباقون، قدم السيد راسل بطاقة زيارته للرجل الجديد.

- برتراند راسل، وأنت...؟

- ويليام بارد، مفتش وكابتن في شرطة العاصمة.

إذاً، هذا هو الكابتن بارد الشهير. كان رجلاً ضخماً ذا بنية قوية، يرتدي سترة صوفية، ذا شعر خفيف وشارب كثيف. نظر بعبوس إلى البطاقة، ثم إلى السيد راسل، ثم إليّ أنا.

قال السيد راسل دون تردد: «أنت الشخص المناسب. لديك سجين صيني في زنزانتك أحتاج إلى التحدث معه. أحضرت مترجمي معي، أيمكنك السماح لنا؟».

ضيق بارد عينيه ثم هز كتفيه قائلاً: «لا أرى مانعاً. هؤلاء المشاغبون اللعينون. رأيت الرتب العليا في اسكوتلاند يارد بحكمتها أن ترسلني إلى هذا المركز لأنني أتحدث اللغة اللعينة. أتمنى لو لم أفعل. لا أدري لماذا يرغب رجل محترم مثلك في قضاء وقت في زنزانة مع مجموعة من الصينيين، لكنني أعتقد أن هذا شأنك الخاص».

ابتسم السيد راسل بهدوء مجيباً: «نعم، إلى حد ما».

زفر الكابتن بارد بعدها، ونادى رجلاً ليرافقنا إلى الزنانات.



الفصل الثالث

أشعرتني الرائحة الكريهة بأننا دخلنا منطقة الزنانات الفعلية. تعالت صيحات «هوي!» وعبارات أقل تهذيباً من خلف الأبواب الفولاذية حيث حدق الرجال من الفتحات الصغيرة المزودة بالقضبان. قادنا الشرطي إلى باب يوحي ببعده عن الآخرين بوجود زنزانة أكبر خلفه. حرك مجموعة من المفاتيح في القفل. انفتح الباب مطلقاً صريراً ليكشف عن غرفة كبيرة تحتوي ربما على دزينة من الرجال الصينيين في حالات متفاوتة من الإصابة. اتضح أن كونك مشاغباً مهنة محفوفة بالمخاطر. قال الشرطي وهو يدعونا لدخول الزنزانة: «اطرقا الباب عندما تكونان مستعدّين للمغادرة، أو إذا تسبب أحدهم في إزعاجكما». نظر بغضب إلى الرجال جميعهم. عندما غادر، انغلق الباب خلفه مطلقاً صوتاً مدوياً.

نهض أحد السجناء. كان يرتدي رقعة عين وثوباً حريراً خاصاً بالعلماء. سجين آخر، ذو شعر أبيض ولحية، ارتدى أيضاً زيّاً صينياً، لكنه كان عبارة عن سترة قطنية وسروال فضفاض كتلك التي يرتديها التجار. أما البقية، فكانوا يرتدون ملابس خشنة مشابهة لملابس العمال البريطانيين العادية.

كان العالم أطول مني، عريض الكتفين، ورغم رقعة العين كان مليح الوجه، بذقن مربع وبريق يتلألأ في عينه السليمة. اقترب منا راسماً على وجهه ابتسامة خفيفة. قال بهدوء للسيد راسل باللغة الإنجليزية: «أرى أنك تلقيت ملاحظتي. أشكرك على قدومك».

رد السيد راسل هامساً أيضاً: «تلقيتها بالفعل»، إذ يفترض أن الرجل الذي جاء لمقابلته لا يتحدث الإنجليزية، لذا كان وجودي ضرورياً.

- أقدم لك السيد لاو شيه. إنه محاضر في الجامعة، وروائي، ومفكر صيني بارز هنا في لندن. جاء ليحل محلك، وبعد ذلك سأطالب بإطلاق سراحه.

حاولت بكل جهد أن أخفي فخري ودهشتي بالطريقة التي أشار بها برتراند راسل إليّ.

بعد أن انتهى السيد راسل من شرح الخطة، تحدث العالم.

- فهمت. شكراً لك، يا سيد لاو.

وضع يده اليسرى فوق قبضته اليمنى وانحنى.

سألت بالصينية: «هل أنت القاضي دي؟».

اعتدل مرة أخرى، وهو يضم شفثيه ويجعد أنفه وكأنه استنشق رائحة كريهة. رفع ذقنه، وأعترف أنه بدا متعجباً بعض الشيء.

أجاب بصوت أعلى بدرجة وكلمات أبطأ قليلاً مما كانت في البداية:
«أنا ذلك الرجل».

غير وقفته ليجعل وركه الأيسر متقدماً قليلاً عن وركه الأيمن، وثنى
ذراعه اليمنى، وتحركت يده لأعلى ولأسفل بطريقة شخص غير مرتاح
يحرك قبعته.

لم يكن يرتدي قبعة.

لكنني أرتدي واحدة.

أدركت ما كان يحدث؛ إنه يقلدني.

لم أستطع القول بأنني شعرت بالإطراء لتقليده، لكنني لم أستطع
إنكار دقته أيضاً. مرر يده عبر شعره، ممسداً إياه إلى الخلف كما كان
شعري ممشطاً، ثم بابتسامة، نزع رقعة العين وسلمني إياها. وضعتها
على عيني. بدأ بفك أزرار رداؤه الحريري. نظرت إلى السيد راسل، الذي
ابتسم مشجعاً، فخلعت سترتي وفككت ربطة عنقي. مد السيد راسل
يده عارضاً حمل أي من الأغراض التي تتطلب توقفاً مؤقتاً. وهكذا،
استخدمنا المحترم برتراند راسل كشماعة ملابس، وتبادلنا أنا والقاضي
دي البنطال بالبنطال، والقميص، والصديري، وربطة العنق، والسترة
بالرداء. قدمت له قبعتي مقابلاً، على ما أعتقد، لرقعة العين. وجد
الرجال الآخرون في الزنزانة هذه العملية مسلية للغاية واضطر دي إلى
تهدئتهم، هامساً لهم بأنه سيخرجهم جميعاً إذا لم يكشفوا عن الخطة.

كان دي، المنحدر من شمال شاندونج، أطول مني بثلاث بوصات
ويتمتع ببنية عضلية أكبر مما توقعته من عضو في السلك القضائي.
بدا ثوبه غريباً عليّ، واضطرت إلى رفع سرواله الحريري. وكذلك، كان
سروالي قصيراً عليه، ولم يستطع إغلاق أزرار سترتي، وضغط حذائي
على أصابعه بينما سبحت قدماي في نعليه. لكن طمأننا السيد راسل

بأنه في الوقت القصير الذي سيستغرقه هو ودي لمغادرة المركز، لن يلاحظ أحد مظهر دي الغريب أو مذهري. حاولت أن أرفع كتفي وأضبط ملامحي على تعبير محايد؛ أي أن أصبح دي كما أصبح هو لاو. نظر إلينا السيد راسل، وأوماً راضياً، ثم طرق على باب الزنزانة.

نادى: «هنا! أيها الشرطي!». بعد لحظة جاء صوت المفاتيح وصرير المفصلات غير المزيّنة بينما يُفتح الباب. خرج السيد راسل من الزنزانة يتبعه دي. قال السيد راسل للشرطي وهو يشير إليّ: «هذا الرجل ليس مشاعباً. إنه عالم متميز. لا يمكنكم احتجازه هنا».

هز الشرطي كتفيه قائلاً: «ليس هذا من شأني، يا سيدي».

- حسناً إذاً، سأتصل بالسلطات المختصة. لا تقلق، يا صديقي. سأخرجك قريباً.

- نعم، يا سيدي، شكرًا، يا سيدي.

قلتها قبل أن يتمكن دي -الذي كان يؤدي دور لاو المترجم- من الكلام، ثم أدركت خطئي بعدما رأيت اتساع عيني السيد راسل ودي والشرطي.

- ما هذا؟ ظننتُ أنكم أيها الصينيون لا تتحدثون الإنجليزية.

انتقلت نظرات الشرطي بيني وبين دي، ثم إلى كاحلي دي البارزين من سروالي، ثم صعد بنظره مرة أخرى، وعلامات الغضب بادية على وجهه.

- لا، يا سيدي. أنا...

بدأت أتعرق؛ كنت أزيد الأمور سوءًا. نزع الشرطي رقعة العين عني وهو يقول: «لماذا...».

تبادل دي والسيد راسل النظرات. قال دي: «حسنًا، لا مفر من ذلك». ثم سدد ضربة إلى فك الشرطي، الذي ترنح إلى الخلف محاولاً الإمساك بصافرته. بينما صدح صوته، فتح دي باب الزنزانة على مصراعيه، صارخًا بالصينية: «حسنًا، أيها المشاغبون. ابدأوا الشغب!».

امتلات الردهة بالصينيين، وسرعان ما تبعهم رجال الشرطة. رفع دي صوته مخترقًا الضجيج: «راسل، لا تتورط في هذا الأمر. اذهب. سنلتقيك لاحقًا».

شعرت أنها تأكيدات متفائلة أكثر من اللازم، نظرًا إلى الظروف المحيطة. أوماً السيد راسل برأسه متسللاً بين الحشد بمحاذاة الجدار. تحرك بسرعة صاعدًا السلالم التي تنهمر منها أعداد رجال الشرطة. سألني دي: «هل تستطيع القتال؟».

- بالتأكيد. أنا من شعب المانشو⁽¹⁾، ولدت تحت راية الجيش الحمراء⁽²⁾. وقع الكثير من المعارك في بكين في سنوات شبابي.

- حسنًا، يا رجل الراية، دعنا نبدأ.

في خضم الاشتباكات بين رجال الشرطة والمشايين، بدأت أوجه لكلمات وركلات. شعرت أنني أدت أداءً معقولاً، ولكن في اللحظات التي التقطت فيها أنفاسي، رأيت دي يتحرك كإعصار بشري. أدركت أنني كنت مجرد مقاتل ماهر، بينما كان هو فنان قتالي بمعنى الكلمة.

(1) هم مجموعة عرقية من الشعوب التي تعود أصولها إلى منطقة منشوريا، الواقعة في شمال شرق الصين. تمكنت المانشو من السيطرة على الصين بعد غزوها في منتصف القرن السابع عشر، واستمرت في الحكم حتى بداية القرن العشرين. (المترجمة)

(2) هي واحدة من رايات المانشو الثماني التي كانت تُستخدم في تنظيم الجيش والمجتمع خلال عهد أسرة تشينج في الصين. (المترجمة)

سرعان ما أدركت أن استراتيجية دي تتمثل في ترك رجال الشرطة والمشاعبين يتصارعون بعضهم مع بعض، بينما يتسلل هو نحو السلاالم. حسنًا؛ وجهت معركتي نحو اليسار وأحرزت تقدمًا في ذلك الاتجاه. وصلت إلى الدرجة الثانية من السلم ونظرت خلفي بحثًا عن دي، فرأيتة يتفادى اثنين من رجال الشرطة يندفعان نحوه في اللحظة المناسبة. اصطدم الاثنان ببعضهما ببعض وسقطا أرضًا. ولكن أمسك رجل شرطة ثالث بدي من الخلف. لف ذراعه حول عنق دي وبدأ في خنقه وسحبه بعيدًا عن المعركة. وقف شرطي بالقرب مني أسفل السلم، موليًا ظهره نحوي، رافعًا هراوته عاليًا. قبل أن يتمكن من ضرب رأس المشاعب الذي استهدفه، انتزعت الهراوة من يده، صوبتها، وقذفتها لتدور في الهواء، مُصيبةً رأس الرجل الذي لف ذراعه حول عنق دي، ليس بدقة تامة كما أملت، لكن بقوة كافية لتخفف قبضته. سحب التاجر الصيني المسن الرجل بعيدًا، وبركلة رشيقة فعالة، طرحه أرضًا. اندفع دي نحوي صارخًا: «لنصعد!». وأسرعنا بالصعود.



الفصل الرابع

عندما اندفعنا إلى غرفة الانتظار لمركز شرطة المدينة، صرخ دي: «هناك مشكلة في الأسفل! تحققوا منها فورًا!». كانت نبرة صوته حازمة لدرجة جعلت عيني الضابط المسؤول تتجهان نحو باب السلم. ومن خلفنا، اندفع سيل من المشاغبين ورجال الشرطة. أسرعنا أنا ودي نحو المدخل وتمكنا من الهرب.

بحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى منتصف الشارع، تدفق المشاغبون من المركز وذابوا في شوارع لايمهاوس. تخيلت أننا سنفعل الشيء نفسه، تاركين رجال الشرطة يخمشون رؤوسهم ويتساءلون أي من الصينيين الكثيرين الذين يتجولون هنا وهناك قد احتجزوهم في زنازنتهم مؤخرًا. كنت متحمسًا لوضع مسافة بيني وبين زيارتي الأولى -والتي آمل أن تكون الأخيرة- للسجن. لكن جذبني دي إلى أول زقاق

وجدناه. قال مبتسمًا: «لقد قاتلت جيدًا، لكن يا لاو، إذا لم نتبادل الأحذية فورًا، أخشى أن أفقد أصابع قدمي».

أدركت حكمة ذلك، فقد كنت أتعثر في نعليه الكبيرين. في أثناء تبادلنا الأحذية، سقط ظل عند مدخل الزقاق. استدرت بسرعة، لكن نظر دي إلى أعلى ثم اعتدل بهدوء. كان السبب واضحًا: إنه الرجل الذي كان في الزنزانة مرتديًا زي التاجر الصيني.

كان هذا الرجل أكبر من دي بعشرين عامًا تقريبًا، وبالتالي يكبرني بقرابة خمسة وثلاثين عامًا. بياض شعره ولحيته والتجاعيد التي تملأ وجهه قد توحى بضعف هيئته، لكن تلك التوقعات كانت بعيدة عن الحقيقة. فقد وقف مستقيمًا، بهدوء وسكينة رجل لا يعرف الخوف.

قال وهو يتقدم خطوة: «ني هاو⁽¹⁾. هل أنت دي رين جيه؟ القاضي دي؟».

أجاب دي: «نعم، أنا هو. هل أعرفك؟».

انحنى الرجل، ثم اعتدل قائلاً: «كنت تعرفني سابقًا. أنا هونج ليانج، الابن الثالث لهونج بي تيه».

اتسعت عينا دي دهشة.

- أخي الكبير هونج؟ أهذا أنت؟

ابتسم الرجل.

- نعم، أنا هو. تساءلت إن كنت أنت في الزنزانة، لكن رقعة العين واللكنة الكانتونية التي استخدمتها جعلتاني أشك في أنك تفضل البقاء مجهولًا. تأكدت تمامًا أنه أنت عندما رأيت أسلوبك في القتال. الركلة الدائرية مع ضربة الساعد المزدوجة، معظم المقاتلين

(1) مرحبًا باللغة الصينية. (الترجمة)

يستخدمون القبضة المغلقة في هذه المهارة، لكن والدي علمني إياها بيد مفتوحة.

ابتسم دي أيضًا، قائلاً بسعادة: «نعم، فعل ذلك، ودفعنا أنا وإخوتي الثمن غالبًا حتى تعلمناها. لاو، والد هذا الرجل كان معلمًا لعائلتي. أخي الكبير هونج، أقدم لك لاو شيه، رجل شجاع بما يكفي لدخول سجن في لندن لإنقاذ شخص لم يلتقه من قبل».

انحنيت لهونج ليانج لأعطي شعوري بالفخر من هذا التعليق.

- ولكن يا أخي هونج، لقد غادرت يانتاي عندما كنت صبيًا. كيف أجدك الآن في لندن؟ كيف حدث هذا؟

قال هونج: «سأروي لك القصة، رغم أنها ليست مثيرة للاهتمام. لكن دعوني أقترح أولًا أن نتوجه إلى متجر، حيث يمكنكما إتمام التبادل الذي بدأتماه؟ إنه ليس بعيدًا عن هنا. تبدو أنت، يا سيدي (مشيرًا إليّ) غير مهندم، أما أنت، أيها القاضي دي، فتبدو مثيرًا للسخرية».

نظر دي إلى نفسه في ملابس وضحك، ثم خرجنا جميعًا من الزقاق إلى شوارع لايمهاوس.

كان المتجر الذي قادنا إليه هونج قريبًا بالفعل. مررت به عدة مرات خلال الشهور التي قضيتها في لندن، وفي كل مرة شعرت بالحنين إلى الوطن، لأن متجر هونج يبيع الخضروات والحبوب والتوابل الشائعة في الصين ولكنها نادرة هنا. كما يبيع الأعشاب الطبية وأنواع الفطر، والأطباق، والأوعية، وأعواد الطعام، والمراوح، والإبر والخیوط، ومسحوق الغسيل، والحبر والفرش، وغيرها من السلع المماثلة. لم يكن يحتوي على التحف القيمة أو الغريبة التي يتعطش لها سكان لندن، كما في بعض المتاجر الأخرى في لايمهاوس، بل كان يبيع الأدوات اليومية المفيدة للجالية الصينية.

بمجرد دخولنا المتجر، أغلق هونج ليانج الباب مرة أخرى، وتأكد من وضع لافتة «مغلق» باللغتين الإنجليزية والصينية. ارتدينا أنا ودي ملابسنا الصحيحة بينما سرد هونج قصته: غادر الوطن لاكتشاف ما يمكن اكتشافه، كما قال. انضم إلى الجيش ووصل إلى رتبة رقيب.

قال دي وهو يزرر رداءه: «إذًا، يجب عليّ من الآن فصاعدًا أن أدعوك بالرقيب هونج».

ابتسم هونج قائلاً: «كما تشاء».

عندما شعر بالملل من الخدمة العسكرية، عمل بحارًا على سفينة تجارية. سافر على العديد من السفن إلى العديد من البلدان، وأخيرًا هبط إلى اليابسة بشكل دائم قبل اثني عشر عامًا ليساعد ابن عمه في متجر في لايمهاوس. عاد ابن عمه إلى الصين، مقتنعًا بأن هونج قد أسس لنفسه حياة كريمة في المتجر.

- أما عنك، أيها القاضي دي، فقد سمعت عنك مرات عديدة على مر السنين. أعترف بأنني أفخر بك كما لو كنت أنا من علمتك بنفسني. قال دي: «إذا كنت قد فعلت أي خير في العالم، فهو بفضل تعاليم والدي ووالدك».

الابتسامات التي تبادلها، لو أمكن تخزينها في زجاجة، لأضاءت شوارع لايمهاوس عند حلول الليل.

سأل دي: «لكن يا رقيب هونج، كيف دخلت السجن؟ هل كنت من المشاغبيين؟».

أجاب هونج: «ليس بالضبط. عندما سمعت صفارات رجال الشرطة، حاولت جذب بعض المشاغبيين إلى متجري. أُويد قضية هؤلاء الرجال،

ولكن أساليبهم تعرضهم للخطر. لكنهم لم يستجيبوا، فقد أصروا على الاشتباك مع رجال الشرطة. وعندما نزل رجال الشرطة بأعداد غفيرة، مسلحين بالهراوات، وجدت دوري يتغير».

قلت: «رأيتك في السجن، سددت ركلاتك وضرباتك بطريقة رائعة».

- شكرًا لك. وأنت أبليتَ بلاءً حسنًا أيضًا، بالنسبة إلى مقاتل غير مدرب.

شكرته على المجاملة، رغم أنني لم أسعد بإشارته إلى أن مهاراتي القتالية مكتسبة ذاتيًا.

سأل هونج: «هل تشربان الشاي معي أيها السيدان؟ لدينا الكثير لنحدث عنه».

أجاب دي: «لا شيء يسعدني أكثر من ذلك، يا رقيب هونج. ولكن سنضطر إلى تأجيل ذلك إلى وقت لاحق. لدينا موعد أنا ولأو في تشيلسي. (نظر حوله) رغم أن متجرك قد أوحى إليّ بفكرة. أليدك هاتف؟

- لا. تستطيع تخمين أن لايمهاوس ليست على قائمة مكتب البريد للمناطق التي تحتاج هذه الخدمة بشكل عاجل. أشعر بأنني محظوظ لأن الشبكة الوطنية قد رأت من المناسب تزويدي بالكهرباء لمصابيحي».

- حقًا؟ حسنًا، هناك طرق أخرى للتواصل.

بناءً على طلب دي، قدم له هونج قلمًا وورقة. بدأ بالكتابة، ثم فتح باب المتجر وأشار إلى أحد الصبية الذين يشاهدون لعبة الورق في الشارع قائلاً: «إليك شلنًا. خذ هذه الرسالة إلى رقم واحد وثلاثين شارع سيدني، وهناك شلن آخر ينتظرك عند وصولك».

ابتسم الصبي، وأخذ الرسالة والعملية من يد دي، واختفى بسرعة.

قلت: «هذه مسافة طويلة، يا دي. سيستغرق الأمر منه ساعات».

أجاب دي: «بالتأكيد لا. سمي لي أي مدينة تختارها، لن تجد من هم أكثر براعة من أطفال الشوارع. وظفت الكثير منهم في مسيرتي، ولم يفشل أي منهم في إنجاز مهمته. سيصل إلى هناك في الوقت الذي يستغرقه جمع ما نحتاجه».

لم أكن أعلم أننا بحاجة إلى أي شيء، وإن كنا كذلك، لم أعرف ما هو. لكن تجول دي في متجر هونج، متشاورًا مع الرجل الأكبر سنًا حول الخضروات والتوابل والأرز. في النهاية، أرسلت إلى بائع السمك لشراء سمكة كبيرة، وإلى الجزار لشراء رطل من لحم الخنزير المفروم. عندما عدت، وقف دي بين كومتين من الطرود الورقية، كل منها مربوط بخيط. قال دي: «آه، لاو! تعال، يجب أن ننطلق».

شكر دي الرقيب هونج على مساعدته، ووعده بالعودة، ثم رفع الطرود من مقابضها المصنوعة من الخيط، وغادرنا.

بعدما استقللنا سيارة أجرة، وجدت نفسي مرة أخرى أمام عتبة منزل السيد الفاضل برتراند راسل. استقبلنا السيد راسل بنفسه عند الباب، بعينين تلمعان بالمرح قائلاً: «السيدة هينيسي غاضبة منك، يا دي. وافقت على اقتراحك فقط لأنها تتذكر الوجبات التي طهيتها في بكين. تعويضًا عن إفساد خططها، تطالبك بتعليمها كيفية استخدام الساطور كما تفعل أنت».

- توقعت أنها قد لا تكون راضية. دعني أر ما يمكنني فعله لتصحيح الوضع.

بدلاً من دخول القاعة، توجه دي نحو البوابة المفضية إلى الطابق السفلي. وهكذا، وجدت نفسي أخيراً جالساً مع برتراند راسل، نحتسي الويسكي ونتناقش حول «مشكلة الصين».



الفصل الخامس

- إذًا، ما الذي جاء بك إلى لندن، يا دي؟

جاء السؤال من برتراند راسل. كنا نجلس حول الطاولة: أنا ودي، وراسل وزوجته دورا، نتناول وليمة شاندونج فاخرة أعدها دي، مستخدمين عيدان الطعام الفضية التي جلبها آل راسل من أيام إقامتهم في بيكين. برع الزوجان راسل في استخدام عيدان الطعام، وبدا أنهما يستمتعان بالطعام بقدر ما نستمتع به أنا ودي.

كان إصرار دي على طهي هذه الوجبة («لتكريم جهود راسل، يا لاو، ولأنه رغم تذوقي لعديد الوجبات الشهية في الخارج، لا شيء يضاهي طعام الوطن») هو ما أثار غضب الطاهية السيدة هينيسي، التي أزيحت قائمتها المخطط لها جانبًا لصالح هذا العشاء. لكن تلاشى غضبها بفضل درس دي في استخدام الساطور ووعده بترك جميع الأعشاب والتوابل التي بقيت بعد تحضير الأطباق. تلك الأطباق -التوفو المحشي،

كرات لحم السعادة الأربع، وسمك الشبوط المطهو على البخار مع الزنجبيل، جميعها مصحوبة بطاجن من أرز الياسمين- كانت كفيلة بأن تملأني بالبهجة وتعزز شعوري بالحنين إلى الوطن في آنٍ واحد. منذ أن استأجرت الغرفة من السيدة ويندل وابنتها، كنت أتناول معهما الفطور والعشاء. أتاح لي هذا النظام فائدة مزدوجة؛ تناول الطعام وقضاء الوقت مع ماري. بالنسبة إلى الأمر الثاني، أملت تدريجيًا أن أكسب مودة ماري. أما بالنسبة إلى الأمر الأول، فعلى الرغم من أنني لم أستطع أن أعيب مهارات السيدة ويندل فيما يُسمى «الطهي البسيط»، فلم أكن متحمسًا للغاية للطعام. يوجد في إيست إند عدد من المطاعم الصينية ومحلات النودلز، وكنت أتردد على أحدها أحيانًا لتناول وجبة منتصف النهار. ومع ذلك، لم يضاهِ أي شيء تناولته منذ وصولي إلى لندن كرات اللحم المالحة الخشنة أو الصلصة الحريرية على السمك، أو اللون الذهبي لمربعات التوفو، أو الروائح الغنية التي امتزجت معًا في الوليمة التي تشاركناها ليلتها.

قال دي: «إجابة سؤالك، يا راسل، تعود إلى فترة الحرب. كما تعلم، وربما لا تعلم يا لاو، لقد نُقلت من جينيف إلى خنادق⁽¹⁾ فرنسا للفصل في النزاعات الواقعة بين الجيش البريطاني ورجال فيلق العمال الصيني. وهناك التقيت الكابتن بارد». توقف دي ليرتشف من نبذه.

أخبرنا راسل أنا ودورا: «كان بارد ضابطًا في الجيش البريطاني مسؤولاً عن كتيبة كبيرة من العمال الصينيين، كانت إجراءاته التأديبية على ما يبدو.. قاسية».

(1) تشير إلى ساحات القتال التي كانت تستخدم خلال الحرب العالمية الأولى. كانت هذه الخنادق عبارة عن مواقع دفاعية حيث يقيم الجنود ويحاربون. خلال الحرب العالمية الأولى، تم تجنيد العديد من العمال الصينيين للعمل في الدعم اللوجستي والبنية التحتية للجيش البريطاني، وعُرفوا باسم فيلق العمال الصيني. (الترجمة)

ابتسم دي قائلاً: «لم نتفق. ضمت الكتيبة فرق عمل أصغر. واحدة من هذه الفرق، مكونة من أربعة رجال، وصلت إلى لندن في نهاية الحرب». قالت دورا: «لكن، يا دي، هذا أمر استثنائي». كانت امرأة ذات ملامح متناسقة وشعر بني قصير. ربما يمكن وصفها في البداية بأنها «جميلة للغاية»، حتى يبرز بريق عينيها الداكنتين وابتسامتها الرقيقة المتعاطفة لتضفي سحرًا أكثر جاذبية. «لعارنا، أصرت بريطانيا على رفض قبول أي من رجال فيلق العمال الصيني. ومع ذلك، تقول إن بعضهم جاء إلى هنا؟».

- على حد علمي، تمكن هؤلاء الأربعة فقط من الدخول، وذلك بفضل تدبير الكابتن بارد.

قال راسل: «يا للعجب، هل نلاحظ شعورًا بالندم؟ محاولة لفعل الخير للتكفير عن تصرفاته السيئة؟».

حملت الابتسامة التي أظهرها دي الآن، في رأيي، لمحة من المرارة.

- إذا كانت تلك نيته، فسيحتاج إلى أكثر من عمل خير واحد. ربما تكون محققًا، يا راسل، لأنني فهمت أنه زار هؤلاء الرجال بشكل دوري ليتحقق من أحوالهم. للأسف، ليس جميعهم بخير. قُتل أحدهم الأسبوع الماضي.

شهقت دورا راسل، وحتى راسل شحب وجهه.

- قُتل، يا دي؟ بالطبع لا!

قلت وأنا أميل إلى الأمام: «جريمة قتل؟ من هو هذا المسكين؟ أتعلم شيئًا عن الملابس؟».

ابتسم دي: «هذا سؤال يليق بروائي حقيقي، يا لاو. نعم، إنها جريمة قتل. (تلاشت ابتسامته) يُدعى مَآ زي رين. أقام لنفسه تجارة في

لايمهاوس، لبيع التحف الصينية. أعتقد أننا كنا قريبين من متجره في وقت سابق اليوم، عندما كنا في مركز الشرطة ثم عند الرقيب هونج. (عُرف الرقيب هونج بالفعل لعائلة راسل كمصدر للنعم التي أمامنا) تحمس هؤلاء الرجال عندما علموا أنهم سيُسمح لهم بالقدوم إلى لندن بعد انتهاء عقودهم مع فيلق العمال. أتاح لهم ذلك فرصة الاستمرار في كسب أجر جيد قبل العودة إلى الوطن. ولكن ظل هناك شيء يقلقهم.

أصيب أحد الأربعة، وهو ما زي رين تحديداً، في هجوم مدفعي ألماني. على الرغم من أن عقود العمال الصينيين مع الحكومة البريطانية ضمنت بقاءهم بعيداً عن خطوط المعركة، فإن هذا الشرط انتهك بشكل متكرر. هؤلاء الرجال كانوا جميعاً شباباً وأقوياء، وأعتقد أنه حتى إصابة ما، لم يفكروا قط في احتمال وفاة أحدهم. الآن، ومع فرصة لقضاء بعض السنوات في إنجلترا، استدعوني إلى المعسكر. طلبوا مني، في حال وفاة أي منهم هنا، أن أتولى الترتيبات اللازمة لإعادة جثته إلى الصين. ووافقت على ذلك.

بالطبع، يمكن إنجاز ذلك عن بُعد عبر البعثة الصينية. كنت في جينيف مرة أخرى عندما تلقيت اتصالاً بشأن وفاة ما، وكنت سأتعامل مع الوضع بهذه الطريقة لولا وجود شبهة جنائية. نظرًا إلى شكوكي بأن السلطات في لندن قد لا تحقق بعمق في وفاة صيني، سواء كانت طبيعية أم لا، قررت أن أحقق في قضيته بنفسه. وصلت الليلة الماضية، وما إن غادرت فندق في هذا الصباح لبدء عملي حتى وجدت نفسي متورطاً في اعتقال المشاغبين».

سأل راسل: «لماذا سمحت لهم باعتقالك؟ رجال شرطة لندن ليسوا نذًا لمهاراتك».

- رأيت بارد هناك يوجّه رجاله. إنه يعرف أسلوبه في القتال. إذا علم أنني في لندن وقد هربت من قبضته، فسيصمم على إعادة القبض عليّ.

سألت: «لماذا كل هذه العداوة؟».

- في فرنسا، أصدرت أحكام في غير صالحة عدة مرات. لم يكن لديه سلطة على رجال فيلق العمال الصيني، لكنه صمم على وضعهم في خطر لحماية الجنود البريطانيين. كأنهم كبش فداء، إذا جاز التعبير. ادعى أنني تجاوزت سلطاتي، ولكن في كل مرة قبل رؤسائه بأحكامي. أعتقد أن السجل العسكري للإجراءات التأديبية ضده هو أحد الأسباب التي جعلت مسيرته في شرطة العاصمة لم تسر كما أمل منذ عودته.

- هل يلقي باللوم عليك؟

ابتسم دي وهو يضع كأس النبيذ على الطاولة: «يجب دائماً إلقاء اللوم على شخص ما. عندما رأيته هذا الصباح، أدركت أن تركيزه على القبض عليّ سيصرف انتباهه عن جريمة قتلٍ ما -إذا كان بالفعل يعطي هذه المسألة أي اهتمام- وحاجتي لتجنبه سيكون لها التأثير نفسه عليّ. لذا قررت أن أتجنب لفت انتباهه وأرى ما يمكنك التوصل إليه، يا راسل».

- حقاً، يا دي، أفكرت في هذه الحسابات كلها في اللحظات بين التورط في الاحتجاج واعتقالك؟

لم أستطع تحديد ما إذا كان جاداً.

- نعم، بالكاد كان لدي الوقت لسرقة رقعة عين من متسول لتغطية وجهي.

اعترضت دورا: «دي! أخبرنا أنك لم تفعل شيئاً كهذا!».

- استطاع الرجل الرؤية بكلتا عينيه كما نفعل أنا وأنت. تمكنت من معرفة ذلك من طريقة سيره، حيث كان ينقر بعصاه على الأشياء باستمرار بدلاً من الاصطدام بها. ألقيت له شلناً مقابل استخدام الرقعة، والتقطه من الهواء.

ضحك الجميع. أما أنا، فقد كنت مندهشاً من قدرة دي على ملاحظة هذه التفصيلة الصغيرة حول العصا وسط دوامة المشاغبين ورجال الشرطة.

سألت: «الآن بعد أن أصبحت حرّاً، ما الخطوات التي تنوي اتخاذها، يا دي؟». كنت مهتماً بسماع خطته. تحقيق من هذا النوع كان جديداً بالنسبة إليّ، واشتُهر دي بنجاحه فيه.

- سأرى إلى أين ستقودني الطرق، لكن سأبدأ بزيارة متجر ما. سأستشير الرقيب هونج في الصباح لمعرفة ما إذا كان يعرف متجره. يُدعى «عشرة آلاف كنز».

- أوه! إذا كان هذا هو متجر ما، فلا حاجة لإزعاج هونج. مررت به عدة مرات. يمكنني اصطحابك إلى هناك.

نظر دي إليّ بصمت. فتحدث راسل قائلاً: «دي، هذه فكرة جيدة. في الواقع، قد تفكر في أن يشاركك لاو في هذا التحقيق. لقد عاش في لندن منذ فترة طويلة، وأنا واثق أن معرفته يمكن أن توفر لك الوقت والجهد. (ثم نظر إليّ قائلاً): «على سبيل المثال، كان بإمكانه أن يجنبك التورط مع هؤلاء المشاغبين».

رفع دي حاجبيه تجاه راسل قائلاً: «معرفته شيء جيد، وشجاعته ليست موضع شك. أما قدرته على كتمان الأسرار، فهذه مسألة أخرى...».

شعرت بحرارة تجتاح وجهي. وقلت: «إذا رغبتما في مناقشة عيوبي وفضائلي، فسأكون سعيدًا بالانسحاب».

قال راسل: «أوه، بربك يا لاو، عليك أن تعترف بأن هذا اقتراح جدير بالاهتمام».

لم أشعر أنني مضطر إلى الاعتراف بأي شيء من هذا القبيل، لكنني لم أرغب في معارضة برتراند راسل، خاصة في منزله. تابع راسل قائلاً: «قلت أيضاً إن عبء التدريس في الجامعة ليس ثقیلاً، وأنت رتبت الأمور بهذه الطريقة لتمنحك الفرصة لجمع المواد لرواياتك. رغم أن الكتاب الذي أخبرتني عنه - «فلسفة لاو زانج»، أليس كذلك؟ - يبدو رائعاً، أعتقد أن تحقيقاً في جريمة قتل سيوفر لك إلهاماً لن تجده في أي مكان آخر». ركز دي نظرتي عليّ دون أن يتكلم. بجمود، قلت له: «إذا كنت تعتقد أنني يمكن أن أكون مفيداً». بعد لحظات غير مريحة شعرت خلالها وكأنني تحت مجهر عالم، قال دي: «أعتقد ذلك. لكن، يا لاو، هذا سيكون مجالاً غير مألوف لك. يجب أن توافق على اتباع توجيهاتي».

أوشكتُ على الاحتجاج، لكن صفق راسل بيديه قائلاً: «رائع! إذا فالأمر محسوم. الآن دعونا نحتس البراندي في غرفة الجلوس».



الفصل السادس

في صباح اليوم التالي، تناولت الفطور كالمعتاد مع السيدة والأنسة ويندل. عندما سحبت كرسيّ للجلوس، رفعت ماري رأسها عابسة: «يا إلهي، سيد لاو. من أين حصلت على تلك الكدمة على وجنتك؟».

قلت، محاولاً إخفاء سروري باهتمامها: «أوه، لا شيء، كنت أركض للحاق بالحافلة وسقطت».

قالت والدتها: «يسعدني سماع ذلك. أعني، آسفة لأنك تأذيت يا سيد لاو، لكنني قرأت في جريدة الصباح عن حادث مروع في مركز شرطة لايمهاوس أمس. نظمت مجموعة من الصينيين عملية هروب من السجن! جميعهم مشاغبون وأشقياء. أمر مخزٍ. أمل أنك لا تتورط في التعامل مع هذا النوع من الأشخاص». ونظرت إليّ مضيقةً عينيه.

قلت، مشغولاً بدهن قطعة من الخبز المحمص بالزبدة: «بالطبع لا». قطعت زاوية صغيرة لأعطيها لنابليون، الذي كان يهز ذيله متلهفًا بجانب كرسيي.

قالت ماري وهي تقفز من مقعدها: «حسنًا، عليّ أن أذهب الآن». راقبتها عند المدخل وهي ترتدي معطفها الجاباردين وتثبت قبعتها. كانت قبعة اليوم من اللباد الأخضر الفاتح، يتناسب لونها مع حذاءها. محاطة بأزهار صفراء صغيرة بلون شعرها القصير، جعلتها القبعة تبدو هي نفسها كزهرة. استدارت ونادت: «ابقَ بعيدًا عن المشكلات، يا سيد لاو». لوحت بمرح، ثم اختفت عبر الباب.

ظل قلبي يغني من ابتسامة ماري عندما وصلت إلى متجر الرقيب هونج في شارع نارو. كان دي هناك بالفعل، في مزاج رائع، يحتسي كوبًا من الشاي مع هونج. قال دي: «آه، لاو!» (ضرب على فخذه ووقف): «تبدو مرهقًا بعض الشيء. أمل أن تكون مستعدًا ليومك؟».

- بالتأكيد أنا مستعد.

على الرغم من كل القتال الذي خاضه دي في اليوم السابق، لم تظهر عليه أي إصابة ظاهرة. كما أن رداء العالم الذي كان يرتديه بدا جديدًا أيضًا.

- رائع. هونج، سنتحدث لاحقًا. هيا، يا لاو.

خرج دي من المتجر دون أن ينظر خلفه ليرى إن كنت أتبعه.

شعرت بالاستياء من أسلوبه المتعالي. في الوقت نفسه، يجب أن أعترف أنني شعرت ببعض الحماس للإمكانيات التي يحملها هذا اليوم. تمثلت مهامني في الجامعة في تعليم أساسيات اللغة الصينية للشباب الطموحين الذين يأملون في التفوق على أقرانهم في شركات التجارة الدولية، ولزوجات رجال الأعمال والمبشرين الذين يستعدون للسفر إلى

الشرق، وكان أهم ما يشغلهم هو قدرتهم على التحدث مع الخدم. لم يكن أي منهم مهتمًا باللغة لذاتها، أو التعرف على الشعب الصيني أو ثقافتنا. اللغة الصينية لغة صعبة، وهو أمر اعتبره طلابي عبئًا غير عادل عليهم. باختصار، مثلت وظيفتي تحديًا لمزاجي الجيد بين الحين والآخر، لكنها نادرًا ما مثلت تحديًا لعقلي. وكما ذكر برتراند راسل، لم تكن تشغل جزءًا كبيرًا من وقتي. لذلك، اتجهت إلى كتابة الروايات والمقالات. حققت بعض التقدم في هذا المجال، ولكن بعد الانتهاء من مخطوطة واحدة، وجدت نفسي في حيرة من أين أبدأ العمل على المخطوطة التالية. قد يكون نشاط غير مألوف تمامًا مثل هذا هو ما أحثاه لإشعال شرارة الإبداع.



تجولنا أنا ودي في شوارع لايمهاوس. هذه المنطقة، القريبة من المرافئ، كانت دائمًا مشبعة برائحة البحر. كانت الحركة دؤوبة حولنا؛ رجال يجرون عربات اليد أو العربات ذات العجلات أو يحملون الأعمدة المثقلة بالطرود على كل طرف. من حين لآخر، أعلنت أصوات الأبواق عن مرور سيارة أو شاحنة في شوارع ضيقة بالكاد تتسع لثلاثة رجال. ومع ذلك، استمرت الحركة؛ هنا تتقاطع طرق البحارة الإنجليز مع الصينيين، واللاسكر مع التجار العرب، والكاريبيون ذوو البشرة الداكنة مع اليهود ذوي اللحى الطويلة.

كان متجر الرجل المقتول، «عشرة آلاف كنز»، بالفعل قريبًا من متجر الرقيب هونج. عندما وصلنا وجدناه مغلقًا. أخبر الرقيب هونج دي أن مساعد المتجر، رجل يدعى لي، مشغول في عملية حزم البضائع. اعتقد هونج أن محتويات المتجر بيعت دفعة واحدة، رغم أنه لم يعرف هوية المشتري.

قال دي، غير متأثر على ما يبدو بهذا العائق: «أعتقد أنه إذا كان كل ما يقوم به هو حزم البضائع، فلا داعي لوصوله هنا مع بزوغ الفجر. سنتحدث إلى لي عندما يصل».

سألت: «ماذا سنفعل حتى ذلك الحين؟».

- سنزور الأرملة.

- أين سنجدها؟

- أعتقد هنا بالضبط.

خطا دي نحو مجموعة من أجراس المعبد المعلقة في مدخل صغير بجانب المتجر. وعندما هزها، صدح رنين الأجراس عبر الشارع حتى فُتحت نافذة بالأعلى وأطلت منها امرأة شاحبة ذات نمش على وجهها.

نظرت إلينا بتمعن: «حسنًا، حسنًا، اهدأ. نعم؟».

تراجع دي خطوة إلى الخلف ومدّ عنقه قائلاً: «أنا دي رين جيه. كنت صديقًا لَمَا زي رين، من أيامنا في فرنسا خلال الحرب. هذا لاو شيه. جئنا لنقدم تعازينا».

سوت شعرها الكستنائي المرفوع بشكل غير محكم فوق رأسها وهي تقول: «أوه، هذا لطف منكما. تفضلا بالصعود».

أسقطت مفتاحًا، والتقطه دي.

همست بينما كان دي يفتح الباب: «هل هذه أرملة مَآ؟ إنها...».

- امرأة إنجليزية، نعم. على ما يبدو، التقى مَآ بها في نادٍ ليلي، حيث كانت تعمل راقصة.

دخلنا وصعدنا سلمًا ضيقًا. انتظرتنا أرملة مَآ عند باب الشقة العلوية. سكنت هالات داكنة تحت عينيها وابتسامتها باهتة. امتلاء بطنها وخديها

أشار إلى أنها بصحة جيدة بشكل عام، رغم أن فقدان زوجها كان له تأثير واضح عليها.

- تفضلاً بالدخول. (أغلقت الباب خلفنا) يمكنني وضع الأبريق على النار إذا رغبتما في شرب الشاي.

قال دي: «رجاءً، لا تتعبي نفسك، يا سيدة مآ. لن نبقي طويلاً. أرى أنك منشغلة».

بالفعل، إذا كان حزم البضائع هو المهمة الأساسية لهذا اليوم في متجر مآ، فإن الأمر نفسه ينطبق على الشقة العلوية. تناثرت الصناديق والحقائب وصندوق سفر بخاري في مراحل مختلفة من الفوضى، وكذلك خزانة الأدراج وخزانة الملابس. نظرت السيدة مآ حولها بابتسامة عاجزة وجلست على الأريكة.

- أعتذر عن الفوضى. سأغادر لندن غداً وأعود إلى نورفولك بالقطار. ظننت أنني سأكون قد أنهيت حزم أغراضي بحلول الآن، لكنني لا أشعر بأنني... في أفضل حالاتي.

قال دي: «لا داعي للاعتذار».

نظرت من كذب إلى السيدة الشابة قائلاً: «تبدين مريضة. هل نرسل لإحضار طبيب؟».

قالت الأرملة: «لا، لا، أنا فقط...» وخفضت عينيها.

قال دي: «أستطيع أن أتخيل بسهولة أن فقدان مآ كان صعباً جداً عليك».

تنهدت قائلة: «حسناً، إذا كنت تعرفه يا سيد دي، تعرف كم كان رجلاً طيباً. لقد اعتنى بي جيداً».

سألت: «وهل لدى الشرطة أي فكرة عن مرتكب هذه الجريمة؟».

رمقني دي بنظرة حادة بينما كانت السيدة ما تجيب.

- بالكاد حققوا في الأمر. حسناً، هل تتوقع منهم أن يفعلوا ذلك؟
بائع صيني؟ لديهم أمور أكثر أهمية تشغلهم. (حملت كلماتها نبرة
مريرة) قال المفتش الذي جاء إن الجاني لا بد أن يكون صينياً
آخر، بسبب السيف، كما ترى. وبعد ذلك غسل يديه من القضية.
قال: «لن نمسك بهم أبداً»، وابتعد. (هزت كتفها) قد يكون محقاً.
لا أعتقد أن الأمر يهم الآن.

قال دي: «السلاح المستخدم كان سيفاً؟».

- شيء يسمى سيف الفراشة. قال زي رين إنه -عبس جبينها- داو
قصير النصل؟ كان معروضاً للبيع في المتجر. والآن هو مفقود.
سألت: «هل يمكن أن يكون القاتل قد حاول سرقة؟ وواجهه ما
بالصدفة؟».

كلفني هذا السؤال نظرة حادة أخرى من دي.

أجابت الأرملة: «لا أعرف، ربما. لم أقض الكثير من الوقت في المتجر.
أزعج وجودي هناك الزبائن البريطانيين. نحن الفتيات الإنجليزيات
يُفترض أن نبقي طاهرات من أجل شبابنا الشجعان العائدين من الحرب،
كما ترى. حسناً، لم يُعدّ رجلي الشجاع. وكثيرون غيره لم يعودوا أيضاً.
لا أعرف كيف هو الحال في الصين، لكنني أستطيع أن أخبرك أن الحياة
صعبة على المرأة الوحيدة في إنجلترا. الرقص مع الرجال في ناي ليلي
مقابل المال... ليس حياة جيدة، أليس كذلك؟ الرجال يشترون رقصة
ويظنون أنهم... اشتروا أشياء أخرى. علينا رسم ابتسامة على وجهنا
بينما يلمسوننا ويتحدثون إلينا بطريقة غير لائقة! ثم يعرضون علينا
المزيد من المال للقائنا في الأزقة، ويتوقعون أن نكون ممتنات لأنهم
اختارونا للحصول على هذا العرض وليس فتيات أخريات».

قلت بحزم: «يا له من أمر مروع! لا يصح أبدًا معاملة المرأة بهذه الطريقة، لا هنا ولا في الصين. كمواطنين متساوين...».

قال دي: «لاو، ربما يمكننا تناول موضوع حقوق المرأة في وقت آخر؟».

توقفت فجأة: «نعم. نعم، بالطبع».

قال دي للأرملة: «لكن زي رين لم يكن هكذا، أليس كذلك؟».

ابتسمت بحزن: «أوه، لا! زي رين كان مختلفًا. أحيانًا لم يرغب حتى أن يرقص، بل أراد الجلوس والتحدث فقط. تحدث الإنجليزية بشكل رائع! بعد فترة بدأ يطلب مني الخروج معه في فترة ما بعد الظهر. فقط للتنزه واحتساء الشاي، في مقهى شاي محترم! عندما طلب مني الزواج، شعرت وكأنني أكثر فتاة محظوظة في العالم».

- كان بالفعل رجلًا رائعًا. وهل وفر المتجر لكما دخلًا جيدًا؟

- كان لدى زي رن آمال كبيرة للمتجر، لكنه لم يحققها. ومع ذلك، كان يغادر إلى المتجر فورًا بعد الإفطار. كنت أتسوق وأطهو وأقوم بأعمال المنزل. (وابتسمت تلك الابتسامة الشاحبة مرة أخرى) انشغل زي رن والسيد لي، مساعد المتجر، مع الزبائن والبضائع طوال اليوم. لم أكن أراه مجددًا حتى يعود في المساء. كنت أحضر له الشاي. (مسحت دمعة بمنديل مطرز) أخبرني دومًا إنه يحب الطعام الإنجليزي، طالما كنت أنا من يطهوه له. (رفعت المنديل إلى عينيها مرة أخرى) أنا آسفة.

قال دي: «لا، لا، نحن نعتذر على إزعاجك في هذا الوقت. سيدة ما، عندما كنا في فرنسا طلب مني زي رين، في حال وفاته، أن أرتب لإرسال جثمانه إلى الصين. جئت إلى لندن مستعدًا للقيام بذلك، ولكن في ضوء زواجكما، ربما تفضلين دفنه هنا؟».

- أنا... فكرت في أخذه معي إلى نورفولك، لكنه لم يكن مسيحيًا
ولست متأكدة إن كانوا سيسمحون لي بدفنه في مقبرة الكنيسة.
أعلم كم كان يحب بلده. (رفعت عينيها نحو دي) ربما يكون من
الصواب أن تعيده إلى وطنه.

أوماً دي برأسه: «حسنًا، سأقوم بالإجراءات اللازمة. تعازينا مرة
أخرى. لا داعي لمرافقتنا إلى الباب».

بعد مغادرة شقة الأرملة، هبطنا الدرج المهتز ووصلنا إلى الشارع.
بحلول ذلك الوقت، كانت مصاريع نافذة المتجر قد فُتحت، وتمكنا من
رؤية رجل يتحرك بالداخل. طرق دي الباب وفُتح.

بدأ الشاب عند الباب بالقول: «آسف، أيها السادة، لكن هذا المتجر
لم يعد مفتوحًا للأعمال التجارية». على الرغم من أنه صيني، فإنه كان
يرتدي بدلة وربطة عنق كالتي يرتديها الموظفون البريطانيون في
متجر محترم، وليس سراويل وقميص التاجر.

قال دي: «نحن لسنا هنا للشراء، أنا دي رين جيه. وهذا لاو شيه.
نحن...».

اتسعت عينا الشاب قائلًا: «لاو شيه؟ بالطبع! أعرفك، يا سيدي.
حضرت محاضرة ألقيتها في الجامعة مؤخرًا بعنوان «الصين في الحرب
العظمى». كانت محاضرة مشوقة. أنا لي زي رونج، كنت مساعد ما زي
رين. كيف يمكنني مساعدتكما؟

ألقي دي نظرة تقييمية علي، ثم عاد إلى لي.

- عرفت ما وأصدقاءه في فرنسا خلال الحرب. أود أن أطرح بعض
الأسئلة، إذا سمحت.

- حول وفاته؟

- وحياته أيضًا.

- بالطبع. تفضلًا، رجاءً.

أغلق الباب خلفنا.

- أعتذر عن حالة المتجر.

قالها وهو يفرغ ثلاثة مقاعد خزفية من محتوياتها: تمثال بوذا برونزي، مجموعة أجراس معبد تشبه تلك الموجودة بالخارج، أربعة أكواب شاي رقيقة، وثلاث مراوح حريرية.

- بيعت كل المحتويات. أنا أقوم بحزمها للتوصيل. تفضلًا، أيها السيدان، اجلسا.

جلسنا، ثم قال دي: «لا بد أنك شاب كفء، لتجد مشتريين بهذه السرعة».

أوشكت على تذكير دي بما قاله الرقيب هونج، لكنه تحدث مرة أخرى قبل أن أتمكن من ذلك.

- أثني عليك.

قال لي زي رونج: «شكرًا لك، يا سيدي، لكنه مشترٍ واحد، ولا علاقة لي بالأمر. الكولونيل ليفينجستون مور، زبون قديم. عندما سمع بوفاة ما، قدم عرضًا للأرملة لشراء جميع المحتويات. (خفض صوته وأكمل): بيني وبينكما، لقد حصل على صفقة جيدة. اقترحت على السيدة ما أنها يمكن أن تحصل على سعر أفضل، أو حتى بدلًا من البيع أن نبقي المتجر مفتوحًا. إنه يوفر دخلًا جيدًا هنا، كما تعلمان. دائمًا ما أفاجأ في نهاية الشهر عندما نراجع الحسابات بمدى نجاحنا».

متذكرًا كلمات الأرملة حول آمال ما للمتجر، أوشكت على قول شيء، لكن سبقني دي بالكلام مرة أخرى.

- لا بد أن ما -بمساعذك بالطبع- أصبح بائعًا بارعًا ومقنعًا منذ وصوله إلى إنجلترا. أذكر أنه تمتع بالعديد من الصفات الممتازة، لكن الخطابة لم تكن واحدة منها. لي زي رونج؟ لماذا تبتسم؟

ظل الشاب مبتسمًا وهو يجيب: «تمتع ما زي رين، كما ذكرت، بصفات رائعة عديدة، لكن قلة منها كانت ذات فائدة في إدارة متجر. في البداية، توقع أن يقضي يومه كما يفعل تجار التحف في الصين: شرب الشاي مع الزبائن، ومناقشة الفلسفة والفن. عمل مساعدًا في متجر في الصين قبل الحرب، كما تعلم، وتلك كانت تجربته. ولكن الأمر مختلف هنا في بريطانيا. هنا، يأتون، ينظرون، يشترون أو لا يشترون، ثم يغادرون. لحسن الحظ، هناك اهتمام حاليًا في لندن بالمنتجات الصينية، لذا سوقت بضائعنا نفسها. أعرب لي ما كثيرًا عن خيبة أمله. قضى وقتًا قليلًا جدًا في المتجر».

- لكن أخبرتنا أرملة...

قاطعني دي مرة أخرى. ضرب ركبتيه ونهض قائلاً: «يجب أن ننطلق الآن. شكرًا لك، يا لي زي رونج. ساعدتني في تكوين صورة عن حياة صديقي في لندن. لدي سؤال أخير. أو بالأحرى، سؤالان. هل قُتل بسيف داو قصير النصل؟».

- نعم. حصلنا عليه مؤخرًا وكان على الطاولة مع البضائع الجديدة الأخرى.

- وهل لديك أي فكرة عمن قد يكون ارتكب هذه الجريمة؟ تقول الشرطة إنه كان لصًا، صينيًا آخر. هل تعتقد ذلك أيضًا؟

هز لي رأسه بالنفي.

- لا أعتقد ذلك. وقعت الحادثة في نهاية اليوم. كنت في الغرفة الخلفية وكان ما زي رين قد عاد للتو، والمتجر لا يزال مفتوحًا. أي

لص يدخل متجرًا مفتوحًا؟ لماذا لا ينتظر حتى حلول الليل؟ وإذا كان ما قد واجه لصًا، لماذا لم يصرخ طلبًا للمساعدة؟ لم أسمع شيئًا حتى خرجت من الغرفة الخلفية ووجدته. كان... كان مشهدًا مروّعًا جدًّا. آسف، يا سادة.

استدار الشاب للحظة، ثم عاد لمواجهةنا.

- لا، لا أعتقد أن فكرة اللص منطقية.

- وهل أخبرت المفتش الذي جاء بذلك؟

- بالطبع. كان مفتشًا يدعى بارد. يبدو أنه عرف ما في فرنسا أيضًا.

- نعم، أعرفه أيضًا من فترة الحرب.

- بصفته معرفة قديمة للضحية، قدّم تعازيه للسيدة ما، لكنه قال إذا

كان الصينيون سيطعونون بعضهم بعضًا بالسيوف، فلن يستطيع فعل شيء حيال ذلك.



الفصل السابع

سار دي بخطوات واسعة في شارع الكنيسة باتجاه الطريق التجاري. تساءلت داخلي إلى أين نتجه الآن، وكنت سأسأله، لكنني تخلفت عنه بينما انزلق بين الأرصفة المزدحمة كثعبان بحر بين أعشاب القصب، بينما تعرضت للدفع والاصطدام بشكل مستمر. وعندما تمكنت من اللحاق به، تكرر الأمر ذاته: لم أتمكن من التحدث لأن دي بادر بالكلام أولاً.

قال بنبرة هادئة مقصودة: «لاو، أعلم أنك غير مُلمٍ حتى بأساسيات التحقيق، لكن بالتأكيد لديك فطرة سليمة أكثر مما أظهرت حتى الآن». شعرت بالإهانة.

- لا أفهم ما تقصده.

قال في أثناء تجاوزه لسيدتين ممسكتين بسلتيهما: «عندما كنا مع الأرملة، الأسئلة التي طرحتها وجهتها نحو طريقة تفكيرك. ستعلم أكثر

بكثير إذا احتفظت بنظرياتك لنفسك وسمحت للشخص الذي تستجوبه باختيار مساره. (مرّ بجوارنا ثلاثة أطفال يضحكون ويطاردون بعضهم) ثم عندما كنا مع لي زي رونج، كاد لسانك يزل بأن ما قالته الأرملة يتناقض مع ما قاله هو للتو. هل تنكر ذلك؟».

اعتدلت في وقفتي قائلاً: «أنا لا «يزل لساني عن شيء. وبغض النظر عن ذلك، ما الضرر في أن يعرف أن ذكرياتهما عنه مختلفة؟».

- ربما لا شيء. أو ربما ضرر كبير. المعرفة قوة يجب حمايتها حتى يكون استخدامها ضرورياً.

تعثر شاب على الرصيف واصطدم بنا، ثم اعتذر ومضى في طريقه. تابع دي قائلاً: «وأيضاً، يجب أن تكون مدرّكاً لمحيطك في كل الأوقات».

- حقاً، يا دي. بصفتي كاتباً، أعتقد أن قدراتي على الملاحظة تفوق المتوسط بدرجة أو اثنتين».

- آه. إذاً، لا بد أنك لاحظت أن محفظتك قد سُرقت للتو.

- ماذا؟

وضعت يدي في جيب سترتي، فوجدته فارغاً. انطلق دي كالسهم. حاولت أن أتبعه من كُتب، لكنني تخلّيت عن الفكرة عندما رأيته يقفز في الهواء، يمسك بعمود إنارة، ويتأرجح فوق رؤوس عدة أشخاص. سقط على الأرض واختفى. واصلت السير بطريقة أكثر تقليدية، متجهاً نحو الجلبة التي تردد صداها عبر الحشد أمامي.



وهنا نصل إلى أولى تلك الأحداث التي حذرتك منها في بداية هذا الكتاب. لم أكن حاضراً في أثناء المطاردة والقبض اللذين أسفرا عن استعادة محفظتي. لكن دي استعادها، وسأرسم لك صورة لكيفية

قيامه بذلك. نظرًا إلى أنني لم أشاهد الأحداث بنفسي، فإن هذه الصورة ستكون بالضرورة تخمينية. ومع دي واجهت صعوبة إضافية: لم يكن من السهل إقناعه بوصف الأحداث التي لم أشهدها. في نظره، لم يكن لهذه الأحداث أي تأثير على سعيينا لتحقيق العدالة لمآزي رين (رغم أنها كما سنرى لاحقًا، أسفرت عن نتائج أخرى)، ولذلك، بمجرد انتهائها، لم تعد تثير اهتمامه. بحلول الوقت الذي وجدته فيه وأعاد لي أغراضي، كان دي متلهفًا للوصول إلى وجهتنا التالية. لم يخبرني بما حدث إلا على فترات قصيرة بينما كنا نسير مسرعين. جمعت هذا السرد المتقطع في رواية متكاملة، تتيح لي، قبل أن أسرد تفاصيل مقابلتنا التالية، أن أروي لكم مغامرة المحفظة.

انطلق دي كالسهم.

قفز ممسكًا بعمود إنارة، وتأرجح فوق رؤوس عدد من الناس، وهبط بخفة على الرصيف، وسط دهشة الرجال والنساء (وسعادة غامرة لطفلين صغيرين) الذين لم يسبق لهم أن رأوا رجلًا صينيًا يرتدي رداءً يسقط من السماء. لمح اللص واندفع خلفه بينما استدار الشاب بزاوية حادة إلى شارع متعرج. زاد دي من سرعته وأمسك باللص من كتفيه. ثم أدار الشاب حول نفسه وألقاه على الأرض.

ما إن فعل ذلك حتى وجد نفسه محاطًا بعصابة من المشاغبيين. خرجوا من المداخل والأرصفة حيث كانوا يتسكعون، ألقوا سبائهم وبدأوا في تحريك أيديهم استعدادًا للعراك.

هتف أحدهم: «هيه! ما الذي يجري هنا؟».

وقف دي فوق اللص ونظر حوله مبتسمًا. استرجع أفكاره في ذهنه قائلاً: «أولًا، اعتُقلت وأنقذني أَرستقراطي وأحد أبناء بلدي. ثم التقيت الرقيب هونج، وها أنا الآن في موقف أعدي له والد هونج بشكل جيد. حقًا، لندن مكان رائع».

أشار دي إلى المشاغبين واحدًا تلو الآخر وعَدَّ بصوت عالٍ: «ي، إر، سان، سيه، وو، ليو⁽¹⁾».

حدقوا إليه بحيرة. قال أحدهم: «إنه صيني غريب الأطوار حقًا. هلم يا شباب، لنلقنه درسًا».

وبذلك، بدأوا بالاقتراب منه.

تجنبًا للرجل المستلقي على الرصيف مدهوشًا فاغرا فاه، تراجع دي إلى وضعية القوس، ممددًا ذراعه اليمنى خلفه بقبضة مغلقة، وذراعه اليسرى أمامه في وضعية مخلب النمر. تردد في ذهنه صدى كلمات السيد هونج: «عند مواجهة خصوم متعددين، يجب استخدام تقنية اللكمة المتموجة الطويلة إلى أقصى حد ممكن».

أضخم أفراد العصابة، من اقترح ضربه، أطلق نخيرًا وانقض على دي بركة عنيفة مستهدفًا وسط جسده. تحرك دي بجسده نحو اليسار ليتجنب الركلة وضرب بساعده أسفل ركبة الرجل مباشرة. أطلق المشاغب صرخة حادة ووجه لكمة غاضبة بيده اليمنى. انحنى دي لتجنب اللكمة وتبعها بلكمة متأرجحة، ثم ضرب بيديه اليمنى واليسرى تباعًا تحت ذقن خصمه. وأخيرًا، وجه دي لكمة ساحقة إلى فك المشاغب كضربة قاضية.

سقط الرجل الضخم على الرصيف مغشيًا عليه.

(1) الأرقام من واحد إلى ستة باللغة الصينية. (الترجمة)

استقام دي قائلاً لبقية العصابة: «هل نتوقف عن ذلك؟».

تردد المشاغبون. وبعد لحظة، نفخ أحدهم صدره مجيباً: «بالطبع لا!». وانقض هو ورجل آخر نحو دي.

هز دي كتفيه، ثم استخدم ساعده الأيسر لصد ضربة المهاجم الأول، أمسك بيد الرجل كاسراً ذراعه. اندفع المشاغب الثاني نحوه. دار دي بين الاثنين. نظراً إليه غير مصدقين بينما أطلق ضربة مزدوجة سريعة، بذراعين ممدودتين. أصاب كل منهما في مؤخرة جمجمتيهما، فأوقعهما على وجهيهما في الوحل على الشارع المرصوف بالحصى.

هاجمه رجل آخر، لم يكن في طول الأول لكنه أثقل مرتين، اندفع نحوه. صدّ دي لكتمته بيده اليسرى المتأرجحة، وضرب الرجل الثقيل في منطقته الحساسة بيده اليمنى. بسرعة، استدار دي خلفه مصوباً ضربة مدمرة بمرفقه إلى رأسه. سقط الرجل المتألم على ركبتيه، واضعاً يديه بين ساقيه.

ثبت دي نظره على العضوين المتبقين من العصابة، مستعداً للهجوم القادم. تبادل الاثنان نظرات سريعة، ثم استدارا معاً وغاصا بين الحشد هاربين.

في هذه اللحظة، وبعدما شققت طريقي بين المتفرجين، وصلت أخيراً إلى دي، وبهذا أستطيع الآن متابعة سردي.

وجدت دي واقفاً فوق جسد شاب إنجليزي نحيف يرتجف مستلقياً على الأرض، وهو الرجل الذي تعثر بنا. استلقى أربعة رجال آخرين، أكثر قوة منه، على الطريق المرصوف بالحصى مصابين بأشكال

مختلفة، بينما يمكن رؤية اثنين آخرين من المشاغبين يتسللان مبتعدين عبر الحشد.

قال الشاب المرتجف: «أرجوك، يا سيدي! لم أقصد أي ضرر! صديقك هذا (أوماً برأسه نحوي) كان هدفًا سهلاً. ولم أتناول وجبة جيدة منذ أيام».

من مكانه على الأرض، مدَّ يده إلى دي وكانت محفظتي واضحة في يده.

أخذ دي المحفظة سائلًا: «هل من عادتك ارتكاب جريمة كلما شعرت بالجوع؟».

- الحياة ليست سهلة، يا سيدي.

قال دي: «لا، أتخيل أنها ليست كذلك. ينبغي أن أستدعي الشرطة نيابةً عن صديقي».

- أوه، لا، أرجوك، يا سيدي! السجن لا يناسبني، حقًا لا يناسبني.
قال دي وهو ينظر إليه بتفكير: «أليس كذلك؟ حسنًا، قد يكون هناك حل آخر. إذا كنت موظفًا، أعتقد أنه لن يكون لديك سبب للسرقة؟».

- أوه، لا، سيدي. إذا استطعت أن أملأ بطني بعمل شريف طوال اليوم...

- يمكنك ذلك. أنا منشغل بتحقيق في قضية خطيرة. سأحتاج إلى معلومات معينة وقد تكون في وضع يمكنك الحصول عليها. إذا أحضرت لي تقارير من وقت لآخر عن الموضوعات التي سأطلبها، سأكافئك. ما رأيك؟

قفز اللص على قدميه قائلًا: «يا لها من فكرة رائعة! كيف سأجذك؟».

- إذا احتجت إليك، سأجذك. ما اسمك؟

- جيم، يا سيدي. جيم فيني، لكن أصدقائي ينادونني جيمي فينجرز.
- وأين تعيش، يا جيمي فينجرز؟
- شارع سيلفر، يا سيدي. في ستيبني. أليس هذا مضحكاً؟ لم أرَ قطعة فضية واحدة منذ أن جئت إلى هناك.
- حسناً، يا جيمي فينجرز. الآن خذ هذا.
- فتح دي محفظتي وأخرج نصف كرونة.
- ها هي عملة فضية. اذهب واملاً بطنك.
- نعم، يا سيدي! شكرًا، يا سيدي!
- استدار اللص لينصرف، ثم عاد مردفًا: «وأود أن أقول، يا سيدي، أن مشاهدتك تقاتل وتقفز وتتأرجح في الهواء -حتى وإن كنت تطاردني- كانت شرفاً. ظننتك جاك النطاط⁽¹⁾ نفسه، حتى رأيت أنك صيني».
- سأل دي: «من هذا؟».
- أوه، بربك يا سيدي. بالتأكيد سمعت عن جاك النطاط، رعب لندن؟
- قال دي: «لا، لم أسمع به. ربما عليّ معالجة هذا النقص. هيا، يا لاو».
- سلمني محفظتي وتقدم عبر الحشد. ومرة أخرى، سارعت للحاق به.

(1) Springheel jack هو شخصية أسطورية في الثقافة البريطانية، تعود أصولها إلى القرن التاسع عشر. وهو شخص أو كائن غامض عُرف بقدرته على القفز بشكل مدهش والتحرك بسرعة كبيرة. (المترجمة)



الفصل الثامن

- قلت ونحن نسارع في الشارع المزدحم: «دي! أعطيت نصف كرونة لذلك اللص من محفظتي».
- جعلت محفظتك جذابة للغاية للسرقة، وبذلك عرضت عليه أكثر من مجرد نصف كرونة.
- أغلقت زر سترتي والمحفظة بداخلها.
- اقترحت أيضاً أنك تستطيع منحه وظيفة شريفة. أجرؤ على القول إن ذلك الشاب لم يعمل يوماً عملاً شريفاً منذ أن كان يرتدي السراويل القصيرة.
- العمل الذي سيقوم به من أجلي سيكون شريفاً. في مناسبات أخرى، وجدت أن ذلك يكفي أحياناً لدفع شخص للبدء في مسار حياة مختلف.
- هل استخدمت الخارجين عن القانون من قبل؟

- مرات عديدة.

بدا عليّ الارتباك كما شعرت به بسبب تقبله السهل لهذا السلوك الفاسد، فأضاف: «الصوص الناجحون، يا لاو، يميلون إلى أن يكونوا رجالاً ذوي معرفة وجراًة. عندما توجه هذه الصفات لاستخدامات شريفة، يمكن أن تكون ذات قيمة كبيرة. (نظر دي إليّ وأضاف): كما أن من عادتي استخدام أي أدوات متاحة لي».

لم أكن سعيداً بما تحمله تلك العبارة من معانٍ، لكنني تبعته وهو يخطو إلى الشارع وينادي على سيارة أجرة.

وصلنا بسرعة إلى منزل الكولونيل ليفينجستون مور في منطقة مايفير، وهو المشتري لمحتويات متجر ما زي رين. كان المنزل عبارة عن بناء رائع من الحجر الجيري في ساحة بيركلي، ربما ليس الأقدم أو الأكثر فخامة، لكنه بناء مهيب بلا شك. فوق المدخل، برز درع كبير يحمل صورة حصان مجنح يقف على رجليه الخلفيتين. وعلى الباب، هناك رأس أسد برونزي يمسك حلقة في فمه. الخادم الذي أجاب على استخدام دي لهذه الحلقة لم يرفع حاجباً عند رؤية اثنين من الصينيين يقفان أمام عتبة منزل سيده. كانت بطاقة الزيارة الخاصة بجامعتي جاهزة معي، وبصراحة، كنت أتطلع إلى الشرح البليغ الذي سيقدمه دي لسبب وجودنا. لكن بعد إعلان أسمائنا، لم يحتج لأي تفسير إضافي، حيث أخذ الخادم بطاقتي ووضعها على صينية فضية، وقادنا عبر قاعة المدخل. ثم فتح باباً إلى غرفة جلوس مزينة بالبضائع والتحف الصينية، وأعلن بصوت رسمي: «السيد لاو والسيد دي».

نهض رجل بدين يرتدي سترة تدخين⁽¹⁾ تقليدية من كرسي
بجناحين، وأزاح قط رمادي كبير من على حجره بفضاظة. شعر القط
بالإهانة وغادر الغرفة. رفع الرجل البطاقة التي قدمتها من الصينية. قال
بصوت جهوري: «شكرًا لك، يا بيركنز. يمكنك الانصراف الآن». فانسحب
الخادم.

قال الرجل بصوت مرتفع يشبه الضجيج والضوضاء الناتجة عن
المدفعية: «ليفينجستون مور، كولونيل، فرقة مشاة دورهام الخفيفة،
متقاعد». لمعت عيناه الزرقاوان، وعندما ابتسم، شكلت سوائفه قوسين
حول شفتيه الممتلئتين.

- سعيد بلقائكم. يسعدني دائمًا لقاء العلماء.

ابتسم ابتسامة عريضة موجهة إلى دي: «هل أنت لاو؟».

قال دي: «لا، هو لاو. أنا دي رين جيه، في خدمتك».

رد الكولونيل قائلًا: «آه، الرداء هو ما أربكني. العلماء الصينيون
ورداءاتهم، كما تعلم. حسنًا، أعتقد أنكم جئتم لرؤية مجموعتي؟
يسعدني دائمًا عرض كنوزي».

أوشكت على تصحيح الكولونيل عندما أدركت أنني لا أعرف السبب
المحدد لقدومنا. فقال دي: «بالفعل، يا سيدي، هذا جزء من غرضنا.
نعلم أنك خبير كبير في الفن الصيني».

أوما الكولونيل بوقار: «نعم، نعم، هذا صحيح. أنتم، أبناء السماء،
ذواقة بارعون للفن. عليّ أن أقول إنه أمر مثير للإعجاب. تعاليا، لنبدأ
من هنا».

(1) هي سترة غير رسمية للرجال، صُممت في الأصل لأجل تدخين التبغ في خمسينيات
القرن التاسع عشر. (الترجمة)

رغم أن استخدامه الخاطئ لكلمة «ذواق» أزعجني بقدر ما أزعجني أسلوبه في مخاطبتنا، فإنني تمالكت نفسي كما توقع دي مني. قادنا الكولونيل إلى طاولة بجانب النافذة. وخلال نصف الساعة التالية، تحدث عن طبق بعد لوحة، وعاء بعد مروحة، جرة برونزية بعد حصان طيني. تبعت دي واستمعنا بصمت، رغم أنني اضطررت لعض لساني أكثر من مرة. لم أكن خبيراً في الفن الصيني، لكنني أستطيع التمييز بين فنون أسرة تانج ومينج، والتفرقة بين علامة عهد يونجله وتلك من فترة لاحقة، والتمييز بين مبخرة وكأس النبيذ. لم يمتلك الكولونيل مور مثل هذه المعرفة. وصف بعض القطع في مجموعته بشكل صحيح، والبعض الآخر وصفه بطريقة مشوشة تشير إلى أن فهمه للثقافة الصينية محدود للغاية. ومع ذلك، أرانا مجموعته بفخر كبير.

وأخيراً قال دي: «شكراً لك، يا كولونيل، على هذه الجولة المفيدة. لن نأخذ المزيد من وقتك. لا بد أنك منشغل بالتحضير لوصول مقتنياتك الجديدة».

انعقد حاجبا الكولونيل متسائلاً: «مقتنيات جديدة؟».

- محتويات متجر ما زي رين.
- آه! آه، نعم، بالطبع. أمر مؤسف جداً، ذلك. كان رجلاً طيباً ما. رجل طيب.
- نعم، إنه لأمر مؤسف. أعتقد أن أرملة كانت مضطربة للغاية لتفكر في إبقاء المتجر مفتوحاً.
- أوه، نعم، تماماً. لهذا عرضت شراء المحتويات دفعة واحدة. لأخفف عنها عبء التصرف بها، كما تعلم. قد تظن كونها متزوجة من رجل صيني.. لكن لا، الفتاة المسكينة ليس لديها أي فكرة،

عندما يتعلق الأمر بالتحف الصينية لا تستطيع التمييز بين الصقر والمنشار.

فكرت في نفسي: «ولا أنت أيضاً تستطيع».

قال دي: «لكن مساعد المتجر الشاب بدا ملمًا بالأمر. ألم تفكر في إبقاء المتجر مفتوحًا تحت إدارته؟».

ظننت أنني رأيت بريقًا في عيني الكولونيل، لكن ربما لا، إذ ظل متحدثًا بود قائلاً: «لا أستطيع الجزم. دائمًا ما بدا لي غير موثوق به ذلك الشاب. يهرع إلى المحاضرات هنا وهناك. ربما كان بلشفيًا، بلشفي صيني، نعم، إنه كذلك. لا، لا، الأمر أفضل بهذه الطريقة، أفضل بكثير. حسنًا، أيها السادة، إذا لم يكن هناك شيء آخر؟».

قال دي: «لا، لا شيء آخر. شكرًا لك، يا كولونيل. سنغادر الآن». وغادرنَا.

سألني دي في أثناء سيرنا: «حسنًا، يا لاو، ما رأيك في ذلك؟».

- هذا الرجل أحقق. أيعد نفسه خبيرًا؟ هراء! التحف الصينية شائعة في لندن، لذا يجمعها. من المحتمل أن تكون مجموعته محور حديث ناديه، حيث يناقش رجال في مثل جهله كنوزه بنغمات جادة. وعندما تتغير صيحات الموضة، أراهن أنه سيبيع كل شيء ويقتني مجموعات من فن البانتو أو الشيروكي أو أي هوس جديد يأتي بعد ذلك».

- لا أختلف معك. ولكن كيف يتعلق ذلك بتحقيقنا؟

فكرت قليلًا، ثم قلت: «آسف، لا أرى...».

- لا، توقعت ذلك. ألم تجد أنه من الغريب أنني اضطررت لتذكيره بمقتنياته الجديدة؟ وعندما التقينا لي زي رونج في المتجر، هل لاحظت أي شيء يوحي بأنه قد يكون بلشفياً؟
- بل على العكس تماماً. بدا حريصاً على استمرار الأعمال التجارية الرأسمالية للمتجر. لكن دي، ماذا يعني كل هذا؟
- لا أعلم. من المهم في أثناء تحقيقنا ألا نتسرع في إصدار الأحكام بناءً على معلومات غير مكتملة.

واصلنا السير، متعمقين في نقاش حول التناقض بين الشغف الإنجليزي بآثار العصور الصينية القديمة والسعي الحالي في الصين نحو الحداثة. استغرقتنا النقاش حتى توقف دي فجأة. نظرت حولي؛ مشينا لوقت طويل دون أن ألاحظ، وعبرنا إلى منطقة وايت تشابل. تناثرت البرك في الشوارع المظلمة، وغمرت روائح الملفوف العتيق والأسماك المتعفنة الأجواء.

سألت: «لماذا جئنا إلى هنا؟ فيم نحقق؟ هذه المنطقة غير محببة على الإطلاق».

- نحن لا نحقق في شيء. فكرت في تغيير ملابسني إلى زي أوربي. ها هو الفندق الذي أقطنه.

أشار دي إلى المبنى الذي وقفنا أمامه. الطلاء المتقشر، السلم المائل، والمظهر العام المتهالك لم يبشر بخير عن الداخل، ولا عن طبيعة الضيوف الآخرين.

- دي! لماذا هنا؟

ابتسم دي ابتسامة ساخرة مجيبًا: «أنا صيني يحتاج إلى مكان للإقامة في لندن. الفنادق مزدحمة في هذا الموسم، وأصحابها يختارون نزلاءهم بعناية. هذا ما استطعت العثور عليه. يبدو أن الهوس الحالي بفننا لا يمتد ليشملنا نحن كأشخاص».

مكتبة سُر من قرأ

- أعرف ذلك جيدًا! لكن حقًا، يا دي، لا يمكنك البقاء هنا. أشعر بالرهبة لمجرد التفكير في حالة الغرف، ولا أستطيع أن أتخيل أن الوجبات ستكون شهية. (توقفت مفكرًا قليلًا) لماذا لا تلجأ إلى عائلة راسل؟ أنا متأكد أنهم سيسعدون باستضافتك.

- من المحتمل جدًا. ولكن كما تشير الظروف التي التقينا فيها، يمكن أن تكون التحقيقات شائكة. أنا واثق من أن عائلة راسل ستحاول أن تتظاهر بعدم الاكتراث لأي سمعة سيئة قد يجلبها عملي لهم، لكنني لن أسمح بذلك.

- أفهمك.

مرّت شاحنة بائع السمك بجانبنا، تتأرجح من جانب إلى آخر على الرصيف غير المستوي. اندفعت قطعة في مرحلة النمو، بارزة الأضلاع، عابرة الشارع بسرعة. نظرت مرة أخرى إلى المبنى المتهالك أمامنا، وشعرت بقشعريرة تسري في جسدي.

عرفت دي لمدة تقل عن يوم واحد. خلال ذلك الوقت، وجدت نفسي في زنزانة، واشتركت في شجار، وسُرقت محفظتي. لكنني أيضًا تناولت العشاء مع برتراند راسل، وقابلت امرأة إنجليزية أحبّت بوضوح رجلًا صينيًا، رغم أنه ميت الآن. التفكير في هذا الأمر الأخير ملأني بأمل متجدد، لدرجة أنني قبل أن أدرك، كنت قد اتخذت قراري.

قلت لـدي: «أسكن في بلومزبري مع السيدة ويندل وابنتها. غرفتي واسعة تكفي لشخصين. ستبقى معي طوال فترة إقامتك في لندن».

- لا، يا لاو، لا أستطيع...

- نعم، يا دي، أصر على ذلك. سأذهب الآن لترتيب الأمور مع السيدتين. خذ وقتك في حزم أغراضك. ها هو العنوان. أتوقع وصولك خلال ساعة.



الفصل التاسع

مكتبة

t.me/soramnqraa

أسرعت إلى المنزل الصغير بجانب المتحف البريطاني، مبتهجًا بشكل غير معقول بفكرة مشاركة غرفتي مع زميل صيني. ينقسم الصينيون في لندن عادة إلى مجموعتين: الطلاب، الذين كانوا أصغر مني سنًا وينحدرون من عائلات ثرية وقوية، مما يسمح لهم بالانغماس في الراديكالية - بل وحتى البلشفية الأولية - التي هزت الصين في تلك السنوات؛ والبحارة وعمال الموانئ، أبناء الفلاحين غير المتعلمين الذين ركبوا السفن هربًا من الفقر في وطنهم، ليجدوا أنفسهم الآن يعيشون في فقر في ميناء أجنبي. بالطبع هناك أيضًا بضع عشرات من أصحاب المتاجر، مثل الرقيب هونج ومَا زي رين، وعدد قليل من أصحاب المطاعم، ورجال الأعمال، وحتى بعض الفنانين؛ بالإضافة إلى عدد قليل من الأكاديميين مثلي، ودبلوماسيّي البعثات. لكن، من بين كل هؤلاء، لم أجد لروحي الانطوائية رفيقًا حقيقيًا. شعرت بالوحدة؛ ومع أن دي

متكبر في سلوكه وغامض في تفكيره، إلا أنني اكتشفت، لدهشتي، أنني أستمع بوقتنا معاً.

في أثناء سيرى، فكرت في كيفية تقديم فكرة استضافة دي للسيدة ويندل وابنتها. كنت واثقاً أن ماري، المنشغلة بشؤون محل القبعات الذي تعمل فيه، والكنيسة حيث تتعبد، ومدرسة الأحد التي تعمل معلمة بها وتغني في الجوقة، لن تعترض. لكنها ليست صاحبة القرار في هذا الشأن. استقرت في ذهني خطة، وبدأت بتنفيذها فور تعليق قبعتي في المدخل.

ناديت وأنا أدخل غرفة الجلوس: «السيدة ويندل. ماري! من الجميل رؤيتكما معاً».

هرع الكلب الصغير نحوي، يهز مؤخرته بجنون. فمسدتُ رأسه، وأنا أضيف: «ونابليون أيضاً، أمل أن تكونوا جميعاً بخير؟».

ابتسمت السيدتان، وابتسامة ماري المشاغبة أرسلت سهاماً لتخترق قلبي. ردت الأم: «نحن بخير تماماً، شكراً لك، يا سيد لاو. وأنت، هل أنت بخير أيضاً؟».

جلست على كرسي مطرز مجيباً: «بالتأكيد! أنا سعيد جداً. لقد التقيت أحد معارفي. إنه قاضٍ».

- يا إلهي، يا سيد لاو. بالأمس تعرفت على شخص محترم، واليوم قاضٍ. قريباً ستصبح أعظم من أن تبقى معنا.

قلت، غير متأكد مما إذا كانت جادة: «لن يحدث ذلك أبداً، يا سيدة ويندل. في الواقع، أخبرت القاضي منذ ساعة فقط كم أنا محظوظ للإقامة مع سيدتين تتمتعان بهذه الأناقة والراقي».

- أوه، سيد لاو!

احمرَّ وجه الأم، بينما ضحكت الابنة ضحكة عذبة.

قد تكون «الأناقة» بالنسبة إلى السيدة ويندل كلمة مبالغاً فيها نوعاً ما. كانت تنورتها، المشدودة عند الخصر، بالكاد تصل لأربع بوصات فوق الكاحل، وكانت ألوانها المفضلة الأزرق الداكن والبني. أما أحذيتها كانت من نوع أوكسفورد، سوداء، بكعوب منخفضة ومتينة. كنت أشك في أن ملابسها، باستثناء التعديل الطفيف في الطول، لم تتغير كثيراً عن تلك التي ارتدتها قبل الحرب.

أما ماري، فكانت حالة مختلفة تماماً. دُمى العرض في واجهات متجر سيلفريدجز، على الرغم من إعادة تزيينها شهرياً، لم تكن تتابع الموضة الراهنة بدقة أكبر منها. فضلت ارتداء الفساتين التي تناسب بنعومة من الكتف لتغطي الجذع والوركين، وتنتهي بثلاث بوصات قليلة أسفل الركبة. أبرزت الأقمشة المبهجة بنقوشها الزاهية وألوانها الناعمة، والأقمشة المخططة المزينة بالأقواس قوامها المفعم بالحيوية بطريقة تجعل قلب أي رجل يخفق من روعة جمالها.

خفق قلبي في تلك اللحظة، بمزيج من التوجس والإعجاب، بينما تابعت قائلاً: «الآن يجب أن أخبركما، أن القاضي -وأنا- بحاجة إلى مساعدتكما، أيتها السيدتان الرائعتان».

رفعت السيدة ويندل حاجبها بدهشة سائلة: «ما نوع المساعدة التي يمكننا تقديمها لقاضٍ؟».

- للأسف، لم يجد مكاناً يقيم فيه. وبما أنه سيكون في لندن لمدة لا تزيد عن أسبوعين، فكرت أن أطلب منكما السماح له بمشاركة غرفتي.

ضيقَت السيدة ويندل عينيها بشك قائلة: «كيف لم يجد مكاناً؟ تعج لندن بالفنادق الكبيرة والصغيرة».

- صحيح. لكن للأسف، بعض الفنادق رفضت استقباله، وتلك التي قبلت استضافته لا تليق بمقامه.

- ولماذا رفضوا استقبال قاضٍ؟

- يمكن أن يحدث ذلك، إذا كان القاضي صينيًا.

رفعت السيدة ويندل ذقنها وضمت شفتيها، مما أظهر لي أنها تأكدت من شكوكها. أما ماري، فقد أطلقت ضحكة رنانة قائلة: «قاضٍ صيني! من سمع بمثل هذا الأمر؟ هل يوجد قضاة في بلدكم، يا سيد لاو؟».

- بالطبع لدينا قضاة.

يا لسحر سذاجتها!

- النظام القانوني في الصين قديم ومعقد للغاية. في الأيام التي سبقت حكم الإمبراطور الأول من أسرة تشين...

- أوه، أمي، لنفعل ذلك! قاضٍ صيني في منزلنا. يا له من شيء مميز!

قالت السيدة ويندل: «ماري، من فضلك! لا، أنا آسفة، يا سيد لاو. لا أعتقد أن ذلك سيكون ممكنًا».

- أتوقع بالطبع دفع زيادة في الإيجار خلال فترة إقامة القاضي دي، لتغطية أي تكاليف إضافية قد تترتب على وجوده. وأيضًا - خطر لي أن أقول - القاضي هو صديق للسيد المحترم برتراند راسل. هو من عرفني عليه.

لم أعتقد أنه من الضروري أن أضيف: حدث ذلك بالأمس، وفي زنزانة السجن.

عند سماع هاتين المعلومتين، بقيت السيدة ويندل صامته لبضع لحظات، وهي تلاعب الكلب الذي قفز إلى حجرها. قالت أخيرًا، مفتقرة

بوضوح إلى حماس ابنتها للفكرة: «سيد لاو، هذا القاضي.. لا أعتقد أنه يترك شعره على شكل ضفيرة، أليس كذلك؟ أو يحتفظ بأظافره طويلة وحادة؟».

- بالتأكيد لا.

حاولت ألا أظهر استيائي من هذه الصورة المهينة، وأنا أضيف: «إنه ممثل للدولة الصينية الحديثة، وكذلك أنا».

صاحت ماري: «أوه، أمي! يجب عليك الموافقة! القاضي محترم، والسيد لاو يؤكد ذلك (غمزت لي، وشعرت بخديّ يحمران) وسيكون ذلك عملاً خيرياً مسيحياً أن نعطي الرجل المسكين مكاناً يضع فيه رأسه. إنه أمر مؤقت فقط، أليس كذلك، يا سيد لاو؟».

أكدت مرة أخرى: «لن تزيد إقامته عن أسبوعين، ربما أقل».

استمرت السيدة ويندل في إظهار عدم رضاها. فقلت: «دعوني أقترح أمراً. لقد دعوت القاضي دي إلى هنا وسيصل (رفعت ساعتني من جيب صدري) قريباً جداً. إذا وجدت ما بعد لقائه أنه غير مرحب به بأي شكل من الأشكال، يمكنكم بالطبع أن تطلبوا منه المغادرة. لكنني واثق من أنكم ستكتشفان أنه رجل متعلم ومهذب. مثلي تماماً».

قبل أن تتمكن السيدتان من الرد، صدح صوت ثلاث طرقات مرحة على مطرقة الباب النحاسية.

قلت: «لا تزعجا أنفسكما، سأذهب أنا». ثم رفعت نابليون الذي ركض نحو الصوت بنباح تحذيري، مستعداً لأداء مهامه ككلب حراسة، وسارعت إلى المدخل وفتحت الباب.

كما توقعت، كان دي هو من يقف أمامي، لكن بطلّة مختلفة تماماً. غسل عنه أوساخ مغامرات اليوم حتى باتت بشرته لامعة. انساب شعره

الممشط بعناية تحت قبعة فيدورا عصرية تكمل طقم بذلته الأنيقة وربطة عنقه وأحذية الوينج تيب. كما تحول في السجن من عالم نصف أعمى إلى نسخة جيدة مني، ها هو الآن يقف على عتبة منزل عائلة ويندل كرجل مبتهج، قوي الفك، ومحترم من الطراز الحديث للصينيين، حاملاً في يده حقيبة جلدية كبيرة، وفي اليد الأخرى باقة من زهور السوسن.

همست بينما كشر نابليون عن أنيابه للغريب: «أحسن التصرف الآن، يا دي. السيدة ويندل لم تقتنع بعد».

تركنا قبعة دي وحقيبته في المدخل، ودخلنا إلى غرفة الجلوس. وضعت الكلب على السجادة، فركض نحو السيدة ويندل وقفز إلى حضنها لحمايتها.

ابتسم دي ابتسامة مشرقة للسيدتين وقدم زهور السوسن للسيدة الأكبر سنًا.

قال دي، بلكنة إنجليزية راقية تشبه تلك التي يتحدث بها خريجو أوكسفورد وكامبريدج، شديدة الشبه بلكنة برتراند راسل: «آه، السيدة والآنسة ويندل، أنا دي رين جيه. إنه لشرف لي. أخبرني صديقي لاول الكثير عنكما. لكنه فشل في إيصال مدى جمالكما، وكم تشبه الابنة أمها».

احمرَّ وجه السيدة ويندل عندما قبلت الزهور. تمكنت من رؤية أن رأيها بشأن مسألة الإقامة بدأ يتغير. لكن نظري كان مثبتاً على ماري، التي لمعت عيناها بطريقة جديدة عند رؤية دي.

طلبت الأم، التي كان تشبيهها بابنتها صورة تعبيرية أكثر من كونها حقيقة: «ماري، أيمكنك وضع هذه الزهور في مزهرية؟ سيد دي، أو ربما يجب أن أدعوك القاضي دي؟ تفضل بالجلوس، من فضلك».

ابتسم دي مجدداً وهو يقول: «أنا قاضٍ في بلدي، لكن ليس لدي أي منصب رسمي هنا. السيد دي هو اللقب المناسب». ثم جلس واضعاً ساقه الأنيقة فوق الأخرى.

جلست أنا أيضاً، رغم أنني شككت في أنه لو غادرت الغرفة لما لاحظ أحد غيابي، حيث افتتنت السيدتان بكتفي دي العريضتين ولباقتة العفوية. غادرت ماري الغرفة، على ما يبدو على مضض، وعادت على الفور تقريباً ومعها زهور السوسن موضوعة في أفضل مزهرية كريستال في المنزل.

- إذاً، يا سيد دي. أخبرنا السيد لاو أنك صديق للسيد المحترم برتراند راسل.

لم أفشل في ملاحظة أن ابتسامة السيدة ويندل كانت أكثر دفئاً من تلك التي استقبلتني بها عند أول لقاء بيننا.

- عرفت السيد راسل منذ فترة طويلة. التقينا عندما كان يعيش في بكين في أثناء بحثه لكتابه «مشكلة الصين». وتمكنت من تقديم بعض الخدمات البسيطة له.

قلت: «خدمة بسيطة! إنه ينسب إليك ما يقرب من نصف الكتاب! أخبرني بذلك بالأمس».

أضفت ذلك لأذكر آل ويندل بأنني، أيضاً، أعرف برتراند راسل.

- إنه رجل كريم وصديق حقيقي للصين.

سألت السيدة ويندل: «وما الذي جاء بك إلى إنجلترا؟ لا بد أنها مهمة شديدة الأهمية لتدفعك للقيام برحلة طويلة كهذه».

- ليست طويلة كما قد تبدو. لم آتِ إلى لندن من الصين، بل من جينيف. عملتُ مع البعثة الصينية في سويسرا لفترة من الوقت.

عندما ابتسم، لاحظت أن السيدة ويندل تستوعب هذه المعلومات، التي تلمح -ليس عن طريق الصدفة، على ما أظن- إلى وضع دبلوماسي معين.

قالت ماري، وهي تصفق بيديها معاً: «جينيف! هل التهمت الكثير من الشوكولاتة هناك؟ وفي الشتاء، هل تزلجت؟». وهكذا جاء دي ليعيش معي في غرفتي في بلومزبري.

في تلك الليلة الأولى، لم ينضم إلى عائلة ويندل وقت العشاء قائلاً: «لن أكون عبئاً عليكم» بعدما قمنا بتجهيز الغرف لشخصين ووفرنا ملاءات جديدة له على السرير القابل للطّي في غرفة المكتب.

- لم تتوقعا وجود شخص إضافي على الطعام، وعندي بعض الأعمال الصغيرة عليّ إنجازها. سأتناول العشاء بالخارج وأعود بعد ذلك. ابتسم للسيدتين، ثم انحنى ليداعب الكلب قبل أن يودعهما ويغادر.



الفصل العاشر

تكونت وجبة العشاء مع عائلة ويندل في تلك الليلة من حساء لحم الخنزير والبطاطس، وخبز وزبدة، وأسئلة لا حصر لها حول القاضي دي. وعلى عكس شريكى المستقبلي في السكن، لم يكن لدي اعتراض على تناول المأكولات البريطانية يصل إلى حد إغضاب مضيفتي برفض تناول طعامها. افتقدت بالطبع مذاق أطعمة الوطن، لكن رفقة ماري على المائدة كانت عادةً تعويضاً أكثر من كافٍ.

لكن في تلك الوجبة، شعرت بالإرهاق من كثرة الإشادة بالقاضي دي. هدفت أسئلة الأم إلى تهدئة مخاوفها بشأن المستأجر الجديد، بينما نبعت أسئلة ماري بوضوح من فضولها الشديد.

صرخت ماري عندما وصلت إلى ذلك الجزء من سيرة حياة دي: «هل كان في فرنسا خلال الحرب؟ قاضٍ في ساحة المعركة؟ يا له من شجاع! وتقول إنه مشهور في بلدكم؟».

قلت مصححًا: «قلت «معروف»، ليس بالضرورة مشهورًا».

سألت الأم، التي اعتبرت الشهرة مرادفًا للخطرسة، وهي صفة مقبولة للطبقة الوسطى البريطانية: «ولماذا هو معروف يا سيد لاو؟».

أجبت: «يُقال إنه يمتلك حسًا لا يخطئ للعدالة والإنصاف، مع تصميم لا يتزعزع على معرفة الحقيقة في أي قضية يتناولها».

قالت ماري: «يا له من أمر رائع!».

لكن والدتها كان لها رأي مختلف. سألت: «هل هذه الصفات نادرة جدًا في بلدكم لدرجة تجعل من يمتلكها مشهورًا؟».

أجبت بحماسة: «بالتأكيد لا! لدى الصين تراث طويل وعريق في القانون والعدالة...».

لحسن الحظ، ولأنني شعرت أنني على وشك إلقاء محاضرة، سمعنا نباح نابليون الحاد وصوت مفتاح يُدخَل في قفل الباب الأمامي. بعد لحظات، أطل دي برأسه في غرفة الطعام من الردهة قائلاً: «مساء الخير جميعًا. لن أزعجكم، سأصعد فقط...».

لكن ماري أصرت قائلة: «أوه، سيد دي، ابقَ لاحتساء القهوة معنا! أنا متشوقة لسماع مغامراتك في فترة الحرب».

مرَّ ظلُّ على وجه دي، ورغم اعتقادي أنني الوحيد الذي لاحظته، فإنه ابتسم وانضم إلينا إلى الطاولة. وبينما كانت ماري تسكب القهوة، بدأ في سرد حكاية ملأى بالفكاهة والشجاعة.

بعد حكاية ثانية طلبتها ماري وتابعتها والدتها بعينين متسعيتين، اعتذر دي مشيرًا إلى أنه يشعر بالتعب وأعلن مجددًا نيته الصعود إلى الطابق العلوي. شكرت السيدتين على تلك الوجبة الممتازة وانضمت إليه في توديعهما متمنيتين لهما ليلة سعيدة.

عندما وصلنا إلى غرفتي، قال دي: «مضيفاتك مرهقات للغاية، يا لاو».

فأجبتة: «إذا كنت لا تريد أن تكون مرغوبًا فيك إلى هذا الحد، يا دي، فلا يجب أن تكون ساحرًا للغاية هكذا. لقد كسبت ودَّهما تمامًا».

قال دي: «البريطانيون عرضة للتأثر بالسحر بشكل غريب. وجدت أنها في إنجلترا، غالبًا ما تكون أسهل وسيلة لتحقيق الهدف. ولا تؤذي أحدًا على طول الطريق».

ذهبنا أنا ودي للاغتسال، وعندما عاد دي من دورة المياه قال: «هل تعلم يا لاو أن القوات البريطانية في فرنسا كانت تشير إلى تلك الغرفة بـ «لوو»؟ ربما استعاروا هذا المصطلح من الجنود الفرنسيين الذين كانوا يسمونها بتحفظ «ليو»، وهي المرادف الفرنسي لـ «المكان». لكن الجنود البريطانيين وجدوا العلاقة بين «واترلو»⁽¹⁾ و«دورة المياه» كوميدية للغاية، واستخدموها للسخرية من الفرنسيين».

نظرت إليه متسائلًا: «هل أفهم أنك تمتلك الكثير من هذا النوع من المعلومات وستشاركها في أي لحظة؟».

أجاب: «أخشى ذلك».

جلس على السرير القابل للطّي واستخرج زجاجة وملعقة من حقيبة أدواته.

نظرت إلى الزجاجة بتمعن.

- دي! هل هذا لودانونم؟

(1) «واترلو» هي معركة شهيرة وقعت بين الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت وجيوش التحالف في مدينة «واترلو» البلجيكية. والمعنى الحرفي للكلمة هو دورة المياه. (المترجمة)

أجاب بهدوء: «نعم، هو كذلك. أفضل تدخين الأفيون عندما أستطيع، لكن رائحة الهواء حتى في أرقى الأماكن المخصصة لذلك تعلق بالملابس بشكل لا لبس فيه. لو عدت متعطرًا بهذه الرائحة، أعتقد أن سيدات عائلة ويندل كنَّ سيجدنني أقل جاذبية بكثير».

احتججت: «لكن يا دي، تدخين الأفيون، أو تناوله على شكل لودانوم، وهو ليس أفضل بكثير، هل هذا تصرف حكيم؟».

قال وهو ينظر إليَّ وأنا واقف مذهولًا بلباس نومي: «الحكمة لا علاقة لها بالأمر. بعيدًا عن قصص الفكاهة والمغامرة، يا لاو، الحرب شيء سيئ. تضمنت عقود فيلق العمال الصيني ألا يُطلب من الرجال العمل قرب الجبهة، ناهيك بالمعركة الفعلية، ولأنهم وُظفوا عمالًا، وليس جنودًا، لم يكن لديهم أسلحة. لكنهم في الواقع، تجاهلوا تلك العقود. أصيب العديد من الرجال، بما في ذلك ما زي رين، وقُتل الكثيرون. احتججت أكثر من مرة على هذا الوضع نيابةً عن الرجال. تعرضت أكثر من مرة للعقاب بسبب احتجاجاتي، رغم أنه لم يكن لأي حكومة غربية الحق في المساس بي».

- لكنني رأيتك تقاتل، بالتأكيد كانت مهاراتك القتالية كفيلة بإبعادك عن أيدي أي شخص.

- نعم، هذا صحيح. ولكنني لو رفضت سلطة البريطانيين، لرفضوا سلطتي. في تلك الحالة لأصبحت عديم الفائدة. أرسلت إلى فرنسا لخدمة أبناء وطني. وقدرتي على القيام بذلك اعتمدت على اعتراف البريطانيين والفرنسيين بشرعية أحكامي، حتى لو اعتبروا احتجاجاتي غير مشروعة».

- إذًا خضعت للعنف؟

- لم يكن ذلك خيارًا الأول، وأكد لك. لم أرَ بديلًا آخر.

- وماذا عن اللودانوم؟

- أعطتني ممرضة بريطانية، بنوع من اللطف، الأفيون عندما كنت في المستشفى. كان فعالاً، لكنه ترك آثاراً جانبية، كما ترى. قلت مرة أخرى: «لكن يا دي، ألا تؤدي هذه العادة إلى إضعاف القدرات العقلية؟».

- يمكنك أن تحكم بنفسك. كنا نحقق معاً طوال اليوم. هل بدت قدراتي العقلية أو البدنية ضعيفة لك؟ عليّ أن أعترف بأنها لم تكن كذلك.
- حسناً إذاً.

قالها، ثم صب ملعقة من الصبغة وابتلعها، ثم فعل الشيء نفسه مع الثانية.

- تصبح على خير، يا لاو. وبعد لحظة من التأمل، صب ملعقة ثالثة وابتلعها أيضاً. بابتسامة صغيرة ونظرة بعيدة في عينيه، قال: «شكراً لدعوتي لمشاركة غرفتك». ثم تمدد على السرير وفتح كتاباً صغيراً بغلاف مثير. سألت: «ماذا تقرأ؟».

- مغامرات جاك النطايط، رعب لندن. توجهت إلى غرفتي وأغلقت الباب بيننا. حتى بعد ذلك، ولوقت طويل قبل أن أخلد للنوم، سمعت دي يضحك بصوت عالٍ وهو، تحت تأثير اللودانوم، يتابع مغامرات رجل مجنون.



الفصل الحادي عشر

في صباح اليوم التالي، عندما فتحت الباب بين غرفتي، وجدت دي يرتدي ملابسه، وقد حلق ذقنه، ويواصل القراءة. نظر إليّ قائلاً: «آه، لاو! هل أنت مستعد ليوم آخر من التحقيقات؟».

أجبت، ربما بشيء من الضيق أكثر مما قصدت: «يجب أن أرتدي ملابسني وأشرب الشاي أولاً، لكن نعم، أنا متطلع لذلك».

رفع حاجبيه قائلاً: «حقاً؟ حسناً، حسناً».

كانت غرفة الطعام خالية عندما دخلت أنا ودي. خرجت السيدة ويندل من المطبخ حاملة إبريق شاي وحاملاً لشرائح الخبز المحمص عندما سمعتنا.

قالت: «صباح الخير، يا سيد دي. أمل أن تكون قد نمت جيدًا في ليلتك الأولى معنا؟ صباح الخير لك أيضًا، يا سيد لاو».

حينها وصبت لنا الشاي.

سألت بشكل عرضي: «هل غادرت ماري إلى متجر القبعات؟».

- ذهبت أولاً إلى اجتماع مع واشنطن جونز، أستاذ الموسيقى في الكنيسة.

- آه. ماري ملتزمة جدًا بمسؤولياتها في الجوقة.

قالت والدتها: «أوه، نعم، بالطبع. ملتزمة جدًا».

قشرت بيضة في كأس البيض وبدأت في تناولها. شرب دي فنجان شاي وصب لنفسه آخر على الفور.

- انظرا إلى هذا.

وضعت السيدة ويندل جريدة مطوية على الطاولة.

- قُتل رجل صيني أمس.

تبادلنا أنا ودي نظرات سريعة. قُتل ما قبل أسبوع، لذا لا يمكن أن يكون هو المقصود بالخبر. ملتُ لقراءة الأخبار. يبدو أن رجلاً يدعى تشينج، وهو عامل في الميناء، تعرض للطعن ليلة أمس.

قالت السيدة ويندل وهي تهز رأسها: «لا أعرف ماذا يفعل بنو جلدتكما، حقًا لا أعرف. جريمة قتل الأسبوع الماضي، وشغب في السجن، والآن هذا. أقول لكما، لا يمكن للمرأة الإنجليزية أن تشعر بالأمان في الشوارع».

أذهلني تزامن توقيت مقتل تشينج ومّا، لكن لم أستطع ترك تعليقها يمر دون اعتراض. قلت: «يا سيدة ويندل، لم تكن النساء الإنجليزيات هن الضحايا في أي من هذه الجرائم».

- ربما ليس بعد، لكنني متأكدة أن هذا مجرد حظ. دع شخصاً بريئاً يعبر الطريق الخطأ، وسترى كم سيستغرق الأمر حتى يتعرض لمشكلات. مهلاً، هل تعرف هذا الشخص المدعو تشينج؟
- بالطبع لا. ليس كل الصينيين في لندن يعرفون بعضهم، كما تعلمين. العمال في الميناء مثل تشينج...
- قال دي: «كنت أعرفه».
- قالها وهو يكتب شيئاً في دفتر ملاحظاته. نظر من فوق الجريدة ودفع كرسيه للخلف.
- هيا، يا لاو. لدينا عمل ينتظرنا.
- قالت السيدة ويندل بينما اتجه دي إلى الردهة ليرتدي قبعته الفيدورا: «لكن، لم تأكل شيئاً». (أسرعت لأتبعه، وأخذت قبعتي من مكانها) وأنت، يا سيد لاو، هل تناولت بيضة واحدة؟ ولا خبز محمص؟ ولا كليمنتين؟ بالكاد يمكن أن يُعتبر ذلك إفطاراً».
- قال دي: «نعتذر، يا سيدة ويندل. لا نقصد الإساءة إلى طعامك، لكن يجب أن نذهب. شكرًا لك». وخرج من الباب، وأنا خلفه.
- دي! هل كنت تعرف هذا الرجل؟
- تشينج بان لو. كان معي في فرنسا أنا ومَا زي رين.
- أقدم لك تعازي، إذا.
- شكرًا. بالطبع لاحظت كيف قُتل.
- مكتوب في المقال إنه طُعن.
- دي، وهو لا يزال يسير بخطى واسعة، أدار رأسه نحوي. لا بد أنني بدوت مرتبكا، لأنه تابع قائلاً: «أشار المقال، في نهايته، إلى الطبيعة المتعرجة للجروح. هل قرأت حتى ذلك الجزء؟».

- بالطبع قرأت. تكهن الكاتب بأن هذا يشير إلى غضب شديد من جانب القاتل.

عاد دي لينظر في اتجاه سيرنا قائلاً: «الكاتب مخطئ. اخترع رهبان معبد شاولين سيف الفراشة. تماشياً مع تعاليم البوذية، صُمم السلاح لصد الهجمات وتجريد الخصم من سلاحه، وليس للقتل. الشفرة حادة في الجزء العلوي من السيف فقط. إنه سلاح قطع، وليس طعن. إذا حاول شخص لا يعرف كيفية استخدامه أن يطعن به شخصاً، فستكون الجروح... خشنة ومتعرجة».

قلت، قد وبدأت أدرك أهمية هذه المعلومات: «أوه. إذاً، تعتقد أن تشينج قُتل بالسلاح الذي قتل به ما زي رين؟».

أجاب دي مسرعاً خطواته: «نعم».

بدأت أنا أيضاً بالسير بالوتيرة نفسها سائلاً: «إلى أين نحن ذاهبان؟».

- إلى أرملة ما زي رين.



الفصل الثاني عشر

شققنا أنا ودي طريقنا عبر ضجيج وصخب لندن في صباح ربيعي رائع. هذا الخليط اليومي من المشاهد والأصوات والروائح -هدير الشاحنات والحافلات والسيارات مطلقين أبواقهم، الأطفال يضحكون وينادون بعضهم في طريقهم إلى المدارس، المربيات يغنين للأطفال، رجال الأعمال يتقدمون بخطوات واثقة نحو أماكن عملهم، المخابز ومحلات الزهور تبعث بروائحها العطرة في الهواء الصافي- ملأني، كعادته، بشعور لذيذ من الترقب، وإحساس عميق بالأمل وإتاحة الفرص، مختلف تمامًا عما وجدته في شوارع وطني. عاشت الصين آنذاك -كما هي الآن- في دوامة من الثورة والتمرد والانقسامات والتقلبات والتراجع، مما أوجد حالة من عدم اليقين ورغبة في تجنب الأزمات. اعتقدنا آنذاك أن المستقبل قد يحمل الكثير من الوعود، لكننا لم نتمكن من رؤيته من موقعنا في الحاضر، كما هو الحال الآن.

فضل دي، كما اكتشفت، عادة السير على قدميه بدلاً من ركوب وسائل النقل الأخرى. وبينما كنت أسرع خلفه، تأملت أن تدريبه البدني على يد والد الرقيب هونج ربما أكسبه فهمًا مختلفًا لعملية السير عن فهمي لها. شعرت بارتياح كبير كلما اضطررنا للتوقف لمروور حافلة أو شاحنة، إذ كنت أستغل هذه الفرص لالتقاط أنفاسي.

ومع ذلك، لم أتمكن قط من استعادة طاقتي بشكل كافٍ لأتمكن من الانخراط في محادثة، لذا لم أكن متأكدًا مما نوى دي تحقيقه من مقابلتنا مع الأرملة. وهكذا، عندما وصلنا إلى متجر ما زي رين في لايمهاوس، قررت أن أكتفي بالمراقبة. الأمر الذي كنت واثقًا أنه سيتماشي مع تفضيلات دي.

وكان هناك الكثير لمشاهدته. رجال متعرقون ينقلون أثاث الأرملة، والصناديق، والحقائب عبر الدرج الضيق ويحملونها على شاحنة النقل، بإشراف مساعد المتجر لي زي رونج. أما الأرملة، فجلست على كرسي خارج المتجر تراقب باهتمام وتترك توجيه الرجال لـ لي، الذي كان كفؤًا وحاسمًا. كان اثنان من العمال صينيين، والثالث، إذا أمكنني الحكم عليه من خلال مفردات شتائه المتممة، أيرلنديًا. انتقل لي بين الصينية والإنجليزية بسهولة مذهلة.

قال دي متفاديًا خزانة الأدراج التي يحملها العاملان الصينيان: «صباح الخير».

قالت الأرملة «السيد دي! والسيد... لاو، أليس كذلك؟ من الجميل رؤيتكما. اعذراني إن لم أنهض. لا أشعر بأنني على ما يرام هذا الصباح».

قال دي: «بالطبع. صباح الخير لك أيضًا، يا لي زي رونج».

- صباح الخير، أيها السادة. أخشى أنكما وجدتمانا في وقت مزدحم نوعاً ما. السيدة ما ستسافر بالقطار إلى نورفولك في وقت لاحق اليوم.
- نعم، أعلم. لهذا السبب جئنا الآن، على أمل أن نتمكن من رؤيتها.
- توجه دي بالكلام إلى الأرملة مردفاً: «لن نتدخل في عملك، لكن لدي سؤال، إذا سمحت؟».
- بالطبع.
- أخرج دي دفتر ملاحظاته من جيب سترته.
- لدي هنا ثلاثة أسماء. هل يمكنك أن تخبريني إذا كنت تعرفين أيًا منهم؟
- اقتربت السيدة ما لترى المكتوب على الصفحة. تجعد جبينها الشاحب مجيبةً: «أعتقد أن الأسماء تبدو مألوفة، لكنني لست متأكدة. ربما كانوا أصدقاء زي رين».
- هل تعرفين أين يمكنني العثور على أي منهم؟
- لا، أنا آسفة. أتى أصدقاء زي رين إلى المتجر، أو التقينا بهم في المطاعم أو النوادي الليلية لقضاء الأمسيات. لم أعرف منازلهم أو أماكن عملهم. هل الأمر مهم؟
- قد يكون مهمًا، لكن لا تقلقي. لي زي رونج، هل يمكنك أن تأخذ لحظة لتلقي نظرة على هذه القائمة أيضًا؟
- مسح لي جبينه، ونظر إلى الورقة. التقت عيناه بعيني دي وخفض صوته قائلاً: «لا أعرف أيًا منهم (أردف بهدوء، ناظرًا إلى السيدة ما) لكنني قرأت في صحيفة الصباح أن رجلًا يدعى تشينج بان لو قُتل أمس».

أجاب دي بهدوء أيضًا: «نعم، أعلم. لقد طُعن. على الأرجح بسيف الفراشة».

اتسعت عينا لي.

- حَقًّا؟ إذاً يجب أن تكون الجريمتان مرتبطتين ببعضهما، أليس كذلك؟

- أنا متأكد من ذلك. لكنك لا تملك أي فكرة عن مكان وجود أي من هؤلاء الرجال؟

- لا، أنا آسف.

قال دي: «حسنًا، سنبحث في مسارات أخرى. (ثم رفع صوته إلى نبرته العادية مرة أخرى، وقال للأرملة): السيدة مَ، أتمنى لك رحلة ممتعة. وآمل أن تستعيدي صحتك قريبًا».

- شكرًا لك، يا سيد دي.

- هل لديك عنوان في نورفولك يمكنني التواصل معك من خلاله عندما أتم الترتيبات لنقل جثة مَ زي رين؟

ابتسمت بضعف مجيبة: «لا، أخشى أنني لم أجد منزلًا جديدًا بعد. ربما يمكنني التواصل معك لاحقًا؟».

- يمكنك الوصول إليَّ عبر السفارة الصينية هنا في لندن.

- سأفعل ذلك إذن. شكرًا مرة أخرى على لطفك.

كررت أمنيات دي باستعادة السيدة مَ لصحتها، وودعنا الاثنين على إيقاع تأوهات العمال وقرع الصناديق.

سألني دي ونحن نبتعد: «حسنًا، يا لاو، ما رأيك؟».

- لا أحسد السيدة على اضطرارها للسفر في حالتها هذه.

- لا، ولا أنا. الآن، يا لاو، كما لاحظت السيدة ويندل عندما غادرنا هذا الصباح، لم أتناول شيئاً. وأنت أيضاً انتزعت من فطورك المعتاد. اسمح لي أن أعوضك عن ذلك. أنا واثق أنك تعرف المنطقة جيداً بما يكفي لتوصي بمكان نتناول فيه وجبة. شرطي الوحيد هو أن يكون طعاماً صينياً. قضيت في إنجلترا ثلاثة أيام فقط وقد اكتفيت من الطعام البريطاني.

سعدت بطلب دي نصيحتي، فقلت: «إنه وقت مبكر قليلاً على فتح المطاعم الكبيرة، لكن هناك مقهى صغير ولطيف على بعد ثلاث شوارع يقدم نودلز وكونجي وما شابه بشكل جيد».

قال دي وهو يفرك يديه: «هذا بالضبط ما نحتاجه. دعنا نتوقف لفترة وجيزة عند الرقيب هونج ثم نتوجه مباشرة إلى هناك».

كان متجر هونج قريباً من طريقنا. استقبلنا مالك المتجر بابتسامة عريضة.

- أهلاً، أيها القاضي دي! السيد لاو! صباح الخير. تفضلاً بالدخول، احتسبنا فنجاناً من الشاي.

قال دي: «آسف، أيها الرقيب هونج، لكننا نتبع مساراً دون انحراف يقودنا إلى الفطور. هل تنضم إلينا؟».

- إذًا، أنا آسف أيضاً. أنتظر تسليماً من المرفأ. ما التقدم الذي أحرزتماه في تحقيقكما؟

- حققنا بعض التقدم، بالفعل. ربما يمكنك مساعدتنا الآن. هل تعرف أيّاً من هؤلاء الرجال؟

أظهر دي لهونج الصفحة من دفتر الملاحظات.

بعد لحظة، قال هونج: «لا، لا أعرفهم. تشينج بان لو، أهو الرجل الذي قُتِلَ أمس؟».

- نعم. أود بشدة التحدث إلى هذين الرجلين الآخرين إذا أمكن العثور عليهما.

قال هونج، وهو يخرج قلمًا وورقة ويكتب القائمة بالأحرف الصينية: «حسنًا، إذًا. اذهبا لتناول الفطور بينما أنتظر وصول بضاعتي. إذا علمت أي شيء سأخبركما».

ابتسم دي قائلاً: «حسنًا. شكرًا لك، أيها الرقيب هونج».

قال الرقيب هونج مبتسمًا أيضًا: «أيها القاضي دي، يسعدني وجودك في لندن».



المقهى الذي اصطحبت دي إليه كان واحدًا من المفضلين لدي في لندن. رغم أن المدينة لا تقدم تنوعًا واسعًا من المقاهي الصينية للاختيار منها، فإن «حديقة وو» تميزت بتقديم أفضل المأكولات في أجواء غاية في الروعة. كان المكان وجهة مفضلة للأكاديميين والتجار والدبلوماسيين الصينيين في لندن، وكذلك لفئة معينة من البريطانيين الذين، رغم أن فهمهم للعرق الصيني كان بعيدًا عادةً عن الحقيقة، فإنه تطوّر على الأقل من الصورة المخادعة والمنحطة التي قدمتها قصص ساكس رومر. كما أشيع أن ساكس رومر نفسه كان يتناول وجباته أحيانًا في «حديقة وو».

جلست أنا ودي إلى طاولة تحت فانوس ورقي، تحيط بنا مشاهد مرسومة للبط وأشجار الصنوبر وزهور الفاوانيا التي تغطي الجدران.

أعادت لي عبق رائحة حساء النودلز وصوت تقاطع أعواد الطعام ذكريات الوطن بشكل مرضٍ.

قال دي وهو يستنشق الهواء بعمق «آه، يا لاو. أعتقد أنك أحسنت الاختيار». تأمل دي قائمة اليوم، المكتوبة بخط منمق سريع على شرائح ورقية مثبتة على لوحات معلقة على حليات زخرفية. دونت بعض الأطباق أيضاً باللغة الإنجليزية للزبائن البريطانيين، الذين شملوا في تلك اللحظة مجموعتين من موظفي المكاتب، وطاولة لثلاث سيدات أنيقات يحاولن التحلي بالسرية بينما يتلفتن حولهن ويتهاמשن حول الأجواء الغريبة التي تجرأن على استكشافها، ورجل في منتصف العمر جالس مع شاب في الطرف الآخر من الغرفة، ينهيان وجبتهما، وكانت طاولتهما عبارة عن حطام من الأوعية والعظام المتبقية. تنوع الزبائن الصينيون من طاولة الدبلوماسيين ببذلاتهم الثلاثية المفصلة إلى طاولة نجمي الأوبرا الصينية، حيث ارتدى الرجل سترة من المخمل الأزرق الداكن وربطة عنق حمراء، بينما ارتدت المرأة فستاناً حريراً أخضر يبرز بشرتها الناعمة ناصعة البياض وكان قصيراً بما يكفي ليظهر جزءاً من ركبتها وهي جالسة.

جاء النادل بالشاي وطلب دي من القائمة الأطباق التي نالت إعجابه. سكبت الشاي لدي؛ فقرع الطاولة بإصبع واحد استجابةً، كما يفعل في الصين منذ أيام الإمبراطور تشيان لونج. قلت: «دي! لا يمكنك أن تتخيل مدى سروري برؤيتك تفعل ذلك. إنها عادة اضطرت للتخلي عنها، لأن قرع الطاولة في إنجلترا ليس علامة على الشكر، بل هو طلب سيئ الأدب للمزيد. اعتقدت السيدة ويندل أنني أتصرف بوقاحة عندما أطلب بالمزيد من الشاي، وكأنني أعتبر كأسٍ غير ملأى بما فيه الكفاية».

- هل شرحت لها هذه العادة؟

- نعم، بالطبع، لكنتا السيدتين. اعتبرتها ماري ساحرة. ومع ذلك، يشعر المرء بالتعب من تغيير عاداته، وبالتأكيد يشعر بالتعب من شرح الأمور للبريطانيين.

- نعم، هذا صحيح. آه! ها هو طبق الجياوزو.

سمحت لدي أن يتناول دامبلينج اللحم البقري والجزر وأخذ قسمة من أخرى قبل أن أقول: «انظر هنا، يا دي. تلك القائمة التي أريتها للسيدة مآ ولي زي رونج، القائمة التي نسخها الرقيب هونج منك، والتي كتبتها عندما رأيت اسم تشينج بان لو في الصحيفة. من هم الرجال المدرجون فيها؟».

أنهى دي تناول الدامبلينج الثانية بينما كانت فطيرة الكراث وقشور التفو المجففة مع الأعشاب البحرية تُقدَّم إلى طاولتنا. قال دي، وهو يقلب أعواد الأكل ليرفع فطيرة مربعة إلى طبقه: «هؤلاء الرجال هم الثلاثة الآخرون الذين جاءوا إلى لندن من خنادق فرنسا مع مآ زي رين. والآن، اثنان من الأربعة، مآ وتشينج، قد قُتلا بالطريقة نفسها».

سألتها: «هل من الممكن أن يكون هناك مجنون يجوب المدينة قاتلاً الرجال الصينيين، وصادف اثنين يعرفان بعضهما؟ بعد أن قتل مآ وسرق الـ «داو»، مضى ليجد ضحية أخرى، وأن العلاقة بين الرجلين هي مجرد صدفة؟».

- أفترض أن علينا أن نأخذ هذا الافتراض بعين الاعتبار. في هذه الحالة، قد يظهر رجل آخر مقتولاً قريباً. ربما أنا أو أنت.

قلت بثبات: «أود أن أرى محاولته! أؤكد لك أنني...».

قال صوت جديد بلكنة أمريكية واضحة: «عذراً، أيها السادة».

رفعت أنا ودي رأسينا لنرى رجلاً في منتصف العمر يتناول إفطاره في الجهة الأخرى من الغرفة. تميز الرجل بلحية مشذبة بدقة وسترة مخملية سوداء، مع ربطة تلف عنقه بإتقان، وتموجات شعره الأسود الكثيف تغطي رأسه. بجواره رجل أصغر سنًا، حليق الوجه، أشقر الشعر، وسيم الملامح، وإن بدا عليه شيء من التعالي. ارتدى بذلة من الصوف الفاتح، تعكس أحدث صيحات الموضة لهذا العام، وطوق قميصه الأبيض ناصعًا كالثلج. زُينت أكمامه الفرنسية اللامعة بأزرار أكمام ذهبية بسيطة، مما أضفى على مظهره لمسة من الأناقة الراقية.

قال الرجل الملتحي: «أنا إزرا باوند». تحدث وكأنه لا يحتاج إلى أي تعريف إضافي، وبالفعل لم يحتج إلى ذلك. رغم أنه ترك لندن وانتقل إلى باريس قبل بضع سنوات، فإن تأثير باوند في عالم الأدب هنا لا يزال عميقًا.

بدأت بالنهوض قائلاً: «السيد باوند! إنه لشرف عظيم». في الواقع، وجدت أن ترجمات باوند للشعر الصيني الكلاسيكي تضمنت الكثير من التصرف، لكن لا يمكن إنكار أنه شاعر عظيم في لغته الأم.

- لا، لا تنهضا، يا سادة. هذا روجر وايتكليف. (وأشار إلى رفيقه) إنه فيكونت أو شيء من هذا القبيل.

تجاهل باوند ادعاء وايتكليف بالانتماء إلى النبلاء البريطانيين. أما وايتكليف، فقد بدا مستمتعًا بالأمر.

- الأهم من ذلك، أنه شاعر. كان أحد تلاميذي عندما كنت أعيش هنا في لندن. لقد رأيناك عبر الغرفة، يا سيد لاو، وأردنا أن نأتي لتقديم تحياتنا. حضرنا محاضرتك الجامعية منذ أسبوعين بعنوان «الصين في الحرب العظمى». نحن معجبون بثقافتك. وايتكليف هو جامع للبورسلين واللوحات الفنية...

قال الرجل الأصغر باستخفاف: «والْيَشْمُ أيضًا، وأحيانًا البرونز».

- بالتأكيد.

استمر باوند في مخاطبتي: «وجدنا تعليقاتك مثيرة للاهتمام، يا سيد لاو. رغم أنني، وأعتقد أنني أتحدث باسم وايتكليف أيضًا (نظر باوند إلى وايتكليف لتأكيد كلامه لكنه واصل دون انتظار رد منه) أشعر بعدم الارتياح تجاه روح التمرد والتجاهل لعظمة ماضي الصين التي نراها في تأسيس الجمهورية ومؤخرًا في حركة الرابع من مايو. إذا كان صحيحًا، كما قلت في ملاحظاتك، أن قادة تلك الحركة استناروا بطرق الغرب بفضل رجال فيلق العمال الصيني عند عودتهم إلى الوطن، فأخشى أن الصين ستندم على أن هؤلاء الرجال غادروا البلاد».

لم يظهر وجه دي أي تعبير، لكنني شعرت بأنني يجب أن أتحدث.

- لكن يا سيدي، مع كل الاحترام، هل تفضل أن تبقى الصين في الماضي بينما يندفع العالم الغربي بكل سرعته نحو مستقبل واعد؟

- إذا كان البديل هو أن نلقي بجمال ورُقِّي وتعتيد خمسة آلاف عام من الثقافة الصينية في كومة من الرماد، إذًا نعم، أعتقد أنني سأفعل.

اتفق معه وايتكليف قائلاً: «بالفعل. لم أرَ شيئًا مصنوعًا في الصين منذ تأسيس الجمهورية يمكن أن ينافس أي فن أنتج قبل ذلك. لم أجد وعاءً أو سوارًا يستحق أن أضيفه إلى مجموعتي».

قال باوند بنبرة جافة: «مع ذلك، ربما يا وايتكليف، إذا قضيت وقتًا أقل في صالات القمار، ستتمكن من إنفاق المزيد من ثروتك على كنوز أكثر قيمة».

أدار وايتكليف عينيه في محجريهما؛ من الواضح أنها توبيخات مألوفة من باوند.

- لو أنني، الفيكونت وايتكليف، كنت غير مُلمًا بأحدث الألعاب التي تجتاح لندن حاليًا -وهي ماي-جونج، (توجه بحديثه لي ولدي) وهي لعبة سريعة الحركة تُزين بطاقتها المزخرفة برسوم جميلة لمواقع خلابة في جميع أنحاء الصين- فإن العار سيكون غير محتمل. لكن لا تقلق بشأن مواردِي، يا باوند. الظروف التي أمر بها مؤقتة. تقدمت للزواج من أمريكية غير جذابة، الأنسة كلاريسا بورتير. ستتزوجني من أجل لقبي وسأتزوجها من أجل مالها. سنكون سعداء جدًا معًا، أنا متأكد.

والآن جاء دور باوند ليدبر عينيه.

- بعيدًا عن ضعف وايتكليف وغروره، وعودة إلى موضوعنا الأصلي، أخشى أن الإطاحة بالإمبراطور ستؤدي إلى انهيار الثقافة الصينية. لم أعرف كيف أجيب، وكنت على وشك أن أشير إلى الحقيقة الواضحة؛ أن الجمهورية لم تُؤسس لإنتاج الفن من أجل التصدير، لكن ابتسم باوند لتلميذه، وانحنى لنا بطريقة تقليدية تحمل لمحة من السخرية قائلاً: «نهاركم سعيد، أيها السادة». ثم استدار الاثنان وغادرا.

التقت عينا دي بعيني. وقال بجدية كبيرة: «لاو، أعتقد أننا استحققنا طبقًا من تشاو فن بلحم الخنزير المفروم بعد هذه المحادثة. (أشار إلى النادل وطلب الطبق. وبعد أن غادر النادل، سأله): «إنه كاتب مشهور، أليس كذلك، هذا السيد باوند؟».

- بالفعل، وعاشق مشهور للصين أيضًا. ولكن على ما يبدو، لو كان الأمر بيده، لرغب في عودة الصين إلى عهد أسرة شيا.

- وماذا عن الرجل الآخر؟ الفيكونت؟ يبدو أنه نموذج للشباب البريطاني.

- نعم، يمكنني تخيله يلفت نظرات الإعجاب، وإن كانت متحفظة، من الفتيات الشابات اللواتي يمر بهن في الشارع.

- أو اللواتي يلتقي بهن في صالات القمار. وهو أيضًا خبير في فنون أمتنا.

- لنأمل أن يكون ذوقه الفني أرفع من ذلك الذي يتمتع به الكولونيل ليفينجستون مور.

ابتسم دي وهز رأسه قائلاً: «حسنًا. جهلهم ينعكس عليهم فقط. لدينا عمل لننجزه، يا لاو. وأيضًا، (أردف، محولًا انتباهه مرة أخرى إلى الدامبلينج وفطيرة الكراث والتوفو المغطى بالأعشاب البحرية): «طعام لناأكله».



الفصل الثالث عشر

وصل طبق النودلز الساخن بسرعة بعد ذلك. تناولناه بسرعة، وكذلك ما تبقى من الأطباق الأخرى. شربنا ما تبقى من الشاي، وسدد دي الفاتورة.

قلت: «شكرًا على وجبة الإفطار الرائعة». وعند مغادرتنا حديقة وو، استبدلنا روائح مرق النودلز واللحوم المشوية بروائح النهر والمجاري المتعفنة في شوارع لايمهاوس.

- شكرًا لك، يا لاو، على تعريفك لي بمكان في هذه المدينة الرائعة حيث يمكننا تناول مثل هذا الإفطار. والآن، إذا لم أكن مخطئًا، يمكننا مواصلة تحقيقنا.

«كيف سنتمكن من العثور على الرجال الموجودين في قائمتك؟» هذا ما كنت سأسأله، لكن أشار دي بالفعل نحو الإجابة، التي تقترب منا متمثلةً في شخص الرقيب هونج.

- آه، أيها الرقيب. هل وصلت البضائع إذًا؟

- ثلاثة أنواع من الشاي، ونوعان من الجينسنج، وفلفل، وصلصة الصويا، وفطر الأذن الخشبية، وتوت الذئب المجفف، وأدوات مطبخ مصنوعة من الخيزران وعدد من المقالي، ولفائف من الحرير باللونين الأسود والأحمر، وصندوق من السراويل التي يُحبُّ البحّارة ارتداؤها. كلها بانتظار أن تُرتب على الرفوف، لكنني ظننت أن مهمتك أكثر إلحاحًا.

- أنا ممتن لك. هل توصلت إلى أي شيء؟

- مع اسم واحد فقط حتى الآن. لكن قد يقودنا إلى الآخرين. وه سونج. قيل لي إنه يعمل في مكان لتجارة الأفيون ليس بعيدًا عن هنا.

ابتسم دي قائلاً: «حقًا؟ لطالما كان وه طموحًا. أعترف أنني متشوق لرؤيته مرة أخرى. أرشدنا إلى الطريق، أيها الرقيب هونج. احتججت: «لكن، يا دي...».

- لاو، أعلم رأيك في الأفيون. إذا كنت تفضل عدم مرافقتنا، يمكننا أن نلتقي لاحقًا خلال اليوم. رغم أنني لا أستطيع تحديد متى سيكون ذلك أو إلى أين قد تقودني محادثتي مع وه.

كررت: «لكن، يا دي، (ثم أردفت بعبوس): حسنًا جدًّا». لأنني لم أكن أنوي أن أستبعد من التحقيق في اللحظة التي بدأنا فيها أن نحرز تقدمًا. قادنا هونج متجاوزين محلات الغسيل ومتاجر اللحوم وباعة الأسماك ومحلات الأدوات المنزلية، إلى زاوية حيث جلس إسكافي صيني على الرصيف أمام محل حلاقة أيرلندي. تبادل هونج والإسكافي إيماءة تحية، ثم اتجه هونج إلى الزقاق الضيق. انبعثت من خلف الأبواب

المتهاكة روائح الطهي. سرنا عبر الروائح المتداخلة لمأكولات أجناس عديدة. فرغم أن معظم الصينيين الفقراء في لندن كانوا يعيشون في لايمهاوس، فإن سكان المنطقة، على الرغم من فقرهم، لم يكونوا فقط من الصينيين. تناهت إلى مسامعنا أصوات الجدل، والضحك، والحديث، والغناء، بلغات متنوعة بقدر تنوع روائح الطهي.

توقف هونج عند باب قرب نهاية الزقاق. طرق طرقًا بنمط معين، وعندما انفتحت الكوة الخشبية الصغيرة في الباب، قال: «تشي يو». كانت تلك على ما يبدو كلمة السر للدخول، لأن الباب فُتح لنا. وتسللنا إلى الداخل.

غمرتني الرائحة الحلوة الطاغية على الفور. لم يبدو أن دي أو هونج لاحظاها حتى، وتساءلت ما إذا كان هونج أيضًا متعاطيًا للأفيون. أملت ألا يكون كذلك؛ فمن الصعب بالفعل مواجهة الفكرة السائدة في إنجلترا في ذلك الوقت بأن كل صيني مدمن مخدرات، دون أن أكتشف أن هذا الأمر صحيح بين الصينيين الذين أعرفهم.

خرج رجل صيني لم أتبين عمره، صغير الحجم، متملق، وليس نظيفًا تمامًا، من تحت درج يمتد إلى الظلام. اقترب منا وهو يحمل ثلاث أنابيب. وبابتسامة رقيقة أشار بيده نحو مجموعة من الأرائك في زاوية. نظرت حولي. من بين الزبائن الممددين في حالات مختلفة من الفوضى، لم يكن أكثر من نصفهم صينيين. وعلى الرغم من أن هذا لا يشرفني، فإنني أعترف أنني شعرت بالسرور لرؤية ذلك. أنا أستنكر تعاطي أي شخص للأفيون بأي شكل من الأشكال، ومع ذلك، نظرًا إلى أن البريطانيين فرضوا هذا المخدر على الصين قبل ستين عامًا، مما تسبب في أضرار لا تقدر بثمن لبني وطني، لم أستطع إلا أن أشعر بمرارة مشوبة بالارتياح لرؤية البريطانيين يقعون ضحية له أيضًا.

ألقى دي نظرة على الأنابيب وهز رأسه، رغم أنه بدا لي وكأنه فعل ذلك بشيء من الأسف. قال بأدب للرجل الصغير: «شكرًا لك، لكن ليس اليوم. أود التحدث مع المالك، إذا سمحت».

تفحصنا الرجل، وتلاشت ابتسامته، ثم ألقى نظرة عبر الغرفة. التقت نظراته بنظرات رجل طويل، شاحب ونحيف، وأوماً برأسه نحو مجموعتنا. ارتدى الرجل الطويل زيَّ التجار، كما فعل الرقيب هونج، لكن على عكس ملابس هونج القطنية العملية، كانت سترة وسروال هذا الرجل من الحرير. عبر الغرفة دون عجلة.

قال وهو يلف يده اليسرى فوق اليمنى ويرفع يديه لكل منا بالتتابع: «أنا تشين بنج دا. هل يمكنني مساعدتكم في شيء، أيها السادة؟».

قال دي ونحن جميعاً نبادل الإيماءة: «دي رين جيه، هؤلاء هم رفاقي. نحتاج إلى التحدث مع أحد موظفيك، وهو معرفة قديمة لي. وه سونج». نظر تشين إلينا؛ يرتدي دي أحدث صيحات الموضة في لندن، وأنا بملابس أكثر تحفظاً ولكنها لا تزال غريبة، والرقيب هونج، الأكبر سنًا منا، يرتدي ملابس التاجر البالية.

- آسف، يا سادة. لا أحد بهذا الاسم يعمل هنا.
- أنا آسف أيضًا، ولكن هذا ليس صحيحًا. أؤكد لك أننا لا نريد إلحاق الأذى بوه. مهمتنا عاجلة. من فضلك، لا تؤخرنا.
- لا أرغب في تأخيركم، لكن لا يمكنني مساعدتكم.
- سيدي. أنا مسؤول في الحكومة الصينية ويجب أن أتحدث مع وه سونج.

لوى تشين شفتيه باستهزاء، قال ساخراً: «أي حكومة صينية تقصد؟ حكومة تساو كون في بكين، المشتراة والممولة؟ أم حكومة صن يات

سن في جوانتشو، المنعزلة عديمة الفائدة؟ أم حكومة وو بي فو، أينما كان هذا الأسبوع؟ أو ربما حكومة تشانج زو لين، الذي يعمل خلف الكواليس مع الجميع؟ لا يهم، أيها السادة. أياً كانت القوة المتصارعة التي تمثلونها من الصين، ليس لها سلطة هنا. هذه إنجلترا ولا أحد باسم وه سونج يعمل في هذا المكان».

- أخشى أنني يجب أن أصر. كما قلت، نحن لا ننوي إحداث أي مشكلات لوه سونج. ولا لك، أو لأي من زبائنك المحترمين. نظر دي حوله، وكأنه يسجل في ذهنه أسماء الزبائن المترنحين. بعض الزبائن لم يكن لديهم حتى القدرة على ملاحظتنا، لكن آخرين بدأوا يراقبوننا بشكل متناقل.

- ومع ذلك، لا تترك لنا خياراً. إذا كنت لا تعرف وه سونج، فمن المحتمل أن أحد زبائنك قد يعرفه. أيها الرقيب هونج، اسأل ذلك الرجل هناك. لاو، توجه إلى تلك السيدة.

قال تشين بحدة: «لن تفعلوا أي شيء من هذا القبيل!».

اختار دي اثنين من البريطانيين الأكثر انتباهاً. بينما خطا هونج نحو الرجل المشار إليه، نهض الرجل بشكل مفاجئ وتعثّر في طريقه إلى خارج الباب. حاولت أن أبدو مخيفاً مثل هونج، وبدأ أنني نجحت في ذلك، لأن السيدة، على الرغم من أنها لم تبدُ قادرة على النهوض، انكمشت في خوف أمامي.

أمر تشين: «أوقفوا هذا فوراً!». لكن الرقيب هونج بدأ بالتوجه نحو زبون آخر، الذي حاول بالفعل البحث عن حذائه تحت الأريكة. صاح تشين: «لن أسمح بهذا! روي! فا! أخرجوا هؤلاء السادة!».

نهض زوج من الظلال ليقتربوا منا. كان كلاهما ضخم البنية؛ أحدهما يمتلئ وجهه بالندوب والآخر يفتقد عددًا من الأسنان. شاهدهما دي وهونج دون تغيير في تعبيراتهما. ثم وضع أحدهما يده على دي. رد دي على اللمسة على ذراعه قبل أن تحدث تقريبًا. أرجع قدمه اليمنى إلى الخلف في وضع متقاطع، لف يده اليسرى حول ذراع المهاجم الذي يفتقد الأسنان مثل أفعى البايثون. عندما وصلت يده إلى مؤخرة رقبة الرجل، أمسك بها بقوة تشبه القبضة الحديدية، مغلقًا كتفه وأجبره على الانحناء. ثم دفع دي بكفه اليمنى بقوة إلى أذن المهاجم. صرخ تشين، صاحب المكان، مشيرًا إلى هونج: «تشانج! لو! خذوا هذا!». ربما اعتقد أن هونج، كونه أكبر سنًا، سيكون من السهل التغلب عليه.

صاح دي: «رقيب هونج! أخضعهم دون إلحاق إصابة خطيرة. قد يكونون مشاغبين، لكنهم يظلون أبناء وطننا، وقد يكون لديهم معلومات مهمة لنا».

رد هونج: «حسنًا. سأستخدم ضربات الكف المتقطعة التي علمني إياها والدي». وقف هونج بثبات، قدماه متباعدتان، بينما اقترب المشاغبان منه.

تحركت لمساعدة هونج، لكن أشار لي دي بالتراجع. هاجمه أحد المشاغبين بسرعة بسلسلة من اللكمات اليمنى واليسرى، والتي صدّها هونج أولًا. ثم أمسك بيد خصمه. نهض هونج موجّهًا ضربة كف إلى أسفل فك الرجل. وبينما ترنح المشاغب، مد هونج يده في وضعية الخطاف، أمسك بمؤخرة رأس المشاغب وجذبه للأسفل، منهيًا بضربة كف قوية أسفل الجمجمة.

اندفع مهاجم آخر بقفزة سريعة محاولاً الانقضاض على هونج. تحرك هونج بسرعة أسفله، ممسكاً الرجل من عنقه ومنطقة الفخذ بمخالب النمر. بقي المهاجم معلقاً في الهواء. ثم حرك هونج جسده وألقى الرجل عبر الغرفة، حيث اصطدم بزوج من مدخني الأفيون المذهولين استفاقاً للتو من غيبوبتهما.

رأيت من زاوية عيني الرجل ذي الندوب يندفع نحو دي. صرخت: «احترس!». استدار دي بسرعة ووجه ركلة بكعبه إلى وسط صدر الرجل. طار المشاغب في الهواء وسقط فوق طاولة شاي، محطماً إياها إلى قطع.

نظرت حولي لأرى إذا كان هناك هجوم آخر قادم. تسلل تشين، صاحب المكان، إلى الزاوية، يمص أسنانه بحيرة وغضب. صاح بأمر عالٍ، وافترضت أنه استدعى مزيداً من الرجال. دون أن ينتظر ليرى ما إذا كانوا سيطيعونه، انحنى ليمسك بساق مقعد محطّم. اتجه نحوي بخطوات بطيئة وابتسامة شريرة. سمعت باباً يُفتح في الطابق العلوي وأقدماً تتسارع على الممر فوقنا. استعددت للدفاع عن نفسي.

في شبابي، كوني فرداً من شعب المانشو في عالم يسيطر عليه الهان، اضطررت أن أكون مقاتلاً في الشوارع. ومع ذلك، لم تكن النزعة القتالية جزءاً من طبيعتي، ولم أتلق تدريباً كما فعل دي وهونج. فهمت وتمكنت حتى من تحديد التقنيات المختلفة التي يستخدمها الاثنان، لكنني لم أمتلك تلك المهارات. كانت معركة السجن بالأمس أول مواجهة جسدية لي منذ سنوات. والآن وجدت نفسي متورطاً في اشتباكٍ ثانٍ خلال يومين.

صرخ دي، محدقاً إلى تشين: «يا رجل الراية! أولاً، استنزف طاقته، ثم هاجمه بالقوة نفسها!».

أومات برأسي لإظهار أنني فهمت التوجيه.

هاجمني تشين عدة مرات بهراوته البدائية. في كل مرة، كنت أتفادى الهراوة، مغيرًا اتجاهها من جانب إلى آخر. أخيرًا، عندما لاحظت أن تشين بدأ يتنفس بصعوبة، انتقلت إلى اليسار وتقدمت بسرعة بخطوة قصيرة ووضعية عالية. وجهت لكمة مباشرة إلى أنف تشين. وقف يحدق إليّ بذهول، ويجب أن أعترف أنني شعرت بالشعور نفسه. ثم انثنت ركبته وانهار على الأرض.

رفعت قبضتي وصحت عبر الغرفة لدي: «نجحت!».

ابتسم دي. وبعد لحظة، وهو ما زال مبتسمًا، استدار، إذ لفتت انتباهه مجموعة من الرجال يندفعون بسرعة على الدرج المتهالك.

كان أولهم مسلحًا بخنجرين. قفز ذلك الرجل نحو دي وهاجمه بثلاث ضربات قطرية. تصدى دي لكل ضربة بسهولة. في المحاولة الثالثة، دار المهاجم محاولاً ضرب رأس دي بخنجره الأيسر ثم الأيمن. صد دي الضربتين بيده بحركة دائرية. عندما دار المهاجم مرة أخرى مستهدفًا إصابة دي في أعلى رأسه وضرب قدميه، انحنى دي وقفز برشاقة قطرة. صحت: «مرحى!».

احمرَّ وجه المهاجم غضبًا. هاجم دي بكلا الخنجرين. اعترض دي ذراعيه، دار به حول نفسه ثم دفعه. تعثر المهاجم للخلف، وحاول مرة أخرى ضرب رأس دي، ثم وجه طعنة نحو فخذه. تجنب دي الضربة، صائدًا ساعد المهاجم بساقيه. أمسك دي بمعصم المهاجم ولوى ذراعه، مما أجبره على إسقاط أحد الخنجرين. استدار الرجل وهاجم دي بالخنجر الآخر. تراجع دي بجذعه إلى الخلف واستخدم كلتا يديه لكسر معصم المهاجم، مما جعل الخنجر الثاني يطير في الهواء ويستقر بصوت مكتوم في الباب.

بعد أن جُرد من سلاحه، وجه المشاغب ضربة بيده اليسرى نحو دي. أمسك دي بمعصمه وكوعه، غارسًا أصابعه القوية في المفصل لتطبيق تقنية مخلب التنين المغلقة. ثم سحب المشاغب نحوه وركله في صدره ركلة قوية، أسقطته على الأرض. استلقى المشاغب متكومًا وراح يئن.

بينما تفحص دي المكان بحثًا عن الموجة التالية من المهاجمين، نظرت عبر الغرفة لأرى هونج يُطيح باثنين آخرين. أندفع أحدهم نحوه بلكمة يمنى تلتها ركلة يسرى، لكن هونج تراجع بخفة، ثم هوى بساعده كالسيف القاطع، صاّدًا اللكمة والركلة في حركة واحدة حاسمة. تعثر خصمه إلى الأمام. نهض هونج موجّهًا ثلاث لكمات علوية قوية إلى جذع وذقن المهاجم. طارت أسنانه وسقط على الأرض. أشار هونج إلى المهاجم الآخر، الذي يفتقد أسنانًا، الممدد على الأرض وقال: «الآن أصبحتما متطابقين».

في تلك اللحظة، هاجم دي مشاغبان من اليسار واليمين في وقت واحد، محاولين الإمساك به. أمسك دي بذراعيهما، وانزلق بيديه إلى المعصمين، ثم جذب كلاهما بسرعة، ودفع بيديه إلى الجانبين. قبض على كل منهما من حنجرتيهما باستخدام قبضة مخلب النسر المزدوج. استنزفت طاقتهما تحت قبضة دي الحديدية، وانهارا على الأرض مثل دُمى قماشية.

تأملنا نحن الثلاثة الغرفة، منتبهين لأي هجوم آخر، لكن لم يتحرك أحد. وسط الفوضى، أضحت الأرائك خالية. هرب جميع الزبائن، باستثناء واحد كان يبتسم في حالة من نشوة الأفيون، غير مدرك تمامًا لكل ما حدث.

قال دي: «أيها السادة، أعتقد أننا أوضحنا وجهة نظرنا».

أعاد دي مقعدًا إلى وضعه الطبيعي، جلس عليه وضرب بيديه على فخذه. حاولت بأقصى جهدي ترتيب ملابسي وتمسيد شعري بينما أستعيد أنفاسي. رفع الرقيب هونج تشين، الذي كان يئن، من ياقة قميصه وسحبه عبر الأرض ليضعه أمام دي.

قال دي للرجل المغطى بالدماء، الذي نظر إليه بعينين متورمتين نتيجة ضربتي: «تشين بنج دا. في الصين، أنا قاضٍ. في مثل هذا الموقف، كنت سأصدر الحكم الآن؛ وبما أنك تدير مكانًا للأفيون، ورفضت طلبًا قانونيًا، وأمرت رجالك بمهاجمة مسؤول حكومي دون أن يثير استفزازك، فسيكون حكمي عليك هو الإعدام. (توقف للحظة) في ظل هذه الظروف، إذا أخبرتني أين أجد وه سونج، فقد أخفف الحكم إلى مئة جلدة».

أفلت السجين أنينًا.

تابع دي: «ولكن، كما أشرت، هذه إنجلترا. الأفيون ليس محظورًا هنا، لذا يجب أن أستبعد تجارتك من حكمي، وبالتالي استبعاد حكم الإعدام. وبما أنني في عجلة من أمري -خاصة الآن بعد أن أخرتني- فحتى خمسين جلدة، بالطريقة البطيئة والمتعمدة التي ينفذها الرقيب هونج، مع إعطاء السجين الوقت الكافي ليشعر بكل ضربة بالسوط وينتظر بقلق الألم المفاجئ للضربة التالية، (توقف مرة أخرى عندما بدأ السجين يرتجف) فحتى خمسين جلدة تستغرق وقتًا طويلًا. لذا أنصحك بأن تعطيني المعلومات التي أطلبها. إذا فعلت ذلك، سيقصر حكمي على الأضرار التي لحقت بك وبمكانك بالفعل».

فتح تشين شفتيه وأغلقهما دون أن يصدر أي صوت.

قال دي: «لكن ربما لا تهلك الرأفة، حسنًا إذًا. هونج، هل يمكنك...».

تلعثم السجين قائلاً: «لا! من فضلك! شارع أوك. بيت ضيافة بباب أخضر. مقابل الحانة».

نهض دي قائلاً: «هيا، أيها السادة. تشين بنج دا، أنصحك بأن تكون مهذباً مع المسؤولين الحكوميين في المستقبل. سيوفر عليك ذلك الكثير من المتاعب».

سرت خلف دي عبر متاهة من الأثاث المقلوب والمكسور، بينما تولى الرقيب هونج مؤخرة المسيرة. ظللت متيقظاً، خشية ألا يكون أحد المشاغبين قد اكتفى بعد. لم يحاول أي منهم التحرك نحونا، وكان الأمر غير المتوقع الوحيد هو رؤية دي، قبل أن نصل إلى الباب مباشرة، ينحني بسرعة فوق إحدى الأرائك المهجورة. أفرغ محتويات أنابيب الأفيون غير المدخنة في يده، لفها في منديله، وأخفى القماش المطوي في جيب سرواله المكوي.



الفصل الرابع عشر

كانت رائحة المزاريب ودخان الفحم في لايمهاوس منعشة كهواء الريف النقي بالنسبة إليّ بعد الجو الخانق الذي شهدته في غرفة الأفيون. لكن بينما كنا نسير نحو شارع أوك، هناك شيء مما قاله دي لا يزال يثير قلقي.

سألت: «رقيب هونج، هل تجلد الرجال حقًا بتلك الطريقة البطيئة والقاسية عند تنفيذ الحكم؟ وخمسون جلدة، يا دي، ألا يعد هذا مبالغًا فيه؟ لكي تدخل الصين العصر الحديث...».

توقفت لأن كلا الرجلين كانا يضحكان.

قال هونج، «لم أستخدم السوط على أي رجل في حياتي».

قال دي: «وبغض النظر عما إذا كان قد فعل ذلك أم لا، لم أرَ الرقيب هونج منذ خمسة وعشرين عام. ليس لدي أي فكرة عن أساليبه. ستجد،

يا لاو، أن التهديد بالألم غالباً ما يكون أفضل من الألم نفسه كوسيلة للإقناع».

قلت: «حسنًا. أشعر بالارتياح لسماع ذلك».

في بيت الضيافة ذي الباب الأخضر، وجدنا صاحبة المكان تغسل الملابس في الشارع أمام مبناها. لم يتطلب الأمر أي وسيلة إقناع سوى شلن في يد دي لجعلها تتحدث، عندما سألت دي عن وه سونج: «الطابق الأول، في الخلف على اليسار». في الواقع، وهي تراقب ملابس دي الأنيقة، وإن كانت مجمدة قليلاً الآن، أضافت: «لكنني لم أر السيد طوال اليوم».

ناولها دي الشلن، دلفنا وصعدنا الدرج إلى الطابق الأول. كان الهواء الراكد داخل المنزل غير جذاب تمامًا مثل الهواء في غرفة الأفيون، وإن كان خاليًا من رائحة الفساد. كانت هذه ببساطة رائحة الفقراء، الذين يعانون من سوء التغذية وقلة النظافة، أولئك الذين ألفت بهم الحياة على شواطئ صخرية قاحلة. لم يكن وصولهم إلى هذا المكان المحزن خطأهم.

باستثناء وه سونج، الذي كان يعمل في نهاية المطاف لصالح تاجر أفيون.

لم يُسْتَجَبَ لطرقات دي على الباب الذي وُجِّهنا إليه. نادى دي: «وه سونج! أنا دي رين جيه. يجب أن أتحدث معك في أمر عاجل». وعندما أُجيبَت الطرق والمناشدات الأخرى بالصمت، أدار دي المقبض. انفتح الباب.

مد دي يده ليمنعنا أنا وهونج من الدخول. لم يتحرك حتى ألقى نظرة على الغرفة من عند المدخل. ثم، بوجه جاد، أومأ لنا ثم دخل، وتبعناه.

كان هناك رجل ممدد على السرير في الغرفة الصغيرة الفوضوية.

- هل هذا...

أكد دي: «وه سونج».

ظننت أن الرجل نائمًا أو في غيبوبة أفيون، لولا أن قميصه الأمامي لمع ببقعة واسعة من الدم. قُتل وه سونج، وإذا لم أكن مخطئًا، فقد قُتل بواسطة سيف.

نظرت إلى دي، وقد شحب وجهه.

هزَّ دي رأسه وكأنه يحاول تصفية ذهنه.. «كان... في الخنادق، تصرف كمهرج ليهدئ من روع رفاقه. كان يروي قصصًا ويمزح. كان لديه... أخ أصغر. أرسل الفتى إلى المدرسة بأجره من الحرب. ظن أن قدومه إلى لندن كان حظًا عظيمًا. هذا يعني أنه يمكنه الاستمرار...».

أخذ دي نفسًا عميقًا، أطلق لعنة، واستدار بعيدًا عنا. برأس منحني، وضع يديه على الحائط وكأنه يحاول استجماع قواه.

- هو... هم... ما، تشينج، والآن وه! نجوا من الحرب، وظنوا أنهم حالفهم الحظ. والآن...

بعد توقف طويل، استدار دي وقال بمرارة: «حسنًا، يا لاو، أعتقد أن هذا يُنهي نظرية المصادفة».

عليَّ أن أعترف بأن الأمر كذلك.

تحدث دي مرة أخرى: «أيها الرقيب هونج، سأتصل بك في المتجر خلال ساعة أو ساعتين. لاو، سأجداك لاحقًا اليوم».

احتججت: «لكن يا دي».

قال هونج: «لكن يا سيدي. «هل أنت بخير؟».

- لا، يا هونج، لست بخير. أنصحكما بأن تخرجا من المنزل دون أن تراكما صاحبة المكان. كلما قلت معلوماتها عنا كان أفضل.

نظر دي مرة أخرى إلى رفيقه المقتول. ثم فتح نافذة الغرفة الوحيدة، مما سمح بدخول رائحة إسطبلات الخيول القوية من الزقاق خلف المنزل. قفز دي من النافذة إلى الفناء الخلفي الصغير وتسلق السياج برشاقة.

تبادلت أنا والرقيب هونج النظرات، ثم فعلنا ما اقترحه دي، تسللنا بهدوء هابطين الدرج. من عند المدخل ألقى هونج حَجْرًا من الشارع باتجاه أحد السكارى الجالسين على الطاولة خارج الحانة. أصاب الحجر الرجل في ذراعه.

قال الرجل ذو الوجه الأحمر بغضب لأحد رفاقه: «هيه! من تظن أنك توكز؟».

- لم أوكزك قط، أيها السكير العجوز.

- لقد فعلت وسأشكرك على عدم فعل ذلك مرة أخرى!

تحول انتباه صاحبة المنزل نحو هذا الشجار، وتمكنت أنا وهونج من الهروب.

وماذا عن دي؟ للإجابة على هذا السؤال، يتعين عليّ مرة أخرى أن أغامر بالخروج عن مسار تجربتي الواضحة إلى أدغال ما قُصَّ عليّ. وأنا أروي ما حدث، أثق أنكم ستجدونه غريبًا بعض الشيء، كما وجدته أنا. ولكن رغم أنه لم يكن يمانع استخدام الكذب في خدمة التحقيق، لم أجد دي في أي وقت يشوه الحقيقة ليجعل نفسه يبدو أكثر إثارة للإعجاب.

بل على العكس تمامًا. لذلك، أجد نفسي مضطراً لتصديق هذه القصة كما رواها لي، وأتمنى أن تتمكنوا من فعل الشيء نفسه.



قفز دي من النافذة إلى الفناء الخلفي الصغير وتسلق السياج برشاقة. شق طريقه متجاوزاً أربعة خيول عند معلفها ودخل الإسطبل. انتظر في الظلال حتى استدار الشاب المسؤول عن العناية بالخيول، ثم انزلق إلى حظيرة خالية. أخرج من جيبه المنديل الذي يحتوي على محتويات أنابيب الأفيون من مكان تشين. باستخدام ظفر إبهامه، قطع زاوية من كتلة بنية لزجة ووضع القطعة في فمه. بعد لحظة، ابتلعها. بحرص، أعاد لف الأفيون المتبقي ووضع المنديل في جيبه.

بقي دي في ظلال حظيرة الخيول لبضع دقائق، حتى بدأت رؤياه من الخنادق تتلاشى، كما أخبرني لاحقاً. هذا ما دفعه للابتعاد عن رفقتنا: مشهد ورائحة الدم، صرخات الرجال ودويّ القنابل، نبض الوحل والمعدن المتساقط. أوضح ببساطة: «تهاجمني هذه الذكريات. الأفيون يدفعها إلى الظلام مرة أخرى. لفترة من الوقت».

عندما بدأت تلك الأحاسيس تتلاشى، تطلع دي من داخل الحظيرة. سمع الحارس في الفناء يتحدث إلى الخيول. سار دي بسرعة عبر المبنى نحو باب الإسطبل وخرج إلى الزقاق.

بعد بضع دقائق، وعند دخوله إلى منطقة ستيبني، سأل دي بائع المحار وبلح البحر عن موقع شارع سيلفر. وعندما وصل إلى هناك، سأل صبيّاً كان يلعب بدمية دوارة عما إذا يعرف جيمي فينجرز.

حدق الصبي إليه سائلاً: «هل أنت صيني؟».

أجاب دي: «نعم، أنا صيني».

- لم أر قط صينيًّا في ملابس فاخرة كهذه. تبدو رجلًا نبيلًا حقيقيًّا، أنت كذلك.

- شكرًا لك، يا بني. لدي أيضًا محفظة رجل نبيل. سأعطيك شلنًا لتقودني إلى منزل جيمي فينجرز.

قال الصبي وهو يقفز فرحًا: «أنا الفتى المناسب لذلك، يا سيدي الصيني. (ثم أضاف بعفوية) لكن لن يفيدك الأمر، لأنه ليس هناك».

- حقًّا؟ أين هو إذًا، هل تعرف؟

أجاب الصبي بمكر: «نعم».

- هل يمكنك أن تأخذني إليه؟

- نعم، هل سأحصل على الشلن؟

- ستحصل عليه.

ابتسم الصبي قائلاً: «إذًا، اتبعني يا سيدي الصيني».

قاد الصبي دي إلى زقاق آخر، حيث كانت هناك حانة تدعى «حورية وفرس البحر». دخل الصبي عبر الباب المفتوح، معلناً بفخامة: «أفسحوا الطريق، أفسحوا الطريق! السيد الصيني جاء لزيارة السيد جيمي فينجرز!».

التفتت جميع الرؤوس. سألت المرأة ذات الوجه المتورد خلف البار: «ما الذي تحدث عنه، يا بوبي الصغير؟». أوشك الصبي على الرد، رافعًا دي إلى مرتبة النبلاء، لكن نهض رجل من بين مجموعة آخرين عند طاولة بجانب الحائط.

قال الرجل، الذي كان بالفعل اللص الشاب، جيمي فينجرز: «السيد دي! إنه لشرف كبير، يا سيدي! وأنت يا بوبي، اذهب الآن».

أعطى دي الصبي الشلن الموعود، فانطلق الصبي ضاحكًا.

قال اللص للشبان الثلاثة الآخرين عند الطاولة: «يا شباب، هذا هو رب عملي، السيد دي».

أومأوا برؤوسهم، مظهرين مستويات متفاوتة من الشك وعدم الثقة. تابع جيمي فينجرز قائلاً: «هل ترغب في احتساء جعة معنا، يا سيدي؟ أم أنك جئت بمهمة لي؟ أنا جاهز لتقديم أي خدمة لك!».

قال دي: «الإجابة على كلا سؤاليك، هي نعم. سأكون سعيدًا باحتساء جعة، ويشرفني أن أشتري لك ولرفاقك عدة مشروبات».

زاد هذا الاقتراح من تقدير الرجال لدي، حيث اتفقوا جميعًا على أن العرض كان كريمًا للغاية وأنه من غير اللائق رفضه.

أردف دي وهو يشير إلى النادل ل جلب المشروبات: «في المقابل، أود منك، يا جيمي، ومن أصدقائك إذا أرادوا، أن تتحدثوا معي».



الفصل الخامس عشر

بعد أن افترقت عن هونج، توجهت إلى الجامعة، حيث شعرت أنني أهملت واجباتي هناك. كرست جهودي لتصحيح بعض المقالات القصيرة التي كتبها طلابي قبل عطلة الربيع حول موضوع «الصينيون في بريطانيا اليوم». لم يكن العمل مشوقًا، لأنني كنت الشخص الصيني الوحيد الذي التقاه معظمهم على الإطلاق. أشعرتني اختياراتهم السيئة للكلمات للتعبير عن أفكارهم والخط الكارثي الذي استخدموه في الكتابة بالرغبة في تشتيت انتباهي، والذي وجدته في التفكير في الأسئلة التي نشأت عن تحقیقات اليوم. من بين هذه الأسئلة، كان من أهمها، أين ذهب دي؟ لكن الإجابة على هذا السؤال لم تتضح لي إلا في اليوم التالي، عندما رُوِيَت لي تفاصيل استكمال مغامرة دي، والتي أقدمها أدناه.



حلّ منتصف النهار عندما دخل دي مرة أخرى إلى متجر هونج في لايمهاوس.

قال هونج، ملتفتاً عن رفوفه حيث كان يضع البضائع التي تلقاها في وقت سابق: «دي! ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟ هل وجدت أي شيء؟».

- لا شيء، سوى طريقة لإشراك شرطة العاصمة في تحقيقنا. سأحتاج إلى بعض القطع من الحرير الأسود الجديد لديك، وخياط. لا يشترط أن يكون عمل الخياط متقناً، لكن يجب أن يكون متيناً وسريعاً.

قال هونج، وهو يسحب لفة من الحرير: «الحرير موجود هنا. وليس هناك خياطة في لايمهاوس أسرع من السيدة مكارثي في الزقاق المجاور. قيل لي، رغم أنني لم أرها بنفسني، إن آلة سينجر بدواسة القدم التي حصلت عليها مؤخراً هي سر سرعتها».

كما وصفها الرقيب هونج، كانت السيدة مورا مكارثي، وهي أيرلندية ممثلة القوام والوجنتين واليدين، مستعدة، بمجرد أن شرح دي متطلباته، لتقديم كل ما في وسعها لهذا المشروع. كان تعليقها الوحيد على الطبيعة غير المعتادة للعمل هو: «أنتم غريبون، أليس كذلك، أنتم الصينيون؟». قالت ذلك بمرح وهي تقيس وتقص وتثبت بالدبابيس. رد دي: «أتوقع ذلك».

استدعت السيدة مكارثي ابنتها، وهي فتاة في الثانية عشرة من عمرها، للمساعدة في الأجزاء البسيطة من العمل، نظراً إلى طلب دي للسرعة. عاد إلى متجر الرقيب هونج لاحتساء كوب من الشاي. لم يمض أكثر من تسعين دقيقة حتى جاءت الفتاة الصغيرة إلى الباب تطلب حضور دي، فغادر معها إلى محل الخياطة.

بعد ربع ساعة، أنهى الرقيب هونج خدمة أحد الزبائن، وبعد مغادرة الرجل، التفت ليعيد وعاءً إلى الرف رفض الرجل اقتناؤه. وعندما التفت مرة أخرى، رأى شخصية تتشح بسواد كامل تقف عند المدخل، مع حرمة فضفاضة مسدلة على ذراعيها الممدودتين. أخفت القفزات السوداء يديها، ووجهها مغطى بقناع أسود يحمل تعبيراً مرعباً ثابتاً.

قال هونج بنبرة هادئة ولكن مشؤومة: «من أنت؟». متحدثاً بالإنجليزية، معتقداً أن هذه الشخصية الغريبة ليست من بني وطنه. نقل وزنه ليتوازن على مقدمة قدميه، تحسباً لمواجهة عنيفة مع الغريب.

- ماذا تريد؟

رد الغريب المقنع، والسخرية واضحة في صوته الرقيق، ولكنه غريبة ماضعاً بعض الحروف: «أوه، بربك، يا سيدي، بالتأكيد قد سمعت عن جاك النطاط، رعب لندن؟».

- لم أسمع. إذا كنت هو، فأنت تعيق وصول الزبائن إلى متجري.

صاح الرجل المتشح بالسواد: «لا يمكننا أن نسمح بذلك، أليس كذلك؟». ثم ألقى طرداً ملفوفاً بورق باتجاه هونج وقفز ليمسك بالعوارض الخشبية في السقف. تأرجح عليها ثم استلقى، ووجهه المقنع ينظر إلى أسفل بتهكم.

أمسك هونج بالطرد بسهولة، وحقق إلى المخلوق المعلق فوقه. ثم ضرب جانبيه وضحك قائلاً: «دي! هل هذا ما فعلته بحريري الفاخر؟». قفزت الشخصية المقنعة برشاقة إلى أرضية المتجر. نزع القناع وأدى به انحناء كبيرة ومبهرجة على الطريقة الأوربية، وهو يقول: «جاك النطاط، في خدمتك». وكان دي بالطبع.

قال هونج: «زَيِّ فعال للغاية، على الرغم من أنني لا أستطيع أن أقول إنني أفهم الغرض منه. ولا أستوعب أيضًا التغيير في طريقة كلامك. نتحدث الآن مثل أحد مشاغبي الكوكني⁽¹⁾ الذين يتجولون في هذه الشوارع، يثيرون المشكلات عندما يروق لمزاجهم فعل ذلك».

- أوه، يا رقيب، هؤلاء الفتية ليسوا سيئين للغاية. تعلمت منهم هذه الطريقة في الكلام ولم يكلفني ذلك سوى بضع كؤوس من الجعة. لكن الآن يجب أن أنطلق. قُتل ثلاثة رجال، والشرطة لا تعتقد أن موتهم يستحق الورق الذي يُكتب عنهم. لا يمكن لأي صيني أن يقنعهم بغير ذلك. لكنني أراهن أنهم سيستمعون إلى جاك النطاط!«.

ثم سحب دي القناع مرة أخرى، قائلاً: «احتفظ بهذا الطرد في متجرك من أجلي، يا رقيب، فأنت شخص جيد». وانطلق خارج الباب مسرعًا.

ممسكًا بمظلته في يده (حيث كانت السماء ملبدة بالغيوم منذرةً بالمطر)، خرج الكابتن ويليام بارد من مركز شرطة لايمهاوس، استدار على الرصيف، وسار بخطى ثابتة. كانت تلك ساعة في فترة ما بعد الظهر يتوق فيها رجل الشرطة إلى كوب من الجعة ليزيل عنه عناء اليوم. اتجه الكابتن بارد نحو حانة «كوبرز بيتش»، وهو اسم مرح يعلن عن ترحيبها بقوة الشرطة.

لم يصل إلى هدفه.

(1) هم مجموعة من سكان شرق لندن، وعادةً ما يُعرفون باللكنة الخاصة بهم التي تشمل تغيرات في النطق واستخدام تعبيرات غير معتادة. (الترجمة)

عندما وصل إلى مدخل زقاق، أمسكت به أيدٍ قوية من كتفيه وسحبته إلى الظلال في الخلف. تعثر بارد واعتمد على مظلته لدعّمه. عندما استقام واستدار، وجد نفسه يواجه شبحًا: وجه بشع يتصدر كائنًا مغطى بالسواد ويرتدي حرملّة.

قال الشبح: «كلمة قصيرة فقط معك، هذا كل ما أريده».

- لن أتفاوض مع أمثالك، أيًا من كنت!

كلمات بارد كانت قوية، لكن صوته لم يكن كذلك. لوح بمظلته كأنها هراوة باتجاه المخلوق أمامه. تراجع المخلوق، متجنبًا المظلة بسرعة فائقة. ضم كفيه أمام صدره كما لو كان في وضع الصلاة.

- هيه، يا شرطي، لا يريد جاك القتال معك، فقط الحديث.

لوح بارد بالمظلة مرة أخرى. أخطأ الهدف عندما تراجع المخلوق مجددًا، لكنه استمر في التلويح. تنهد الشبح قائلاً: «حسنًا، إذا كان لا بد من ذلك». فجأة، دفع يديه المتشابكتين في وضع الصلاة للأمام مباشرة، مما سمح لساعديه بصد الضربتين التاليتين.

اندفع بارد بطعنة مباشرة. تجنبها الكائن ذو الملابس السوداء، وأمسك بالمظلة بباطن ساعديه.

- كابتن بارد، بربك، لا أقصد إيذاءك.

- إيذائي؟ سأعلمك معنى الأذى، أيها الشرير!

حاول بارد انتزاع المظلة من قبضة خصمه. سحب المخلوق المظلة وبركلة من قدمه أفقد بارد توازنه. ترنح بارد وفقد قبضته على المظلة. استعاد توازنه ورفع قبضتيه في وضعية الملاكمة.

- هيا، اقترب أيها الوغد! ستجد نفسك في مواجهة بطل الملاكمة في مدرستي الثانوية!

وجه بارد لكمة يسارية وضربة يمينية، صدها المخلوق مستخدمًا المظلة كعصا. ثم، بدوران معصمه حول المظلة، مد المقبض ولفه حول كاحل المفتش. بجذبة واحدة، طارت ساقا بارد من تحته. سقط بشكل غير مريح على مؤخرته، وراقب المخلوق وهو يدور بالمظلة. وجد بارد طرف المظلة يلامس صدره برفق، فوق قلبه مباشرة.

تحدث المخلوق المقنع: «بالتأكيد تعرفني، يا كابتن ويليام بارد». قال بارد وهو يتنفس بصعوبة: «لا، لا أعرفك. لكن أيًا من تكون، سأوجه لك تهمةً بالاعتداء على أحد أفراد قوة لندن. أنا...».

توقفت كلمات بارد عندما ضغط المخلوق بالمظلة أعمق في صدره. - حسنًا، اسمح لي أن أقدم نفسي. أنا جاك النطايط، هذا ما أنا عليه. - أنت لست كذلك أبدًا!

- أنا كذلك، وأنت، يا كابتن بارد، تسببت لي في قلق كبير. هناك رجل مقتول على بعد ثلاثة شوارع من هنا، ومع ذلك أراك تتجه إلى الحانة وكأنك لا تحمل همًا في العالم.

- أي رجل؟ وأين هو هذا المقتول؟ - يسكن في شارع أوك، في بيت ضيافة ذو باب أخضر، ممددًا على سرير في غرفة بالطابق الأول. على اليسار في الخلف، إذا أردت أن أكون مساعدًا. ما سيكون أكثر فائدة هو أن تقوم، يا كابتن بارد، بالتحقيق في هذه الوفاة كما يقتضي واجبك ومسؤوليتك.

- ومن هذا الرجل المقتول في شارع أوك؟

- كان اسمه وه سونج عندما كان حيًا.

تنحى المخلوق جانبًا، مما سمح لبارد بالانهوض.

قال بارد وهو يقف نافضاً الغبار عن نفسه: «يا للهول! رجل صيني؟ صيني آخر ميت؟ بربك، يا جاك، أو أيا من كنت، لقد واجهت اثنين من الصينيين القتلَى هذا الأسبوع بالفعل. لا يمكنك أن تتوقع حقاً أن أضيع وقتي على ثالث».

حاول سحب مظلته من قبضة المخلوق. تحرك جاك جانباً بسرعة، ممسكاً بذراع بارد ولفها خلف ظهره. صرخ بارد من الألم. خفف جاك الضغط قليلاً قائلاً: «أتوقع أنك ستقوم بواجبك، يا كابتن بارد. حقق في وفاة هذا الرجل والآخرين. وإلا، كثفتي أني أهمس في أذنك الحساسة، سيموت المزيد من الرجال».

ترك جاك المفتش. استدار بارد لمواجهته، ووجهه يشتعل غضباً. أشار بإصبعه إلى صدر الشخص المتشح بالسواد وقال: «أنا لا أتلقي الأوامر من المدنيين، وبالتأكيد ليس من أمثالك، أيّاً من كنت. أنا متعب وأريد احتساء كوب الجعة الخاص بي. يمكن لرجلك الصيني الميت أن ينتظر حتى الغد. الآن، ابتعد عن طريقي».

في لحظة، أمسك جاك باليد التي اشارت إلى صدره وأحنى أصغر إصبع للخلف. سُمع صوت كسر وصراخ من بارد في آن واحد. قال جاك: «ليس كسرًا سيئًا. فكر في الأمر كأنك تستثمر في تسعة أصابع أخرى. الآن، أيها المفتش، اذهب وتفقد! وتذكر، جاك النطايط يراقبك!».

اختفى جاك في الظلال بينما أمسك بارد بيده المصابة.

من على أسطح المنازل، تبع جاك طريق بارد. قاده الطريق إلى مركز شرطة لايمهاوس، حيث خرج بعد بضع دقائق شرطيان، يتبعهما بارد ويده اليسرى الآن ملفوفة بضمادة. ثم عادوا إلى شارع أوك، حيث التقى بارد والشرطيان بعربة الطبيب الشرعي.

وجد دي الأمر مثيراً للاهتمام، كما أخبرني عند روايته لهذه القصة، أن بارد اختار ألا يتحقق بنفسه من وجود جثة بالفعل قبل أن يستدعي الطبيب الشرعي.

قلت في تلك المناسبة: «حسناً، يا دي، ربما كسر إصبع الرجل جعله أكثر استعداداً لتصديق صحة ادعاءاتك. أشعر أنه يجب عليّ أن أسأل، ماذا حدث لفعالية التهديد بالألم مقارنة بالألم نفسه؟».

أجاب دي: «التهديد كان لبقية أصابع بارد».

لكن جرى ذلك الحديث في اليوم التالي. في ذلك المساء، عندما بدأت الغيوم تنثر قطرات المطر، راقب دي، مرتدياً بذلة وحرملة جاك النطاط السوداء، من على سطح المبنى المقابل بينما أخرج رجال الطب الشرعي جثة وه سونج عبر الباب الأخضر.



الفصل السادس عشر

مع اشتداد الرياح القوية، بدأ المطر يتساقط بغزارة. وبينما اختفت الأضواء الحمراء الخلفية لعربة الطبيب الشرعي عبر العاصفة، اختلطت في ذهن دي مع سيارات الإسعاف على الجبهة الغربية. تحولت أصوات خطوات الناس الذين يركضون للاحتماء من المطر إلى صوت إطلاق نار حاد، ومشهد وه سونج ممدد على النقالة تحول إلى رؤى لأجساد ممزقة وملطخة بالدماء لعدد لا يحصى من الرجال، بعضهم أوربيون وبعضهم صينيون، بعضهم يُنقل عبر الحقول الموحلة وبعضهم يُترك ليموت حيث سقط.



قال لي دي لاحقاً: «تلك الذكريات المتكررة، تأتي دون استئذان مستحوذة على كل ما هو أمامي. كما تعلم، خلال الحرب خدمت في فرنسا في معسكرات فيلق العمال الصيني وكذلك في الخطوط الأمامية،

حيثما نشأت شكاوى تتعلق بأبناء وطننا. كنت، كما هي عادتي، صارماً لكن عادلاً، سواء في حكمي في النزاعات بين الصينيين، أو في تلك بين أبناء وطننا والبريطانيين أو الفرنسيين. في مثل هذه الحالات حكمت لصالح الأوربيين إذا كانت قضاياهم عادلة. لم يكن الأمر كذلك في الغالب، وكنت أساند أبناء وطني. وقّع العديد منهم عقوداً تحتوي على بنود لم يفهموها، بعضهم لأنهم لم يستطيعوا القراءة، وهو أمر علم به متعهدو العمالة.

احترمني الرجال في الخنادق، يا لاو. ساعدهم دعمي لهم، حتى لو كلفني ذلك ضرباً بين الحين والآخر، ووجودي المستمر، وإصراري على الانضباط في عملي، على إرساء مستوى معين من النظام خلال تلك الفترة الفوضوية.

لكن الثمن الذي دفعته كان أكبر مما توقعت. بقيت هادئاً وسط الفوضى لأنني شعرت أن دوري يتطلب ذلك. لكن بعد الحرب، عندما عدت إلى الصين ثم أرسلت إلى سويسرا، بدأت تدهمني تلك الرؤى. إنها مروعة للغاية ولا تتوقف. ومع ذلك، يمكنني جعلها تختفي بسهولة، وإن كان ذلك مؤقتاً، بتعاطي الأفيون. لهذا السبب، يا لاو، أفسر تعلقي الشديد بهذه المادة التي تحتقرها بشدة».



كل هذا، كما قلت، أخبرني به لاحقاً، وتحدثنا عن روايته بشكل مطول. في ذلك الوقت، لم أكن أعلم شيئاً عن الأمر، وقف دي على سطح المنزل المقابل للبيت ذو الباب الأخضر، يشاهد جثة ثالث رفاقه الذين ماتوا مؤخراً تُنقل إلى المشرحة. ضغطت عليه مشاهد وأصوات ساحة المعركة مع تزايد صوت المطر الغزير. انهار دي على ألواح السقف، ساندًا ظهره إلى مدخنة لمنع نفسه من الانزلاق إلى الشارع. للحظة،

أمسك برأسه من شدة الألم. ثم أخرج الأفيون من المنديل في جيبه. بخلاف ما فعله في السابق، لم يكلف نفسه عناء قطع قطعة صغيرة. بل أخذ إحدى القطع وابتلعها كاملة بينما تتساقط الأمطار بغزارة، والرعد يدوي كالقنابل، والبرق يضيء السماء.

بعد فترة، وبينما استمر المطر في الهطول من سماء مظلمة تمامًا، استيقظ دي ليجد نفسه يرتجف على ألواح السقف. لم يكن يعلم أين هو أو كيف وصل إلى هناك، ففتح عينيه وحاول التخلص من غيبوبة الأفيون المعتادة. تمايلت حافة السقف أمامه، وأصابه دوار شديد جعله يضغط نفسه مرة أخرى على المدخنة ويغلق عينيه. بدأ العالم يدور من حوله. دوى صوت رعد قوي هز الهواء من حوله، ثم سمع اسمه يُنادى بصوت أعلى.

- دي رين جيه! أنت مستدعى للمحاكمة!

فتح دي عينيه بسرعة. لدهشته، لم يعد على السطح، بل وجد نفسه في غرفة قاضٍ ميداني تشبه غرفته السابقة في حقول فرنسا. لكن هذه الغرفة، التي أقيمت وسط أرض موحلة ملأى بالجثث حيث المطر البارد يتساقط على الأجساد الخالية من الحياة، لم تكن غرفته. ولم يكن جالسًا على كرسي القاضي المرتفع على منصة. بل كان راكعًا أمام المنصة كسجين، والقاضي الذي يقف فوقه كان لين تسه شو.

المفوض لين.

دوى صوت المفوض لين، بنبرة تصم الآذان، فوق ساحة المعركة.

- دي رين جيه! قُتل ثلاثة رجال تعرفهم بوحشية. من واجبك التحقيق في هذه الجرائم. ومع ذلك، تجلس هنا تحت المطر مشلولًا بسبب الأفيون. هل تنكر ذلك؟

- لا، أيها المفوض لين.

كان صوت دي ممزقًا بفعل الرياح، بالكاد سمع نفسه.

قال لين بصرامة: «دي رين جيه، لقد كرست حياتي من أجل إنهاء تعاطي الأفيون بين أبناء شعبنا. إنه مخدر خبيث يجعل أفضلنا -رجالًا مثلك- عاجزين عن التصرف. فلماذا أجدك تحت تأثيره؟».

- أيها المفوض، لم تتركني آثار المعركة بعد.

لان صوت المفوض لين قليلًا وهو يقول: «وُجد الكثير من الرجال في ساحة المعركة ولا يزالون يشعرون بآثارها. أنا مدرك لما عانيته، وأن أول جرعة من الأفيون لم تكن باختيارك، بل أعطيت لك كنوع من اللطف. (توقف لين ونظر بغضب نحو سجينه) لكن الحرب انتهت منذ خمس سنوات، يا دي رين جيه! ثلاثة من رفاقك الذين نجوا من ساحة المعركة فقدوا حياتهم الآن في فترة السلم، في بلد أجنبي. إدمانك لهذا المخدر يمنعك من أداء واجبك تجاههم وتجاه العدالة. أخبرني، ألا يجب أن أحكم عليك بالإعدام؟ ألا يجب أن أطرحك من فوق السطح إلى الشارع بالأسفل؟».

لم يستطع دي الرد.

- دي رين جيه، نظرًا إلى خدمتك الطويلة سأمنحك فرصة للعفو. لكن يجب عليك ترك الأفيون والقيام بواجبك. سأتركك مع سؤال واحد: ما قيمة الحياة؟

حاول دي، رغم أنه لم يفهم السؤال تمامًا، أن يشكل إجابة. لكن السماء انفجرت مرة أخرى بومضات البرق ودوي الرعد، واختفى المفوض لين في دوامة المطر.



الفصل السابع عشر

أعادت زقزقة طائر القُبْرَة دي إلى وعيه. وجد نفسه ما زال جالسًا على السطح، مسندًا ظهره إلى المدخنة، لكن السماء التي بدأت تضيء بضياء الفجر الباهت قد غُسلت بفعل عاصفة الليلة السابقة، وبدأت درجة الحرارة في الاعتدال. في هواء الفجر البارد، مدد دي أطرافه بحذر. وجدها متييسة قليلاً لكن يمكنه تحريكها، فهبط من السطح عبر أنبوب الصرف. لم يره أحد سوى سكير أزعجه دي عندما هبط بجانبه في الزقاق. اتسعت عينا السكير عند رؤية القناع والحرملة، وبدأ يبحث عن زجاجته التي، بمجرد أن وجدها، رفعها بسرعة إلى شفتيه. تركه دي لأحلامه المشوشة، واتجه بخطوات واثقة نحو متجر الرقيب هونج. قال هونج، وهو يفتح الباب استجابة لطرق دي: «دي! ماذا حدث؟ هل أنت مصاب؟».

- من المحتمل، يا هونج، أنني مت. إذا تأكدت أن الأمر ليس كذلك، ربما يمكنك أن تقدم لي كوبًا من الشاي وتعيد لي الطرد الذي تركته عندك.

قال هونج، وهو يفسح الطريق لدي إلى متجره ويغلق النوافذ مرة أخرى: «الطرد موجود هناك. والغلاية على النار بالفعل».

- شكرًا لك. لن أتأخر.

أخذ دي الطرد إلى الجزء الخلفي من المتجر، وعلى الرغم من أنه استغرق وقتًا أطول من المتوقع، فقد عاد إلى الغرفة الأمامية مرتديًا سترته وسرواله. وجد الشاي قد اختمر وأصبح جاهزًا لتدفئته.

قال دي وهو يعلق زي جاك النطاط على خطاف في الجدار الخلفي ليحف: «أثبت هذا الزي أنه ليس مفيدًا فقط، بل متين أيضًا. أرجو أن تنقل تحياتي إلى السيدة مكارثي حتى أتمكن من شكرها بنفسي».

صب هونج الشاي ووضع صحنًا من البسكويت وهو يقول: «سأكون سعيدًا بذلك. هل ساعدت الهوية المربعة التي اتخذتها في التحقيق في جرائم القتل؟».

- نجح جاك النطاط في إقناع شرطة العاصمة، المتمثلة في الكابتن بارد، بأن هذه الجرائم تستحق التحقيق على الرغم من أن الضحايا ليسوا من النوع الذي ينزعج الكابتن لفقدانهم. لا أعلم إذا سيؤدي ذلك إلى أي نتائج مفيدة، لكنه على الأقل جعله مدرجًا للأمر. في هذه الأثناء، يجب أن نستمر في عملنا. سأفكر في المسارات التي سأتابعها. وأثق أنك ستجد الوقت لمواصلة البحث عن الرجل الأخير في القائمة؟».

- بالتأكيد. ومع ذلك، بغض النظر عن خطواتك التالية، أقترح أن تمر على غرفتك أولاً وتبدل بذلتك وقميصك. أنشطة الأمس والليلة التي قضتها ملابسك ملفوفة في الطرد لم تكن لطيفة.

- آه، نعم، يا هونج، دائماً ما تهتم بمظهري. أشكرك وسأفعل ما تقترح.

أنهى دي احتساء الشاي ووقف مردفاً: «بمجرد أن يجف زي جاك النشاط تماماً، هل يمكنك لفه في طرد أيضاً؟ أنا متأكد أنني سأحتاجه مرة أخرى».

- نعم، أعتقد ذلك.



في هذه المرحلة أستطيع استئناف سرد الأحداث التي شاركت فيها شخصياً، فبينما كنت أجلس إلى مائدة الإفطار مع السيدة الأنسة ويندل، سمعت مفتاح دي في القفل.

ناديت: «صباح الخير، يا دي. هل تمكنت من اللحاق بالقطار المبكر من سيفينواكس؟».

- نعم، فعلت.

ظهر دي في غرفة الطعام، مرتدياً ملابسه بشكل فوضوي لكن بمزاج مرح.

- اكتظ القطار برجال الأعمال الذين يحاولون بدء يومهم مبكراً. سيدتي ويندل، إذا سمحت لي بتجاهل مظهر رجل مبتل بسبب عاصفة الليلة الماضية وأجبر على قضاء الليلة دون أدواته الشخصية، فسأكون ممتناً لو قدمت لي كوباً من الشاي.

ابتسمت كلتا السيدتين عندما سحب دي كرسيًا إلى الطاولة. نوع الشاي الأسود الذي يفضله البريطانيون مشابه لشاي البوير ويمكن أن يكون منعشًا. لاحظت أن دي شربَ ثلاثة أكواب منه. بعد أن روى الأحداث المسلية لرحلته الفاشلة، وإن كانت خيالية، لزيارة دبلوماسي متقاعد في سيفينواكس، وهي الفكرة التي زرعتها في رؤوس آل ويندل ذلك الصباح والتي التقطها دي بسلاسة، شكرنا السيدتين وعدنا إلى غرفتي.

قال دي وهو يرمي نفسه على الكرسي المريح: «آه، أحسنت صنعًا، يا لاو، بخدعة سيفينواكس».

قلت ببرود، غير متأثر بمجاملته: «شكرًا لك. لحسن الحظ، بصفتي كاتبًا، يسهل عليَّ ابتكار القصص. اضطررت لاختلاق عذر لك لأنني خشيت تمامًا ما حدث؛ أن تدخل في أثناء الإفطار وتبدو كمشرّد قضى ليلته في العراء. دي، أين كنت؟».

قال دي بجدية: «لاو، لقد قضيت الليلة في العراء. الآن (أردف قافزًا من الكرسي بحماس): سأبدل ملابسني ونواصل تحقيقنا. يعمل الأخ هونج بجد، باحثًا عن شخص يمكنه أن يلقي الضوء على مكان الرجل المتبقي. يجب أن نحاول فعل الشيء نفسه».

- كيف سنفعل ذلك؟

أجاب وهو يخلع سترته المجددة: «للأسف، ليس لدي أدنى فكرة».

تركت دي لتحضيراته وهبطت إلى الطابق السفلي إلى غرفة الجلوس، أملاً في إجراء محادثة لطيفة مع ماري قبل أن تذهب إلى محل القبعات. وجدتھا مع والدتها، تتحدثان عن الأمور التي تناقشها النساء عادة بينهن.

نظرتا إليّ بابتسامة عندما دخلت، رغم أن تعبير ماري الترحيبي تراجع قليلاً عندما رأنتني وحدي. ذكّرت نفسي بأن دي بالنسبة إلى السيدتين شخصاً جديداً وغريباً، بينما كنت أنا، في هذه المرحلة، صديقاً معروفاً ومحبوفاً. اعتقدت أن موقفى سيكون في النهاية أكثر ملاءمة لإشعال الحماسة في قلب ماري التي آمل، في نهاية المطاف، أن توازي التفانى الذى أشعر به نحوها.

وأيضاً، سيغادر دي لندن قريباً.

سألت ماري: «إلى أين تتجهان اليوم، أنت والسيد دي، يا سيد لاو؟».

- لست متأكداً تماماً. لدى دي العديد من المهام التي يرغب في إنجازها في الوقت القصير الذي سيقم فيه في إنجلترا، قبل أن يعود إلى عمله في سويسرا، وفي النهاية إلى الصين.

سألت بشكل عابر: «ومتى سيكون ذلك؟».

- بمجرد أن ينهي أعماله هنا. آسف لعدم قدرتي على تقديم تفاصيل أكثر دقة، لكنه متشوق للمغادرة.

وقفت ماري قائلة: «حسناً، سأغادر أيضاً، وأتمنى لك يوماً سعيداً. يجب أن أتحديث إلى واشنطن - واشنطن جونز، أستاذ الموسيقى، لقد قابلته يا سيد لاو - في كنيسة القديس جورج. (قالت ذلك بدهشة عندما ظهر دي في مدخل غرفة الجلوس) آه، سيد دي، تبدو وكأنك شخص مختلف تماماً! كنت أقول للسيد لاو إنني يجب أن أغادر مبكراً، لأنني بحاجة للمرور على الكنيسة قبل أن أذهب إلى العمل. سأغني جزءاً منفرداً مع الجوقة في خدمة الأحد القادم. أوه! ربما يمكنكما القدوم للعبادة معنا؟ سيد لاو، لم نرك في الكنيسة منذ زمن طويل!».

رقص قلبي عند تلقي الدعوة. رغم أنني عُمِدْتُ في بكين وأشعر بحب عميق ليسوع، الذي أسعى لأن أعيش وفقاً لتعاليمه، لم أتحمل مظاهر

المسيحية المتجلية في الغرب. كانت الموسيقى رائعة بالطبع، خاصة عندما تغنيها ماري بصوتها السوبرانو الواضح والخفيف؛ لكن المباني الكنسية المزخرفة، والوعاظ ذوي الخطب الطويلة الغامضة، والتفوه بالصلوات قبل الوجبات من قبل أولئك الذين لا ينتمون لأي شيء، والمصلين الذين ينحنون بتقوى فوق كتب الصلاة أيام الآحاد بعد إساءة معاملتهم للتجار والخدم بقية الأسبوع، كل هذا لم أستطع احتماله. ولهذا السبب غبت عن خدمات العبادة المنتظمة، كما لاحظت ماري.

مع ذلك، كانت الدعوة لسماع صوت ماري وهي تغني مغرية للغاية. قلت: «سأستمتع بذلك كثيرًا، (وفجأة خطرت لي فكرة) كنيسة كنيستك هي سانت جورج في بلومزبري، وصديقي القس روبرت إيفانز هو راعي كنيسةكم، أليس كذلك؟».

- نعم، بالطبع. إنه رجل متعلم جدًا. عظامه ملهمة للغاية! رغم أنني أعترف أنه يصعب أحيانًا متابعتها. لكنه هو من أحضرك إلينا، يا سيد لاو، ونحن جميعًا ممتنون لذلك.

- بالفعل، أدين للقس إيفانز بدين كبير. هيا، يا دي، لنرافق الآنسة ويندل إلى الكنيسة.

عبس دي وبدأ فيما بدا أنه رد غير صبور، لكنني تحدثت مجددًا، ربما ألهمتني فكرة أنه بمجرد انتهاء التحقيق بنجاح، سيكون في طريقه إلى القارة.

- قضى القس إيفانز بعض السنوات في الصين...

أضافت ماري، وهي تضبط قبعتها أمام المرأة: «مبشرًا».

لم يُحسن هذا البيان من نظرة دي، لذا تابعت بسرعة: «نعم، حسنًا، لأي سبب كان، يعرف القس عددًا كبيرًا من أعضاء الجالية الصينية في

لندن. قد يكون قادرًا على مساعدتنا في البحث عن الرجل المتبقي في قائمتك».

رفع دي حاجبيه. لم ينطق بما نوى قوله. بدلاً من ذلك، نظر إليّ ثم إلى ماري، وقال: «فكرة ممتازة، يا لاو. الآنسة ويندل، هل لنا بهذا الشرف؟».

ابتسمت ماري، وعاد قلبي يرقص مرة أخرى. فتحت الباب. خرجت ماري، تبعها دي، ثم تبعتهما، وفرحتي بالكاد تتضاءل عندما تأبطت ماري ذراع دي، رغم أنه لم يعرضها كما ينبغي لرجل نبيل.



الفصل الثامن عشر

- فتاي العزيز! تفضل بالدخول، تفضل بالدخول!

القس روبرت إيفانز، رجل طويل ذو بشرة شاحبة وشعر أبيض كالثلج وأنف كبير يشبه اللفت، قادنا أنا ودي إلى مكتبه. تركنا ماري لتتساور مع معلم الموسيقى الشاب، واشنطن جونز، حول تفاصيل أدائها القادم.

مد إيفانز كفه الكبيرة إلى دي مردفًا: «وأحضرت معك زميلًا! رائع! القس روبرت إيفانز، يا سيدي».

- دي رين جيه.

تصافح الرجلان.

- اجلس، اجلس. سأطلب الشاي. كيف تسير الأمور مع آل ويندل، يا لاو؟ لم أرك في الكنيسة مؤخرًا، لذلك لم تتح لي الفرصة

للاستفسار. إنهما سيدتان مسيحتان طيبتان، والابنة مفعمة بالحياة. أرجو أن تكون ظروفك مرضية لك هناك؟

قلت: «رجاء، لا داعي للشاي. (ظل دي واقفاً وأدركت أنه متحمس لمواصلة عملنا) نعم، أنا أستمع كثيرًا بوقتي مع السيدتين، وممتن لك على تقديمك لنا. في الواقع، يقيم القاضي دي معي حاليًا». التفت إيفانز إلى دي قائلاً: «حقاً؟ وأنت قاضٍ؟ حسناً، يا سيدي، إنه لشرف لي. هل أنت متأكد أنك لن تشرب الشاي معي؟ أود مناقشة الوضع المقلق للمسيحيين تحت القانون الصيني. أفهم أنه في هذه اللحظة في بكين...».

قلت بسرعة، حيث بدأت عينا دي تضيقان وبدأ فمه يتجمد في خط مستقيم: «شكراً لك، لا يمكننا البقاء. أيها القس إيفانز، جئنا نطلب مساعدتك. لدينا أسماء بعض الرجال الذين يعرفهم دي ونود العثور عليهم. نحن أيضاً مهتمون بأي أصدقاء لهؤلاء الرجال، أو أي شيء يمكنك أن تخبرنا به عنهم. فكرت، مع معرفتك بمجتمع الصينيين في لندن...».

تبدلت ملامح وجه القس إلى الحزن وهو يقول: «فهمت. نعم، بالطبع، سأكون سعيداً بمساعدتكما. من هم هؤلاء الرجال؟».

أخرج دي القائمة وبدأ القس إيفانز في دراستها. نظر إلينا سائلاً: «ما وتشينج، هؤلاء هم الرجال الذين قُتلوا مؤخراً، أليس كذلك؟».

أجبت، دون أن أذكر أن وه انضم الآن أيضاً إلى هذه الفئة: «أخشى أن يكون الأمر كذلك».

بعد لحظات قليلة، قال إيفانز: «حسناً، أنا آسف، لكن لا أستطيع مساعدتكما. (وأعاد الورقة إلى دي) من الممكن تماماً، على ما أعتقد، أن يكون أحد هؤلاء الرجال قد جاء إلى بعثتنا المسيحية لتناول الوجبات.

نحرص في كنيسة القديس جورج على إطعام الفقراء ثلاثة أيام في الأسبوع، والعديد من الصينيين يكونون من بين المحتاجين. كنا نطلق عليهم في الصين «مسيحيي الأرز»، حيث كانوا يقبلون التعميد ليتمكنوا من تناول الوجبات التي نقدمها».

ابتسم بخجل وكأنه يرفض المديح على كرمه، وهو المديح الذي بدا من نظرة دي أنه لن يتلقاه. أردف القس: «منهم من اعتنق المسيحية بصدق، بالطبع، وأصبحوا نشيطين في الكنيسة. وفعل بعضهم الشيء نفسه هنا. أما بالنسبة إلى الآخرين، فقد استمعوا إلى تعاليم الإنجيل في أسوأ الأحوال. ولكن إذا جاء هؤلاء الرجال في قائمتك إلى هنا، فهم لم يتحولوا إلى المسيحية ولم يُعرّفوا عن أنفسهم».

قال دي بجمود وهو يعيد الورقة إلى جيب سترته: «شكرًا لك، هيا، يا لاو. سنواصل بحثنا في مكان آخر». استدار وغادر المكتب بسرعة.

قال القس، وهو ينظر إليه: «يا إلهي، هل أزعجته بطريقة ما؟».

قلت وأنا أشعر بالخجل: «أعتذر. دي يمكن أن يكون... سريع الغضب أحيانًا. إنه متحمس لمواصلة عملنا ولا شك أنه يشعر بخيبة أمل. أرجوك سامحه. شكرًا لك، أيها القس». ارتديت قبعتي وأسرعت للحاق به.

قلت عندما لحقت به خارج الكنيسة: «دي! ماذا تقصد بمعاملة القس إيفانز بهذه الفظاظة؟».

رد دي بغضب: «الوضع المقلق تحت القانون الصيني! مسيحيي الأرز! هذا أمر مستفز! القس المتعلم والمُلمهم يقدم الطعام لأبناء وطننا الجائعين ويسخر منهم لقبولهم له. أتمنى أن تتخلص الصين من أمثاله في أقرب وقت ممكن».

- أنت تحكم عليه بقسوة شديدة. فعل الكثير من الخير في الصين.
لقد درّست في المدرسة التي أسسها، وهو من ساعدني في القدوم
إلى إنجلترا.

تجهم دي قائلاً: «كونه مفيداً لك شخصياً لا يجعله رجلاً صالحاً، يا
لاو».

- إنه يدير مأوى للمتشردين هنا في لندن، ويقدم الوجبات للفقراء.
- كما يضع صاحب المنزل الجبن في مصيدة الفئران.
- دي!

- لماذا يا لاو تشعر بأنك مضطر إلى الوقوف إلى جانب البريطانيين
ضد مصالح أبناء وطنك؟

- الوقوف إلى جانب البريطانيين! لا، على الإطلاق. لا أعارض أبناء
وطني عندما أختلف معك، يا دي. في هذه الحالة أعتقد أنك
مخطئ. القس إيفانز...

نطق دي اسم الرجل بازدراء: «القس إيفانز».

- دي، أنت لست على طبيعتك. حقاً لا أستطيع...

قال صوت آخر: «القاضي دي، ولاو شيه. أملت أن أجدكما هنا».

التفتنا لنرى الرقيب هونج يقترب. بدأت أشعر أن لديه عادة مزعجة
في الظهور فجأة من العدم.

قال هونج: «ذهبت إلى مسكنك وقيل لي إنك ذهبت إلى الكنيسة.
أعتقد أنني عثرت على آخر رجل في قائمتك. جيانج جوان لي». سلم
ورقة لدي مكتوب عليها العنوان.

قال دي وهو يهز رأسه: «آه، جيانج. دائماً ما يكون شخصاً متقلباً. ينبغي التعامل معه بحذر. هيا، يا هونج. ولاو؟ هل ستنضم إلينا؟ أم لديك بعض الأعمال البريطانية الأخرى للاهتمام بها؟». قلت وأنا أسير بجانبهما: «دي، يمكنك أن تكون شخصاً مستفزاً للغاية».

مكتبة
t.me/soramnqraa



الفصل التاسع عشر

العنوان الذي زوّدنا به هونج كان لأحد تلك المساكن المتهاكة وغير المتوقعة التي تجدها بالقرب من الموانئ: مبانٍ يبدو أنها بقيت قائمة عن طريق الخطأ عندما شُيّدت المستودعات بجوار الأرصفة قبل أكثر من قرن. وفقاً لهونج، أصبح هذا المبنى الآن متاهة من الغرف المستأجرة. يقيم جيانج جوان لي في الطابق الأول.

قال دي ونحن نقرب: «الآن جيانج رجل متقلب المزاج. الوقت الذي قضاه في الحرب زاد من حذره الفطري. كان (نظر إلَيَّ بطرف عينه) المسيحي الوحيد في المجموعة. وليس، بالطبع، لهذا الأمر أي علاقة بقلقه المستمر. على أي حال، إذا سمع جيانج عن الوفيات العنيفة لرفاقه فمن المؤكد أنه اتخذ تدابير لحماية نفسه. يجب أن نقرب بحذر».

قلت، متجاهلاً تهكمه بصبر مسيحي: «لكن يا دي، لماذا لا تعلن عن نفسك؟ بالتأكيد سيتذكرك ويعرف أنك لا تقصد له أي ضرر».

رغم أن اليوم لم يكن دافئاً، أخرج دي منديلاً من جيبه ومسح العرق عن جبينه. «قُتل ثلاثة رجال من كتيبة العمال التي كان فيها جيانج. لن يكون من الخطأ الاستنتاج أن الكتيبة مستهدفة لسبب ما. سيتذكرني جيانج بالتأكيد، لكن من ناحية الثقة، لو كنت في مكانه، لشعرت بالريبة».

خطرت لي فكرة مفاجئة.

- هل من الممكن أن يكون جيانج قد قتل الآخرين بنفسه لسبب ما؟ في هذه الحالة، سيكون بالتأكيد خائفاً من وصولك.

- فكرة جيدة، يا لاو.

لم تعجبني نبذة دي الساخرة، لكن لم يكن لدي فرصة للاحتجاج إذ واصل كلامه: «مع ذلك، أنوي أن أعلن عن نفسي. أريدك أنت وهونج أن تكونا في مكانكما قبل أن أفعل. إذا قرر جيانج الهرب، سيكون أحكما في موقع يمكنه منعه. هل أنت مستعد لذلك؟».

نظر دي إليّ كما ينظر رجل إلى آخر عبر نظارة أنفية، رغم أنه لم يكن يرتدي واحدة.

قلت عابساً: «بالطبع أستطيع ذلك، أما أنت، فتبدو شاحباً بعض الشيء. هل أنت متأكد...».

- نعم، يا لاو، شكراً لك، أنا متأكد تماماً.

قالها دي، وهو يدير ظهره لنا ليتفحص المبنى المتهالك وأيضاً ليصرف النظر عن مخاوفي.

- من الواضح أن هذا المبنى كان موجوداً قبل أن تصبح المراحيز الداخلية شائعة. لقد بُني مع مدخل خلفي للوصول إلى مرحاض في الفناء. هونج، يمكنك العثور على هذا المدخل وإطلاق صافرة

عندما تكون في مكانك؟ ممتاز. وأنت، يا لاو، ستأتي معي. عندما أصدع للعثور على جيانج، ستبقى عند الباب الأمامي. أأمل أن يكون مستعدًا للحدث معي، ولكن إذا شك فيّ وحاول الهرب ولم أتمكن من إيقافه، يجب أن تكونا كلاكما مستعدين لمنعه من الهروب. سيكون لديكما عنصر المفاجأة، وسألحق بكما قريبًا لمحاولة تقييده. هل نحن متفوقون جميعًا؟».

اتفق ثلاثتنا. استدار هونج نحو الزاوية وسرعان ما سمعنا صفيره. أخذتُ موقعي بالقرب من الباب الأمامي، في ممر مظلم لا يدخل إليه أي شعاع من الضوء، ويبدو أن الروائح الكريهة لم تغادره منذ سنوات. تلاشى صوت خطوات دي الصاعدة على السلم.

من هذه النقطة، سأروي لك ما أخبرني به دي، رواه بنبرة منزعة، وستدرك الأسباب قريبًا.

بينما أصدرت خطوات دي صريرًا على الدرج الضيق، سمع ما بدا وكأنها ضحكة خافتة هستيرية قادمة من مكان ما في الأعلى. فكر دي: هناك طاقة غريبة في هذا المكان، مما جعل حواسه تتنبه. عند قمة الدرج، توقف قائلاً: «جيانج! أنا القاضي دي. أنت تذكرني. أحتاج إلى التحدث معك».

- جئت من أجل المال! ليس لدي مال. اذهب. دعني وشأني!
لم يأمل دي كثيرًا في أن يستقبله بترحاب، لكن تحيته قد أدت غرضها. عرف الآن أي باب هو باب جيانج. حاول بهدوء أن يدير مقبض الباب، لكنه كان مقفلًا. أخرج من جيبه مجموعة من أدوات فتح الأقفال،

واستخدم مهارة لم أكن أعلم أنه يمتلكها حتى أخبرني بهذه القصة. انفتح القفل في غضون ثوانٍ قليلة.

دخل دي الغرفة ولم يرَ أحدًا، لكنه شعر بوجود شخص ما. اعتقد أن جيانج لا بد أن يكون مختبئًا. تقف خزانة كبيرة مقابل الحائط، تكفي لإخفاء رجل. شق طريقه نحوها. بحذر، أدار المزلاج وسمع صوت نقرة خفيفة عندما فتح الباب بمقدار ربع بوصة. بخطوات خفيفة إلى الجانب، فتح الباب بالكامل بسرعة، مستخدمًا إياه كدرع لحمايته.

انطلقت ثلاثة سهام بسرعة من الخزانة واصطدمت بالجدار المقابل. سحب دي الباب بقوة للتأكد من عدم وجود المزيد من السهام بالداخل، ثم عبر الغرفة. أخذ سهمًا من الجدار وبدأ يفحصه عندما شعر بحركة خلفه. استدار ليرى جيانج، وقد أضحى نحيلاً وهزيلًا، ينزلق من خلف الخزانة، وليس من داخلها. اندفع جيانج نحو الباب، وقام بحركات غريبة عبر الردهة، وقفز من النافذة الخلفية.

جاء نداء من هونج: «إنه هنا! إنه يصعد الدرج المؤدي إلى السطح». سمع دي جيانج يضحك بصوت عالٍ، ثم صرخ لهونج: «لن تمسك بي أبدًا، أيها العجوز!».

ألقي دي نظرة على الردهة التي اجتازها جيانج بشكل غريب. بدت بعض الألواح غير متساوية بشكل واضح. لمس بقدمه واحدة منها. جاء صوت صرير مقلق فتراجع دي في الوقت المناسب. هزت ثلاث انفجارات قوية المبنى. عندما تلاشى الدخان، رأى دي أن طلقات بندقية الصيد كانت مُجهزة لتنفجر تحت أقل وزن.

تفحص دي بسرعة الألواح غير المتساوية، ومع تحريك وزنه بشكل متكرر، شق طريقه عبر الردهة باستخدام خطوات دقيقة لتجنب أي كارثة أخرى.

خرج من النافذة، وجلس على حافتها. ناداه هونج من الأسفل: «احترس! الطريقة التي تسلق بها جيانج جعلتني أشعر أن هناك خطبًا ما في الدرج المؤدي إلى السطح».

ألقي دي نظرة على تركيبة الدرج المتهالك، فوجد أن هناك بالفعل شيئًا غير سليم. لقد نُشرت الدرجات بطريقة ماهرة تجعل العيب غير مرئي للعين الأقل حدة من عينه.

لكن الدرايزين كان سليمًا.

- شكرًا لك، أخي الكبير هونج، على التحذير. سأستخدم مهارتي في الخفة.

جمع دي قوته وقفز. توازن بسهولة وسرعان ما تسلق الدرايزين دون تمايل أو تعثر، مدرِّكًا أن هونج في الأسفل وجيانج في الأعلى يشاهدانه باندھاش. عندما وصل دي إلى سطح المبنى، قفز بخفة من على الدرايزين. وعيناه مركّزتان على عيني جيانج، ضرب بقدمه على الأرض. بصوت تصدعات وصرير، انهار الدرج الخارجي بالكامل. قال دي: «جيانج! أريد كلمة معك فقط!».

أنَّ جيانج قائلاً: «المال! أنت تريد المال!». وقفز من خلال نافذة الجملون عائداً إلى داخل المنزل.

صاح دي لهونج: «ادخل وتعال للأعلى! ولكن كن حذرًا. جيانج غير متزن وذكي جدًا».

أوماً هونج برأسه ودخل من الباب الخلفي.

وها هنا يأتي دوري المخزي في هذه القضية.

وقفت عند الباب الأمامي، متوترًا. سمعت انفجارات، وصريًا، وصيحات. توترت أعصابي، وشعرت أنني لا أستطيع الانتظار أكثر في الظلام بمعناه الحرفي والمجازي. عندما هرع هونج أمامي صاعدًا الدرج درجتين في المرة الواحدة، استنتجت أن هدفنا كان في الأعلى، وبالتالي سأكون أكثر فائدة على الدرج بدلًا من البقاء عند الباب.

صرخت وأنا أبدأ في التقدم: «الرقيب هونج! انتظرني!».

رد هونج، وهو ينظر إليّ من بسطة الطابق الأول: «توقف! كل شيء مفخخ. لا تتحرك». شاهدت هونج يضع قدمه بحذر على الدرجة الأولى من الطابق التالي.

فجأة، هبطت شفرات لامعة من السقف مطلقة صوت صغير. تأرجحت على حبال بأطوال مختلفة، تتحرك زهابًا وإيابًا فوق الدرج مثل بندولات قاتلة.

توقف هونج للحظة دون حركة مراقبًا الوضع. ثم قفز إلى المتاهة المتحركة من الشفرات المعدنية وتمايل خلالها برشاقة كطائر بين الأغصان.

نظرت بدهشة. كنت أعلم أنني لا أستطيع فعل الشيء نفسه، وبالتالي لم يكن لدي وسيلة للوصول إلى الطابق الثاني؛ ولكن بما أن دي وهونج كلاهما صعدا إلى الطابق الأول عبر السلم، لم أجد سببًا يمنعني من الذهاب إلى هناك على الأقل. عندها سأكون في موقع يمكنني من تقديم المساعدة إذا تمكن جيانج بطريقة ما من الهروب من رفاقي في الأعلى. أمسكت بالدرازين وبدأت في الصعود. عندما شعرت بالدرازين يغوص تحت يدي أدركت أن لا دي ولا هونج قد لمساه.

أعقب صوت صفيق عالٍ سلسلة من الأصوات المتتابة. انبسطت كل درجة في السلم على الأخرى، مكونة شيئاً يشبه المزلاق في بيوت المرح. فقدت توازني وسقطت عائداً إلى بهو المدخل.

لقي السلم الذي كان هونج في منتصفه المصير نفسه، واضطر هونج، بالإضافة إلى تجنب السكاكين المتأرجحة، إلى إلقاء نفسه أرضاً وسحب جسده باستخدام أطراف أصابعه بإدخالها في الفجوات بين الألواح. كان هذا فعلاً حتى بدأ سائل لزج يتدفق من الفجوات.

صاح هونج: «زيت الفول!». قبل أن يفقد قبضته وينزلق، لينتهي به المطاف بالتدحرج إلى بسطة الطابق الأول.

صرخت، وأنا أرى حركة خلفه: «هونج!».

قفز هونج على قدميه. وقف جيانج أمامه، مرتدياً قفازات جلدية وأحذية من القماش وسروال قطني. لمعت بشرته العارية في الظلام. بسرعة الريح، قفز هونج نحوه. تراجع جيانج بخفة، لكن أمسك هونج بذراعه التي انزلقت من قبضته.

أرجع جيانج رأسه إلى الخلف ضاحكاً. صرخ، مقلداً نبرة هونج بدقة: «زيت الفول!». طارت قدمه وعلقت بقدم هونج، المغطاة بزيت الفول، فسقط على السلم المنبسط وانزلق رأساً إلى أسفل، لينتهي به المطاف متكوماً عند قدمي.

ضرب جيانج بيده المرتدية القفاز على درابزين السلم -الذي تحول الآن إلى مزلق- المؤدي إلى الطابق الثاني. على الفور، تراجع الشفرات المتأرجحة. برشاقة قرد، تسلق جيانج الدرابزين. وعندما وقف عليه، دفع باباً سرياً يؤدي إلى العلية واختفى من خلال الفتحة.

من هذه النقطة، ما تبقى من القصة أضحي قصيرًا وعاد مجددًا إلى دي.

سمع دي على السطح الجلبة في الأسفل. وبينما كان يمسح جبينه من العرق غير المعتاد، قرر دخول المبنى مجددًا عندما انفتح جزء من ألواح السقف وخرج جيانج من الفتحة. حدق دي إلى الشكل اللامع والنحيف أمامه. أصبحت ملامح جيانج جوان لي الأصلية بالكاد مرئية في عيني وفم الكائن الذي صار عليه. بدوره، فوجئ جيانج برؤية دي واقفًا على السطح، فأطلق ضحكة صاخبة.

قال دي: «جيانج جوان لي! أنا القاضي دي. أنت تتذكرني».

- ليس لدي مال! اذهب!

- أنا لست هنا من أجل المال. هذا أمر بالغ الأهمية.

- إذًا، أمسك بي!

دار جيانج حول نفسه كأنه مهرج مجنون على قدم واحدة.

قفز دي نحوه لكنه وجد نفسه يمسك بالهواء فقط، حيث كانت يداه زلقتين من زيت الفول. رقص جيانج حتى حافة السطح.

صرخ دي: «جيانج! لا!».

- لن تمسك بي، لن تفعل!

مطلقًا ضحكة صاخبة أخرى، قفز جيانج عاليًا في الهواء. بذراعين تلوحان كطواحين الهواء، هبط على حافة السطح في الجهة المقابلة من الزقاق. تمايل هناك وحبس دي أنفاسه. أخيرًا، ألقى جيانج نفسه إلى الأمام على الألواح، ولم يجد ما يمسك به فانزلق إلى الأسفل، واختفى خلف السياج الذي يحيط بالفناء الخلفي.

فكر دي في القفز؛ ولكنه، على غير عادته، لم يحاول فعلها. اختار بدلاً من ذلك الانزلاق على أنبوب الصرف إلى الفناء، القفز فوق السياج، الركض عبر الزقاق، والتسلق فوق السياج الذي اختفى جيانج خلفه. كان باب المبنى الخلفي مفتوحًا، فاندفع دي داخله وهو يلهث، ليجد الباب الأمامي مفتوحًا أيضًا على مصراعيه. قادته آثار الأقدام الموحلة من الخلف إلى الأمام. وعند خروجه إلى الشارع، استمع دي للضجيج الذي سيحدثه رجل صيني نصف عارٍ ومغطى بالزيت في أثناء ركضه؛ لكن الرعد، والضجيج، والصيحات، وأبواق السيارات في الحياة اليومية جعلت من المستحيل تمييز أي فوضى معينة.

مستاءً من كيفية انتهاء الحادثة، دار دي حول المبنى ودخل المبنى المتهالك، حيث وجدني راكعًا بجانب هونج عند أسفل المزلق الدرجي.

كنت أقول للرجل الممدد: «رقيب هونج! هل أنت بخير؟».

قال دي بحدة: «من الواضح، يا لاو، أنه ليس كذلك. هونج! أخي الكبير هونج، هل تسمعني؟».

رمش هونج قائلاً: «أنا... نعم... نعم، يا دي، أستطيع سماعك. وأستطيع رؤيتك أيضًا. فقدت أنفاسي، لكنني بخلاف ذلك بخير».

حاول الجلوس وساعده دي. نظر هونج حوله سائلًا: «جيانج؟».

- رحل. كدنا نمسك به. لو كنت قد وصلت إلى السطح فقط...

قلت: «أخشى أنني السبب في ذلك. كان الرقيب هونج في طريقه إليك، لكنني فعلت السلام المزيطة عن طريق الخطأ».

عبس دي في وجهي: «يا رجل الراية، خيبت أُملي. لقد قاتلت بشكل جيد في السجن».

- أنا آسف. لا أستطيع تقديم أي عذر. أردت فقط الانضمام إليك وتقديم المساعدة.

- بالطبع. حسنًا، أنت تعترف بذلك مثل الرجال ولا أستطيع أن أتمنى أكثر من ذلك.

وقف دي متفحصًا السلم. ضغط على الجزء الغائر من الدرايزين. أصدر صوت نقرة وارتفع مجددًا، وبذلك تحول المزلق مرة أخرى إلى سلم. أومأ دي برأسه قائلاً: «سيضطر سكان المكان هنا إلى تنظيف الزيت، لكن على الأقل سيكون لديهم سلم. هيا، يا هونج، دعنا نعدك إلى متجرك».

قال هونج وهو ينهض: «أنا قادر تمامًا على العودة بنفسني».

- بالطبع، ولكننا سنرافقك على أي حال.

شققنا طريقنا نحن الثلاثة عبر شوارع لايمهاوس إلى متجر هونج. مسح دي جبينه مرة أو مرتين، ورغم أنه سار بعزمه المعتاد، فإنه أبطأ من وتيرته، مرسلاً نظرات قلقة نحو هونج وأحياناً نظرات لوم نحو. تجاهل هونج قلق دي، وحاولت أنا تجاهل خيبة أمله. على الرغم من أن سقوطي تسبب لي ببعض الكدمات والنتوءات، امتنعت عن الشكوى، حيث ظننت أنها لن تلقى قبولاً.

عندما انعطفنا حول الزاوية حيث يقع المتجر، أملت أن يكون هونج في مزاج ليقدم لنا الشاي، إذ كنت بحاجة إلى بضع لحظات من الراحة. لكننا وجدنا رجلاً صينياً يجلس القرفصاء عند الباب ويدخن سيجارة. قفزت فوراً أمام رفاقي وقلت مشيراً إلى الرجل: «أنت هناك! من أنت وماذا تقصد بهذا التطفل؟».

ابتسم الرجل ونهض. تكلم، لكنه لم يجب على أسئلتني.

- مرحبًا، يا دي.



الفصل العشرون

ارتسمت على وجه دي ملامح الدهشة والسرور.

- الكابتن لو! في لندن! ظننتك عدت إلى الصين عندما انتهت الحرب.

انحنى دي وهذا الرجل الجديد بعمق لبعضهما.

قال لو: «في اللحظة الأخيرة، مُنحت الإذن للمجيء إلى هنا مع الرجال».

التفت دي إليّ أنا وهونج قائلاً: «لاو، لا حاجة للحذر من هذا الرجل. لو يان كان قائد كتيبة سلاح العمال التي ضمت مجموعة الرجال في قائمتنا. الكابتن لو، هذا الرقيب هونج ليانج، وهذا لاو شيه».

انحنى الجميع لبعضهم بعضاً. الكابتن، رجل نحيل، أقرب في العمر إلى هونج منه إلى دي، إذا اعتمدنا على شعره الرمادي ووجهه المتجعد.

- تشرفت بلقائكم، أيها السادة.

قلت: «أعتذر عن تحيتي غير اللائقة، لكن كما ترى، نحن نواجهه...».

قاطعني دي: «لو علمت بوجودك في لندن، لبحثت عنك فوراً، يا لو. ومع ذلك، ها أنت هنا على عتبة متجر الرقيب هونج، وكأنك تنتظرنا. أم أنني مخطئ؟ هل جئت هنا للشراء أم إنه مجرد حظ سعيد؟».

قال هونج: «مهما كانت الإجابة، هل أقترح أن نناقش الأمر ونحن نحتسي فنجان من الشاي؟». ثم فتح متجره ودخلنا جميعاً. ترك لافتة «مغلق» على الباب، وأقفله مرة أخرى ووضع الغلاية على النار. حُضِر إبريق الشاي بينما جلسنا نحن الباقين على مقاعد منحوتة حول الطاولة المنخفضة، وأنا أشعر بالانزعاج من المقاطعة.

سأل دي بينما كان هونج، يتحرك ربما ببطء أكثر من المعتاد، يضع فناجين الشاي على الطاولة: «هونج، هل أنت متأكد أنك بخير؟». قال هونج بنبرة تحذيرية: «دي».

رد دي بسرعة: «نعم، حسناً». بدا عليه التأذب. فكرت أن والد هذا الرجل كان معلمه في الصين. إذا كان دي يحترم أي رجل، فسيكون هونج.

حول دي انتباهه إلى الكابتن لو.

- إذاً، يا كابتن، هل أنا محق؟ هل كنت تنتظرنا هنا؟

- كنت أنتظر الرقيب هونج، لكن هدفي الحقيقي كان مقابلتك، يا دي. سمعت أنك جئت لنقل جثة ما. (ابتسم بحزن) علمت أنك ستفعل. كنت سأسعى لرؤيتك على أي حال قبل مغادرتك إنجلترا مجدداً، ولكن عندما قرأت عن مقتل تشينج، والآن وه، أدركت أنه لا بد لي من التحدث إليك. أجريت بعض الاستفسارات وعلمت أنك تعرف الرقيب هونج. لذلك جئت إلى هنا على أمل أن يخبرني بمكانك. لم أتوقع أنه سيحضرني إليّ مباشرة.

- أنا سعيد جدًا بأنه فعل ذلك، وسعيد برؤيتك مرة أخرى، يا كابتن لو، حتى في هذه الظروف الحزينة. هل أنت بخير هنا في إنجلترا؟

- بخير جدًا، شكرًا لك. كما تعلم، لم يعد لدي عائلة في الصين. لدي بعض الموارد البسيطة ووجدت أن مغامرة العيش في بلد أجنبي تناسبني.

- سعيد لسماع ذلك. رغم أنني لا أستطيع إلا أن ألاحظ كم أصبحت نحيفًا.

ضحك لو: «رغم أنني أستمتع بإقامتي في إنجلترا، فإن وقتنا في فرنسا، رغم ما اكتنفه من مخاطر يومية، كان يوفر طعامًا أفضل بكثير».

- لا يمكنني إنكار ذلك.

سأل لو: «وماذا عنك، يا دي؟ هل أنت بخير؟ تبدو أيضًا نوعًا ما... منهكًا».

وكنت لأضيف «ومتوِّعك»، لكن لم يكن في نيتي التدخل في لقاء الزملاء القدامى.

- نعم، نعم، يا لو، أنا بخير. يمكننا التحدث بإسهاب في وقت لاحق، لكنني متشوق لمعرفة ما الذي جاء بك إليّ بشأن جريمة قتل هؤلاء الرجال.

جاء هونج حاملًا إبريق الشاي، وجلس معنا. صب الشاي حسب ترتيب أعمار ضيوفه، كما هو العرف، وخدم نفسه في النهاية.

قال لو: «لم يتبق من الرجال الذين جاءوا من فرنسا، للأسف، سوى واحد من الكتيبة، بالإضافة إليّ».

أوما دي برأسه قائلاً: «جيانج جوان لي. تركنا للتو مكان إقامته، حيث فشلنا في محاولتنا للتحدث معه. (وبدأ دي في سرد القصة باختصار.

ولدهشتي، لم يلقِ باللوم عليّ في هروب جيانج) صرخ جيانج، خلال مواجهتنا، أكثر من مرة عن خوفه من أنني أبحث عن المال. حاولت طمأنته أنني لا أعرف عن أي مال يتحدث، وأنه ليس سبب زيارتي له، لكنه لم يهدأ. أثبتت فخاخه أنه ما زال مبدعًا كما كان دائمًا، وأصبح أكثر شغًا.

قال لو: «أعتقد أنني أستطيع تفسير سلوكه».

تدخلت: «هل من الممكن أن يكون هو القاتل نفسه؟».

عبس دي لكنه لم يقل شيئًا.

أجاب لو: «هذا ممكن، كما سترون عندما أشرح. رغم أنني أشك كثيرًا في ذلك. إنه الآن -أو ربما كان- صديق مخلص للآخرين. (نظر حوله إلينا) هل أنتم على دراية بمؤسسة تُعرف باسم «التونتين»؟».

نظرت أنا وهونج إلى بعضنا بخواء. فكر دي قليلًا ثم قال: «التونتين، إذا لم أكن مخطئًا، هي شكل من أشكال التأمين المتبادل الخاص. يساهم الأفراد بمبلغ متفق عليه. يمكن إضافة المزيد، لكن لا يمكن سحب أي شيء. يتلقى آخر عضو باقٍ على قيد الحياة المبلغ الإجمالي. هل تقول، يا كابتن، إن هؤلاء الرجال كانوا جزءًا من تونتين؟».

- نعم، هذا ما أقوله، وبالإضافة إلى ذلك، أنا أيضًا جزء منها. المساعدة المتبادلة الخاصة وغير الرسمية شائعة بالطبع في الصين. يجمع المزارعون أموالهم لمساعدة أحدهم على شراء البذور، وهو يعيد المال مع الفائدة بعد الحصاد ليتمكنوا من إقراضه مرة أخرى. التونتين أكثر رسمية. إنها مؤسسة أوربية. تعرف الرجال على الفكرة من أحد الضباط البريطانيين في فرنسا. أحبوا الفكرة وقرر الأربعة الذين سُمح لهم بدخول إنجلترا تكوين واحدة هنا.

هدفها هو توفير مبلغ من المال يُستخدم في الشيخوخة من قبل العضو الذي سيكون الأكثر احتياجًا له.

قلت: «حسنًا، هذا بالتأكيد يمنح جيانج دافعًا لقتل رفاقه. ربما لم يرغب في الانتظار حتى الشيخوخة».

قال لو: «ربما، لكن هذا التونتين محفوظ في بنك هونج كونج وشنجهاي، في فرع شارع جريس تشيرش. وكما هو معتاد في التونتين، أضاف البنك أعضاء جدد. أُخفيت هوياتهم عنا، كما أُخفيت هوياتنا عنهم. يتم هذا بشكل روتيني لمنع أي عضو من التونتين من التفكير في ترتيب الأمور ليكون الناجي الأخير. ومع ذلك، (أردف لو بنبرة جافة): يبدو أن هذا لم ينجح».



الفصل الحادي والعشرون

غادر الكابتن لو بعد ذلك بقليل وهو يقول: «دي، سنتحدث بشكل أطول عندما تُحل أعمالك العاجلة. أتمنى لكم التوفيق في تحقيقكم، أيها السادة. لا أتوقع أن أعيش إلى الأبد، لكنني أفضل ألا أُقتل».

قال دي: «سنفعل ما بوسعنا لمنع ذلك».

بعد مغادرة الكابتن، صب هونج باقي الشاي ونهض لتحضير إبريق آخر.

قال دي: «لا تُجهد نفسك، أيها الرقيب. يجب أن نذهب أنا ولوا لزيارة فرع بنك هونج كونج وشنجهاي في شارع جريس تشيرش».

قال هونج: «دي، هل أنت متأكد أنك لا تريد أخذ قسط من الراحة؟ ربما تناول وجبة؟ كما قال الكابتن لو، تبدو منهكًا. أعتقد أن الليلة التي قضيتها في العاصفة أثرت عليك أكثر مما تعلم. أنت لست على طبيعتك».

- حقًا؟ يقولها رجل كان قبل ساعة مستلقيًا على ظهره وعقله يدور بين النجوم؟

ضحك دي، رغم أن الصوت بدا متوترًا في أذني.

- إذا لم أكن على طبيعتي، فأيًا من كان الشخص الذي أنا عليه سيكون في طريقه إلى بنك هونج كونج وشنجهاي. لا، ذلك الشخص يمكنه الاستفادة من مساعدتك، إذا اخترت مرافقته.

تسببت التغييرات في الضمائر في إرباكي، لكنني وقفت عندما فعل دي.

قال دي: «حسنًا جدًّا، أنت، يا هونج، من يحتاج إلى الراحة. ضع بعض الأعشاب على تلك الكدمة في رأسك وارجع إلى إدارة متجرك. ستسمع مني، أو من أيًا من كان هذا الشخص، قريبًا». وبذلك، غادرنا أنا ودي المتجر.

في أثناء سيرنا، تجرأت على التعبير عن رأيي في حالة دي الصحية. قلت: «دي، أخبرك رجلان تحترهما أنك لا تبدو في أفضل حالاتك الصحية».

ألقي نظرة نحوي: «لا، يا لاو، ليس أنت أيضًا».

- نعم، أعترف أنني أشعر بالشيء نفسه. خطئي في مكان إقامة جيانج لم يكن ليؤثر عليك لو كنت في حالتك المعتادة. بالإضافة إلى ذلك، (تابعت بينما فتح فمه ليتكلم): منذ أن أخبرنا الكابتن لو عن التونتين، شعرت أنك مشتت. إذا كنت سأستمر بصفتي شريكًا لك في هذا التحقيق، يجب أن يُسمح لي بالتعبير عن قلقي.

حالتك الصحية قد تؤثر مباشرة على عملنا. كما سأكون ممتناً إذا أعلمتني بالأسباب التي تجعلك تقلق من تطور معين عند حدوثه». في أثناء حديثي، ارتفع حاجبا دي إلى درجة جعلت جبينه يتجدد. شككت في أنه استمع لي، لكنه لم يقل ذلك. انتظر لحظة أخرى ليتأكد من أنني انتهيت. لم يكن رده كما توقعت.

- لاو، راودني حلم.

حدقت إليه: «حلم. أعلن أنني قلق على صحتك، وأنني أيضاً مضطرب بشأن الاتجاه الذي تتخذه شراكتنا، وترد بأنه راودك حلم. دي، يجب أن يكون واضحاً حتى لك أنك لست بخير».

- ربما لست بخير، لكن إذا كان هذا هو الحال، فإن المطر الذي بللني على السطح ليس السبب. في حلمي، قابلت المفوض لين.

- المفوض لين؟

في أحلامي لم أقابل حتى موظفاً صغيراً. كرجل عصري، لا أؤمن بالأحلام، ومع ذلك كنت مندهشاً.

تابع دي: «أمرني بشيئين، قال لي إنه يجب أن أتوقف عن تعاطي الأفيون».

- أنا سعيد لسماع أن الموت لم يغير موقفه من هذه النقطة المهمة. بالطبع هو على حق.

- وأيضاً سألني سؤالاً. سألني: «ما قيمة الحياة؟» فكرت في معناه. والآن، وبشكل غير متوقع، يظهر الكابتن لو ليخبرنا أن الرجال وضعوا قيمة حرفية على حياتهم في التونتين. تزامن هذه الحقائق هو ما أقلقني».

- أفهمك.

وبعد التفكير في ذلك للحظة، سألت: «فيم دارت أفكارك حول رسالة المفوض لين الأولى؟».

- منذ أن أبلغني بها، لم أتعاطَ الأفيون. غريبًا، أليس كذلك يا لاو، أن المفوض لين اختار أن يظهر في حلم من أحلام الأفيون ليخبرني بأنني يجب أن أتوقف عن تعاطيه؟ أو شكت على إقناع نفسي بأنها مجرد هلوسة بسبب المخدر، وبالتالي يمكن تجاهل ما قاله، عندما كشف الكابتن لو عن الأمر. الآن، يا لاو، ترى مأساتي. سواء كنت قد استحضرت المفوض لين من عقلي، كما يدعي أطباء فيينا، أو إذا جاءني من العالم الآخر، فإن رسالته هي نفسها. وقد تم توصيلها مع رسالة أخرى تبدو ذات صلة بقضيتنا.

نتيجة لهذا الحلم، لم أتعاطَ الأفيون هذا الصباح. في هذا الامتناع تكمن جذور التدهور في قدراتي التي لاحظتها بشكل صحيح، وأيضًا أي تهيج أظهرته. التخلص من الأفيون عملية غير مريحة، يا لاو، وهي أمر لم أكن لأقوم به في وسط قضية لولا إصرار المفوض لين، بغض النظر عن مصدره، والظهور المتزامن للكابتن لو كإشارة توجه التحقيق. الآن، إذا كنت راضيًا عن حالتي الحالية وحاجتي المتزايدة لمساعدتك، ربما يمكننا المتابعة.

تابع دي السير. لبضع لحظات، بقيت مجمدًا في مكاني، فمي مفتوح، أحرق إليه من الخلف. ثم سارعت للحاق به.

القاضي دي لديه حاجة متزايدة لمساعدتي. سأبذل قصارى جهدي لأثبت قيمتي له.



الفصل الثاني والعشرون

وقف فرع بنك هونج كونج وشنجهاي في شارع جريس تشيرش بشموخ يضاهي أي بنك في لندن. شُيدت واجهته من الحجر، بتركيبات متناوبة بين الأشرطة الملساء والمزخرفة. زُينت ثلاثة أبواب مقوسة فخمة والعديد من النوافذ العالية باسم البنك بحروف برونزية تلمع بفخر أعلاها.

قال دي ونحن نقرب: «أرى أن ستيفن وستيت ليسا ظاهرين».

- من هما؟

- الأسدان اللذان يحرسان مداخل البنك في شنجهاي. اعتقدت أن الفروع في لندن قد تحتوي عليها أيضًا. لقد سُميت تيمناً باثنين من كبار المديرين.

- المديرين؟ هذا يدل على نقص في الرؤية، ألا تعتقد ذلك؟ لماذا لا يُسمى الأسد على أسماء الفضائل التي يرغب البنك في تشجيعها بين المودعين؟ مثل الصبر والثبات، على سبيل المثال.

- اقتراح ممتاز، لولا أن الفضائل ليست ذات قيمة في بنك هونج كونج وشنجهاي.

قادنا المدخل العميق الغائر إلى أبواب برونزية ثقيلة، والتي أفضت إلى بهو فاخر ذو أسقف عالية، وأعمدة من الرخام، وأرضيات مزخرفة بفسيفساء معقدة، وجدران مكسوة بالخشب الداكن. تدلت مصابيح على شكل نصف قبة ضخمة، زودت بالكهرباء حديثاً، من أقبية السقف، بينما أضاءت مصابيح أصغر ذات ظلال زجاجية خضراء مكاتب كل موظف. أحاطت النوافذ الداخلية الواسعة بمكتب المدير، مما أتاح له مراقبة حركة الموظفين والزبائن بدقة.

ناقشنا، أنا ودي، ونحن نسرع إلى هنا، خططنا. بصفتي رجلاً مياًاً للتحفظ بطبيعتي، وجدت دوري غير متوافق مع مزاجي، لكن دي أكد لي أنه سيكون أسرع طريق لتحقيق هدفنا. قال: «أنت قادر على ذلك، لا شك لدي في ذلك، يا لاو. قد تجد حتى أنك تستمتع به».

لم أقتنع بنقطة دي الثانية، ولم أشارك تماماً تفاؤله في النقطة الأولى. ومع ذلك، قررت أن أؤدي دوري بشرف.

أو حتى بفضيحة، لأن دوري في خطتنا كان إثارة اضطراب محرج. قدم بنك هونج كونج وشنجهاي خدماته لسكان لندن من جميع الفئات، ولكن كما يوحي اسمه، سعى البنك منذ تأسيسه إلى جذب عملاء صينيين. في ذلك الوقت، كان كونك صينياً في لندن يعني أنك دائماً محط فضول، وغالباً ما تكون محط شك، وأحياناً موضع للسخرية. ومع ذلك، احتاج الدبلوماسيون والعلماء والفنانون من بلادي إلى خدمات

مصرفية. وحيثما يوجد مال يمكن جنيه، ستجد أن البنوك دائماً ما تجد وسيلة لتلبية حاجتك.

لذلك لم يكن من الصعب على دي الدخول، والعودة بعد بضع دقائق ليقول لي: «الوضع مثالي. عندما تكون جاهزاً، يا لاو». ثم دخل مرة أخرى عبر أبواب البنك دون أن يلاحظه أحد.

ولم يلاحظني أحد أيضاً عندما دخلت بعده بلحظات. رأيت دي عند الطاولة المركزية بين عملاء آخرين، بريطانيين وصينيين، يملؤون استثمارات الإيداع أو طلبات السحب أو أي أوراق أخرى. لاحظ دي وجودي، كنت واثقاً من ذلك، لكنه لم يبد أي اعتراف بوجودي. وأنا بدوري تجاهلته وركزت على مهمتي. بعد أخذ بضعة أنفاس عميقة، توجهت إلى نافذة أحد الصرافين وبدأت عرضي.

طالبت بصوت عالٍ: «يجب أن أرى المدير! هذا الوضع لا يمكن تحمله! استدعه الآن، أيها الشاب. لا يمكنني السماح باستمرار هذا الوضع، لا يمكنني. أين هو؟ أرسل في طلبه!».

ضربت بقبضتي على الطاولة الرخامية.

قال الرجل المذعور: «سيدي، أنا...».

- لا تقل لي سيدي. لا تقدم لي أعذاراً. يجب أن أرى المدير، وعلى الفور!

تحولت جميع الأنظار نحوي. واصلت مطالبي الصاخبة، وكما توقع دي، ظهر المدير بنفسه من مكتبه في وقت قصير.

قال الرجل الممتلي: «ما الأمر هنا؟ ما كل هذا؟». كان جبينه عريضاً بشكل غير متناسب مع وجهه، وهو يعبر قاعة البنك. بنبرة تجمع بين

التملق والأمر -وهو إنجاز مثير للإعجاب- سأل: «سيدي، كيف يمكنني مساعدتك؟».

انتصبت قائلاً: «هل أنت مدير هذا البنك؟».

- نعم، أنا هو. جيرميا ستون، في خدمتك.

- نعم. حسنًا. يا سيد ستون، يجب أن أصر. بالفعل يجب عليّ ذلك.

إنه وضع خطير للغاية. غير آمن بالمرّة، يا سيدي!

- أنا آسف، لا أفهم مقصدك. عن أي وضع...؟

- التونتين الخاص بكم، بالطبع! هذا البنك يحتفظ بتونتين قُتل ثلاثة

من أعضائه! قُتلوا، يا سيدي، بدم بارد! عمي واحدٌ من الأعضاء،

الكابتن لو يان. أطالب بإزالته فورًا من هذا الاتفاق القاتل! يجب

أن تعيدوا استثماره وتحذفوا اسمه من القائمة. لن أقف مكتوف

الأيدي بينما يُقتل أقاربي، يا سيدي. لا، بالتأكيد، لا يمكنك توقع

ذلك.

قال المدير: «سيدي، من فضلك اخفض صوتك. أنا أفهم قلقك. سمعنا

في البنك عن هذه... الحوادث المحزنة».

- محزنة! تعبير دقيق جدًا للإشارة إلى القتل، يا سيدي!

قال، محاولاً تهدئة صخب صوتي بنبرته المهدئة: «مع ذلك، للأسف،

ولأسباب أنا متأكد أنك تدركها، لا يمكن إزالة أي عضو من التونتين

بمجرد إنشائه. إلا، بالطبع، بالموت».

- نعم! بالموت! وهو بالضبط ما أود تجنبه في حالة عمي! رفضك

غير مقبول، يا سيد ستون. بالتأكيد يمكن فعل شيء ما. هذه

ليست حالة طبيعية؛ على الأقل، آمل ألا تكون كذلك. لم أدرك أن

لندن مكان خطير قبل هذا، ولكن يا عزيزي، مدينتكم تبدو مرعبة الآن!

بالطبع، رغم أن السيد جيرميا ستون توسل إليّ أن أخفض صوتي، لم أفعل. في الواقع، أصبحت أكثر صخبًا وجنونا. ضمن ذلك تحديق جميع العملاء والموظفين تجاهي عندما تسلل دي كالشبح إلى مكتب المدير وتمركز داخل خزانة الملابس.

موقع قطعة الأثاث هذه، التي احتوت بلا شك على معطف المدير ومجموعة من القمصان النظيفة، كان أحد الأمور التي قصدها دي عندما قال إن الوضع مثالي. وضعت خلف مكتب المدير، مما جعلها المكان المثالي لمراقبة تصرفات السيد ستون، من خلال الأبواب التي فتحتها دي قليلًا. هذا التغيير الطفيف في حالة الخزانة المعتادة من غير المحتمل أن يلاحظه السيد ستون بسبب الانشغالات الأخرى التي تشغل باله، وهي مطالبي، إن لم تكن الأهم، فهي بالتأكيد الأكثر إلحاحًا.

بعدما تأكدت من أن دي استقر في مكانه بأمان، أخبرت السيد ستون بغضب أنه سيتلقى رسالة من محاميّ. ثم استدرت على عقبي وخرجت عابرة الأبواب الثقيلة.

مشيت إلى الزاوية، استدرت وتوقفت بعيدًا عن مرأى البنك. راجعت ساعة جيبتي. اتفقنا أنا ودي على أن خمس دقائق ستكون كافية إذا نجحت خطتنا. قضيت تلك الفترة في مراقبة المارة دون هدف، وأنا أشعر ببعض القلق على دي ونتائج جهوده، وشعور غير متوقع ولكن لا يمكن إنكاره من الانتعاش بينما أتأمل أدائي.

عندما انتهى الوقت، عدت إلى البنك مرة أخرى. بعد أن تأكدت من أن المدير قد عاد إلى مكتبه وأن دي لم يخرج بعد إلى قاعة البنك، توجهت

إلى صراف آخر وطالبت مرة أخرى بمقابلة السيد ستون. وكما هو متوقع، بمجرد سماع صوتي للمرة الثانية، خرج بسرعة. قال عندما وصل إليّ: «سيدي! حقًا، اعتقدت أنني أوضحت موقف البنك. إذا استمررت في هذه الاضطرابات، فلن يكون لدي خيار سوى استدعاء شرطي».

قلت بتعجرف: «استدع من تشاء، سأراك في المحكمة». استدرت مرة أخرى مغادرًا، لأن دي بالطبع كان قد غادر مكتب المدير بمجرد أن أدار الرجل ظهره.



الفصل الثالث والعشرون

كما اتفقنا، أسرع في السير على الرصيف وتوقفت مرة أخرى عند الزاوية نفسها، هذه المرة منتظرًا دي. لم تمض دقيقة حتى انعطف هو بنفسه.

قال وهو يمر بجانبني دون أن يبطئ: «تعال». تبعته على بُعد خطوات قليلة واستمررنا بهذه الطريقة حتى وصلنا إلى المبنى التالي، بعيدًا عن البنك. عندها فقط لحقت به. كنت على وشك أن أسأله عما فعله، ولكن عندما نظرت إليه، أدركت أن وجهه كان يضيء بابتسامة عريضة.

- كنت مذهلاً، يا لاو. أظن أنك ربما فوتت مهنتك الحقيقية. ربما ولدت لتعتلي خشبة المسرح.

أجبت محاولاً إخفاء شعوري بالفخر: «يسرني أن جهودي كانت مرضية».

- أوه، أكثر من مرضية. لقد أزعت الرجل المسكين لدرجة أنه بعد مغادرتك لم يبقَ دقيقة على أرضية البنك لتهدئة العملاء القلقين، ولم يسمح لنائبه بذلك أيضًا. استدعى النائب للانضمام إليه في مكتبه، حيث فتح الخزانة على الفور. بالمناسبة، يا لاو، إذا احتجنا إلى أي مبالغ كبيرة من المال لأي جانب من جوانب هذا التحقيق، فأنا الآن أملك شفرة خزانة السيد ستون.

قلت مصدومًا: «دي! لا يمكن أن تكون جادًا».

ابتسم قائلاً: «لا، بالطبع لا. رغم أنني أعلمها. على أي حال، سحب السيد ستون دفتر حسابات من الخزانة وفتحه على مكتبه. في الواقع، لم يكن الوضع أكثر ملاءمة لو كان قد قرر سرًا مساعدتي في القراءة من فوق كتفه. فتح الصفحة التي تحتوي على قائمة التونتين. شُطبت أسماء ما، وتشينج، ووه. ظل اسم جيانج موجود هناك، إلى جانب اسم الكابتن لو، والذي أشار إليه كنائب الرجل سيئ السلوك الذي غادر للتو».

- سيئ السلوك!

- بالتأكيد، هذا هو الانطباع الذي كنت تأمل فيه، أليس كذلك؟ قال السيد ستون شيئاً عن أنهم بحاجة إلى النظر في الوضع، لأن سمعة البنك قد تتضرر بسبب الكثير من الانتباه غير المرغوب فيه.

- كل هذا جيد. ولكن القائمة؟ هل اكتشفت أن التونتين تضم أعضاء آخرين، كما قال الكابتن لو؟ وهل اكتشفت من هم؟

أجاب دي بنبرة انتصار: «نعم. اثنان آخران. نحن في طريقنا الآن للتحديث مع أحدهما».



بعد عشرين دقيقة من السير (بسرعة دي المرهقة) وصلنا إلى دنيج بليس في بيملكو. الشارع الجميل، المصطف بالمنازل المتراسة التي تظللها الأشجار، احتل موقعاً اقتصادياً جيداً، إن لم يكن جغرافياً، بين فقر شرق لندن وثراء مايفير. بالنسبة إلى أناس من هذه الطبقة الاجتماعية، كانت أحياء جديدة ومدن كاملة تنشأ بسرعة في مناطق الضواحي؛ ومع ذلك، فضل البعض الحياة في المدينة، وبقيت مناطق مثل هذه كملاز لهم. قطن هنا أصحاب المحلات، والمحاضرون في الجامعات، والأطباء الشباب، والمحامون، والمهنيون من جميع الأنواع، بعضهم في شقق وبعضهم في منازل خاصة. بدا أن هدفنا الأول كان أحد هؤلاء. وجدنا رقم المنزل الذي كنا نبحث عنه، وكان دي على وشك أن يضغط على الجرس عندما أوقفته.

- أعطني لحظة لألتقط أنفاسي. لم أرَ شخصاً يتحرك بهذه السرعة دون أن يركض أو يستخدم سيارة.

- أعتذر. لقد أخبرتك أنني أحاول التخلص من عادة الأفيون. أجد أن النشاط البدني يساعدني كثيراً في التشتت عن بعض الآثار الجانبية غير السارة لهذه العملية.

- فهمت. حسنًا، ربما يجب أن أجد شيئاً أريد التخلص منه، ثم سأتمكن من الاستمتاع بجاذبية كل هذا النشاط.

قال بنظرة ماكرة: «يمكنني أن أقترح أن تحاول التخلص من أي مشاعر تجاه الأنسة ماري ويندل سوى تلك التي يشعر بها المستأجر تجاه صاحبة المنزل الودودة».

احمر وجهي وأنا أقول: «دي، لا أرى أن مشاعري تجاه الأنسة ويندل هي من شأنك».

- أنت تخدع نفسك إذا ظننت أنها قادرة على مبادلة مشاعرك. لا أحب أن أرى أي رجل يعيش في وهم.
- أنت مخطئ. أعتقد أنها تهتم بي.
- أوه، بالتأكيد. إنها تهتم أيضًا بالكلب الصغير، نابليون. إنها شابة طيبة، لكنها بريطانية. مثل أقرانها، ترى الصينيين غرائب مثيرة للاهتمام. وهذا هو الأفضل بين أقرانها؛ العديد منهم يرانا بشكل أسوأ بكثير. محبتها لك، رغم وجودها، هي من نوع المودة نفسها التي قد تمنحها لبيبغاء مدرب.
- لن أسمح لك بإهانة الأنسة ويندل، يا دي.
- لم أفكر في ذلك. لقد وصفتها بأنها أفضل من أقرانها، أليس كذلك؟ حبتي هي أن آمالك في حبها الرومانسي لن تؤدي إلا إلى خيبة أمل.
- أنت مخطئ.
- أعتقد أنني لست مخطئاً، ولكنني آمل من أجلك أن أكون كذلك. تمنيت ذلك بشدة أيضاً.
- بعد نظرة طويلة أخرى إليّ، قال دي: «هل نحن مستعدون الآن لزيارة شين شياو؟».
- من هو... آه، هل هذا هو اسم هذا الرجل؟ نعم، دعنا نفعل ذلك. أفضل كثيراً مواصلة تحقيقنا عن مناقشة شؤوني الشخصية. على الرغم من أنك (لم أستطع منع نفسي من إضافة) لم تبدِ اعتراضاً عندما خدعت السيد جيرميا ستون.
- هز دي رأسه.

- هذه نقطة ممتازة. ربما لا أحب رؤية أصدقائي في ذلك الوضع فقط.

ثم التفت نحو الباب وسحب الجرس. من حسن الحظ أنه لم ينتظر ردًا، لأنني كنت عاجزًا عن الكلام.

في وقت قصير فتحت الباب امرأة في منتصف العمر تبدو شابة. كان أبرز ملامح وجهها الجميل أنها لم تكن بريطانية ولا صينية، بل امتلكت بشرة داكنة وغنية تدل على أنها من شبه القارة الهندية. قالت لنا، وهي تبدو متفاجئة قليلًا لرؤية رجلين صينيين مجهولين يقفان على عتبة بابها: «نعم؟».

سأل دي: «هل هذا هو مقر إقامة شين شياو؟».

- بالفعل. هل أنتما صديقان لزوجي؟

حمل كلامها أيضًا نبرة أهل الهند.

- نود التحدث معه. اسمي دي رين جيه وهذا لاو شيه.

قالت السيدة بشفاه ملتوية: «هذا يشبهه تمامًا، يدعو الأصدقاء لشرب الشاي وينسى إخباري. وفي فترة راحة الخادمة! إذا كان لن يعمل، فربما عليه على الأقل أن يفكر في تخفيف العبء عني».

- زوجك لا يعمل؟

- نعيش على المخصصات التي يقدمها له والده، الذي يبدو أنه يدرك أنه ربي ابنًا كسولًا.

قال دي مبتسمًا: «حسنًا، لا تقلقي، لم نأت من أجل الشاي. نحتاج فقط إلى بضع كلمات مع شين شياو وسنغادر».

بدا أن هذا التوضيح حسن من مزاج السيدة قليلًا.

- تفضلاً بالدخول. (تنتح جانباً لتسمح لنا بالمرور) سأذهب لإحضاره. من فضلكم انتظروا هنا.

وقفنا في مدخل مزين بورق الجدران ومؤث بالطريقة البريطانية، مع طاولات جانبية ومرايا ونقوش مطبوعة لحدائق جميلة. احتضنت الطاولات تماثيل خزفية ومنافض نحاسية وصوراً عائلية. امتدت سجادة فارسية مزخرفة بشكل معقد على طول الأرضية الخشبية.

من الجهة الخلفية للمنزل، التي بدت لي أنها المطبخ، جاءت أصوات لعب الأطفال الصغار. فُتح باب من تلك المنطقة وانضم إلينا رجل صيني قصير القامة، مشيت الذهن، يرتدي ملابس غربية. قدم التحية بضم كفه الأيسر فوق الأيمن، وبادلناه التحية نفسها.

سأل دي: «هل أنت شين شياو؟».

- نعم، أنا هو. هل أردتما التحدث معي؟

قدمنا دي مرة أخرى كما فعل مع زوجة شين. دعانا شين إلى غرفة الجلوس، لكن قال دي: «شكراً لك، لكننا لا نريد أن نقطع عليك احتسائك الشاي. نحن نجري تحقيقات حول قضية لفتت انتباهنا. أتساءل إن كنت، يا شين شياو، عضواً في جمعية تونتين يديرها بنك هونج كونج وشنجهاي؟».

- جمعية التونتين؟ لماذا تسأل عن ذلك؟

استدار نحو المطبخ وقال ردّاً على بعض الكلمات القادمة من هناك: «لن أتأخر».

ثم عاد إلينا قائلاً: «آسف، عم كنتما تسألونني؟».

قال دي: «جمعية التونتين، صديقي عضو فيها ولديه بعض الأسئلة التي تحتاج إلى إجابات».

بدا شين قلقًا وهو يسأل: «هل هناك مشكلات في البنك؟».

- لا، لا، ليس من هذا القبيل. إذا أنت عضو فيها؟

- نعم، أنا عضو فيها. عندما سمعت عنها، فكرت: أنا بصحة جيدة وقوي. والدي لا يزال يدير مصانعه للأثاث في شنجهاي وهو في الثانية والتسعين من عمره. (مرر يده على رأسه، مما جعل شعره يتشعث) الاستثمار ليس كبيرًا، ولكنني أعلم أن أحد الأعضاء الآخرين قد زاد مساهمته. يمكن للأعضاء القيام بذلك في أي وقت، كما تعلم. يُشجع الأعضاء الآخرون على المساهمة الإضافية ولكنهم ليسوا ملزمين بذلك. تتراكم الفائدة بالطبع على المبلغ الإجمالي. إذا لم أكن الشخص الذي يجمع الأموال في النهاية، فلن أخسر الكثير، وإذا كنت أنا، فسيكون إرثًا جيدًا لأطفالي دون أي جهد مني.

نظر دي إليّ ثم عاد بنظره إلى شين شياو سائلًا: «هل تعرف بالصدفة من هو العضو الذي زاد استثماره؟».

- لا، آسف، لا أعرف أسماء الأعضاء الآخرين. يُعتبر من الخطير مشاركة هذه المعلومات.

وابتسم شين شياو ابتسامة خجولة قليلًا.

- أخشى أن هذه ليست مخاوف عابرة، يا شين شياو. هل تعلم أن ثلاثة من أعضاء الجمعية قد قُتلوا مؤخرًا؟

شحب وجه الرجل قائلًا: «قتلوا! لا! كيف يمكن أن يحدث هذا؟».

- نحن نحاول معرفة الملابسات. في الوقت الحالي، أوصي بأن تتخذ احتياطاتك.

- احتياطات؟ ما هي... نعم. نعم، بالطبع. احتياطات، ضد القتل!

من يتخيل ذلك؟ شكرًا لكما، أيها السادة. أنا... نعم، شكرًا لكما.

بعد أن أربكنا شين شياو تمامًا، رفعنا أنا ودي قبعاتنا وغادرنا.

استأنفنا سيرنا إلى وجهة لا يعرفها سوى دي، على الرغم من أننا كنا

نتجه نحو إيست إند. ظل دي صامتًا بجانبني لفترة قصيرة، ثم قال: «ما

رأيك في شين شياو؟».

أخبرته أنني أجد صعوبة في تصديق أن رجلًا مرتبًا وكسولًا يمكنه

ارتكاب جرائم بهذه الدقة.

- حتى زوجته المثقلة بالأعباء تعتقد أنه قد ينسى أنه دعا ضيوفًا

لاحتساء الشاي.

أومأ دي برأسه وقال: «أوافقك الرأي. بالإضافة إلى أنهم يعيشون

على نفقة والده، ويبدو أن منزلهم مزدهر ومستقر. لديهم خادمة. إذا

واجه شين أزمة مالية شديدة تدفع رجلًا كسولًا إلى هذا المستوى من

العنف، فلم ألاحظ أي علامة على ذلك».

- ولا أنا. أيضًا، إذا لم تكن حيرته وذعره عند إبلاغه بالجرائم

حقيقيين، فهو من وُلد ليعتلي خشبة المسرح.

- بالضبط. لذا دعنا نفترض في الوقت الحالي أننا يمكننا استبعاد

شين شياو. يتبقى ثلاثة أعضاء آخرين في التونتين ما زالوا على

قيد الحياة.

قلت: «جيانج، الكابتن لو، والرجل الثاني المضاف. إذا كنا على

صواب بأن التونتين هو الدافع وراء الجرائم، فيجب أن يكون القاتل

أحدهم».

- بالتأكيد. أعتقد أنه يمكننا أيضًا استبعاد جيانج من دائرة الشكوك. إذا كان هو القاتل، فلماذا ينصب كل هذه الفخاخ؟ عندما واجهته بدا مرعوبًا بشكل حقيقي لدرجة هزت تماسكه. ومنذ هروبه لم تحدث أي جرائم قتل أخرى. لا، أعتقد أنه اختفى عن الأنظار وليس هو الرجل المنشود».

قلت بحذر: «حسنًا، هذا يترك فقط الرجل المضاف والكابتن لو». ألقى دي نظرة جانبية عليّ.

- تخبرني نبرة صوتك أنك تعتقد أنني ربما استبعدت الكابتن لو بسرعة كبيرة.

- أفهم ولاءك للرجل...

- ربما ليس تمامًا. خاطر الكابتن لو بالكثير في خنادق فرنسا للحفاظ على حياة رجاله؛ هؤلاء الأربعة من بينهم. بالإضافة إلى أعماله الشجاعة، تسببت احتجاجاته المتكررة للسلطات البريطانية في تعرضه للضربات التي عانيت منها أيضًا. أجد صعوبة في تصديق أنه، بعد تحمله كل ما مر به، سيقدم الآن على قتل هؤلاء الرجال أنفسهم من أجل مال التونتين. أعتقد أن ذلك ممكن، ولكن تركيزي الآن على هذا الرجل المضاف الأخير.

اعترفت: «منطقتك مقنع».

- ومع ذلك، لست مقتنعًا تمامًا.

- لأنني لم أشارك تجربتك مع الكابتن لو، فأنا ربما أكثر موضوعية. سأعتمد على توجيهاتك، ولكن في الوقت نفسه، أقترح ألا نستبعد الكابتن ولا جيانج تمامًا من دائرة الشك.

- هذا يبدو منطقيًا تمامًا.

بعد فترة، بدأت ملامح محيطنا تصبح مألوفة، وكذلك الروائح. بدأت الشوارع تضيق وتأخذ زوايا حادة. تقلصت المباني، إن كانت متاجر أو منازل، أو تضخمت إلى حجم مستودعات ضخمة. ملأت روائح الماء والأسماك والقاذورات المكان.

قلت: «دي. لقد عدنا إلى لايمهاوس. هل هذا هو المكان الذي يمكن العثور فيه على الرجل الثاني المضاف؟».

- لا، لكنه يعيش بالقرب من هنا. إذا كنت محققًا بشأن تورطه، أعتقد أن الحصول على الحقيبة التي تركتها مع الرقيب هونج سيكون مفيدًا.

- ماذا يوجد في الحقيبة؟

ابتسم دي قائلاً: «هذا ما ستكتشفه، يا لاو».



الفصل الرابع والعشرون

- القاضي دي! لاو شيه! تفضلا بالدخول وأخبراني بما كنتما تفعلانه. الغلاية قد غلت للتو.
- غير الرقيب هونج اللافتة على الباب إلى «مغلق»، وأغلق المزلاج، وبدأ في وضع الشاي في الإناء.
- لا، يا هونج، شكرًا، ليس هناك حاجة...
- توقف دي. نظر إلى وجه هونج، ثم إلى وجهي. بدت ملامح هونج غير راضية، وملامحي، أنا متأكد، كانت متوسلة.
- قلت: «دي، هذا الجهد البدني الذي تبذله جيد، لكنني مجرد إنسان. كوب من الشاي وفرصة للجلوس والراحة، ولو لفترة قصيرة، ستكون موضع ترحيب كبير».
- أنا أصر.

أضاف هونج قبل أن يتمكن دي من التحدث: «إذا سمحت لي بالتحدث بالصراحة، يا سيدي، تبدو الآن أسوأ مما كنت عليه عندما غادرت هذا الصباح. ومن التعبير المتعب على وجه لاو المسكين، أتصور أنك لم تأكل شيئاً. لا يمكنك الاستمرار على هذا النحو. خصوصاً، إذا كنت تحاول تحرير نفسك من قيود الأفيون».

حدق دي بدهشة.

هز هونج رأسه مبتسمًا: «لا تعتقد أنك أول شخص أراه في هذه الحالة. الشحوب، قطرات العرق، الارتعاش الذي يبدأ ويتوقف... للأسف، يجد الكثير من أبناء وطننا عبء الانفصال الطويل عن الوطن والعائلة ثقيلًا جدًا فيلجؤون إلى الأفيون لتخفيف الألم. في النهاية، يصل بعضهم إلى متجري للحصول على أعشاب تساعد على التحرر من قبضته. لا أعرف ما الذي دفعك لاستخدام المخدر في البداية، يا دي، لكن إذا كنت مصممًا الآن على التخلص منه، لدي بعض الأعشاب التي ستجدها مفيدة».

قلت: «يسعدني سماع ذلك، يا هونج، لأن حالة دي العامة...».

قال دي بحدة: «كفى! حسنًا. من أجل لاو -نعم، نعم، ومن أجلي أيضًا، يا هونج- سأوافق على استراحة قصيرة من أنشطتنا التحقيقية. أعترف أنني أشعر بتوتر وإرهاق في الوقت نفسه، وهو مزيج مزعج للغاية. إذا كان بإمكانك أن تقدم لي شيئًا لتخفيف هذا الشعور، يا هونج، فسأكون شاكراً جدًا».

ثم جلس دي على كرسي ووضع يديه على فخذه، ناظرًا حوله بتوقع، كأنه مريض يزور عشابًا. وهذا، على ما أعتقد، ما يحدث بالفعل. جلست أيضًا بينما وضع الرقيب هونج نوعًا مختلفًا من الشاي في إبريق آخر. وضعه أمام دي، بينما صب من الإبريق الأول لي وله. بينما

كان شاي دي يتخمر، أحضر هونج علبة بسكويت قائلًا: «هذه ليست سيئة. حلوة جدًا، على الطريقة الإنجليزية، لكن بما أنكما لم تأكلا مؤخرًا، أعتقد أنكما ستجداها مقبولة».

عضضت واحدة من البسكويت المحشوة بالكشمش ووجدتها جيدة مثل أي شيء أكلته من قبل. السائل الأخضر الباهت في فنجانني بدا أيضًا لذيذًا بشكل خاص.

حثلته، وأنا أتناول قطعة بسكويت ثانية: «تناول واحدة، يا دي».

- ليس لدي شهية، شكرًا لك.

رشف دي من الشاي الداكن الكثيف الذي سكه هونج في فنجانته. قال بهدوء وهو يعيد الفنجان إلى الطاولة المنخفضة: «هونج، يجب أن أهنئك. إذا كان هناك شيء أسوأ من هذا قد مرَّ على شفتي، فلا أستطيع تذكره».

- إنه الأفيون في جسدك يجند لسانك لمواجهة عدوه. يجب أن تشرب الشاي في الإبريق كله.

- بالتأكيد لا.

- بالتأكيد نعم، وإلا لن أفتح الباب.

نظر دي إلى الرجل الأكبر سنًا: «أخي الكبير هونج، لديك الكثير من صفات والدك. أعتقد أن هذا شيء جيد، رغم أنني الآن لا أشعر بذلك. (رفع فنجانته مرة أخرى) لا، لماذا لا تُطلع الرقيب هونج على ما أنجزناه بينما أحاول تناول هذا السائل الكريه؟».

بينما كنت أسرد قصتي وكان هونج يستمع، بذلنا قصارى جهدنا للحفاظ على تركيز أعيننا على بعضنا، حتى لا يبدو أننا نراقب دي لتأكد من أنه لا يسكب «السائل الكريه» على الأرض. شعرت بوخزة

خفيفة من الذنب وأنا أتناول قطعة بسكويت لذيدة ثالثة وأشرب المزيد من الشاي النقي القاسي؛ لكنني فكرت أن دي من جلب هذا على نفسه، باستمراره في الانغماس في آفة الأفيون. شعرت بتضخم في الشعور بالتفوق الأخلاقي، الذي حاولت كبحه. دي، بعد كل شيء، رجلًا استثنائيًا بطرق عديدة. اعتماده على الأفيون كان ضعفًا فيه لم أتمكن من فهمه.

قال دي وهو يصفع فخذه، رغم أن الصوت لم يكن بالحدة نفسها التي اعتدت عليها: «حسنًا، انتهيت من تناول مشروبك البشع، يا هونج. لا أشعر بتحسن الآن، رغم أنني آمل أن يحدث ذلك، لأنني إذا لم أشعر بتحسن سأعتبر هذا خدعة غير سارة من رجل كنت أعتبره صديقًا. لا، إذا كنت قد تناولت ما يكفي من الشاي والبسكويت لتكون مستعدًا لفترة ما بعد الظهيرة، ربما يمكننا مواصلة عملنا؟ هونج، إذا كنت لطيفًا بما يكفي لتعطيني حقيبتني وفتح الباب، سأكون ممتنًا للغاية».

في نهاية حديثه، نظر هونج طويلًا إلى دي. ثم ذهب خلف المنضدة وسحب حقيبة جلدية.

- حقيبتك هنا. سأكون سعيدًا بحملها لك، إلا إذا نويت استخدام محتوياتها الآن. لا فائدة من العبوس بهذه الطريقة، يا دي. سأرافك. مما أخبرني به لاو، يبدو أن الرجل التالي الذي ستقابله قد يكون قاتلاً بدم بارد. لن يكون لديه ما يخسره إذا قاوم القبض عليه بعنف. زوج إضافي من الأيدي والأعين لن يضر بمهمتك وقد يكون مفيدًا للغاية.

- هل تعتقد أن يديَّ وعينيَّ أنا ولاو غير قادرة على القيام بالمهمة؟ ظل هونج صامتًا. أخيرًا، تنهد دي وقال: «حسنًا، يا هونج. بما أن الأيدي والأعين التي تشير إليها هي يداك وعيناك، أعتقد أنه لا يمكنني الاعتراض».

أغلق هونج المتجر وانطلقنا نحن الثلاثة.

لم تكن مسافة السير طويلة - خاصة بسرعة دي- إلى شارع قبرص في بيتنال جرين، مقر إقامة الرجل الثاني المضاف إلى التونتين ومشتبهنا في قتل مآ، تشينج، ووه. بينما كنا نقترّب، شعرت بطاقة جسدي، التي تجددت بفضل ما وفره لنا هونج من طعام، ترتفع نحو ذروة مشتعلة. سأشارك في القبض على قاتل! يشكل هونج ودي معًا قوة هائلة، لكنني كنت واثقًا أن مساهمتي لن تكون عديمة الفائدة تمامًا. في منتصف الطريق إلى العنوان الذي كنا نتوجه إليه، وصلنا إلى زقاق.

قال دي: «هنا، على ما أعتقد». سلم هونج الحقيبة إلى دي، الذي اختفى في الظلال.

سألت: «هونج، ما الذي يجري؟».

- لن يستغرق الأمر سوى دقيقة.

مرت بضعة دقائق ولم يظهر دي بعد. قلت: «حقًا، يا هونج. لا يمكنني أن أكون مفيدًا إذا أبعدتmani أنت ودي عن جوانب التحقيق».

ابتسم هونج منادياً: «دي؟ هل أنت جاهز؟».

جاء صوت من الزقاق، يتحدث بلكنة الكوكني.

- دي؟ أوه، هو؟ لقد أكلته!

ثم خرج من الظلال شخص مخيف. كان يرتدي ملابس سوداء بالكامل، بأجنحة مرفوعة ووجه شرس مروع، وصرخ: «وسوف أكلك أنت أيضًا!».

قفزت إلى الخلف، متردداً بين الهروب أو القتال. لم أكن قد واجهت
كياًناً خارقاً من قبل ولم أتمكن من التفكير في استراتيجية موثوقة،
لذا اخترت التراجع. كنت قد شرعت في الفرار عندما أدركت ضحكات
هونج، وانضمت إلى ضحكته ضحكة مألوفة أخرى. نبض قلبي بشدة،
نظرت خلفي لأرى وجه الوحش في يده، وقد استبدله بملامح دي التي
تكسوها التسلية في مكانها المعتاد.

قال دي: «إنه أنا، جاك النطاط».

استدرت ونظرت إليه مباشرة، محاولاً أن أتنبس بانتظام.

- كان ذلك تصرفاً قاسياً، يا دي.

وفي أثناء مراقبتي له، أدركت أن الوجه المرعب كان قناعاً، والأجنحة
كانت حرملة مخيطة على أذرع الزي.

- وما هذه الملابس التي ترتديها؟

أجاب دي، وقد عادت لكنته كالسابق: «أعتذر، لقد أظهر جاك النطاط
قدرته على تخويف رجال الشرطة البريطانيين. تساءلت عما إذا كان
سيكون فعالاً أيضاً مع الصينيين الشجعان».

قلت، وقد عاد نبض قلبي إلى طبيعته: «لا تحاول أن تتملقني. ومن
فضلك، قم بتجاربك على شخص آخر من الآن فصاعداً».

قال دي موافقاً: «بالطبع. الآن، إذا تفضلتم بالانتقال إلى وجهتنا،
سأفعل الشيء نفسه بنفسني!». قال ذلك بلكنة المخلوق مرة أخرى،
ووضع القناع على وجهه وقفز للأعلى. حاول أن يمسك بمزاريب السطح
لكنه كاد أن يخطئها. في اللحظة الأخيرة، تمكن من الإمساك بها.
بمعاناة، تآرجح ليصعد إلى السقف، واختفى.

قلت، ونظري مثبت على المزاريب التي كادت تنفلت من قبضة دي:
«هونج، كم هو صعب أن يتحرر المرء من قبضة الأفيون؟».

- مما رأيته على زبائني، إنه صعب للغاية. الكثير لا ينجحون، أو يبدو أنهم ينجحون لكنهم ينزلقون مرة أخرى بعد فترة ويجب أن يحاولوا مجددًا، أحيانًا أكثر من مرة. لم تقدم القوى الغربية أي معروف للصين عندما فرضت الأفيون على موانئنا.

وافقته في هذه النقطة، لأنه من يمكنه أن يجادل بالعكس؟ حتى البريطانيون، الذين جلبت سفنهم المخدر الملعون من الهند إلى سواحل الصين، والذين، باستثناء تلك الاشتباكات التي خاضتها الصين تحت قيادة المفوض لين، فازوا بكل معارك الحروب لإجبار الصين على قبوله، لم يجادلوا قط بأن هناك فوائد في تلك التجارة لأي شخص سوى أنفسهم.

قلت لهونج: «ادّعي دي أن المفوض لين زاره في حلم، وأخبره بضرورة التوقف عن تعاطي عن المخدر».

نظر إليّ هونج: «هل فعل حقًا؟ إنها علامة جيدة، إذًا».

- إذًا، أنت تؤمن بالزيارات الشبحية من العالم الآخر؟

- أعتقد، يا لاو، أن الرجل الذي يتلقى تعليمات من المفوض لين في حلمه كان ميالًا لاتباع تلك النصيحة قبل أن تأتيه.

بينما كنا نقرب من شارع قبرص، سمعت صوت صفارات الشرطة.

قلت: «هونج! لقد رصدوا جاك النطاط!».

أسرعنا من وتيرتنا.

طمأنتنا نحن الاثنين وأنا أقول: «لن يستطيعوا القبض عليه. دي يتفوق على شرطة لندن».

- نعم، عندما يكون في أفضل حالاته. لكنه ليس في أفضل حالاته في الوقت الحالي. من المحتمل أن نكون بحاجة إلى التدخل.

عندما استدرنا عند الزاوية، اكتشفنا أن جاك النشاط لم يكن محور اهتمام شرطة العاصمة. لم نتمكن حتى من رؤية دي، رغم أنني كنت متأكدًا من أنه يراقب الوضع من خلف إحدى مداخل السطح. ولم يكن هناك حاجة لتدخلنا؛ في الواقع، لن تكون جهودنا مرحبًا بها. صُفّت سيارة الطبيب الشرعي أمام بيت يحمل العنوان الذي بحوزتنا للرجل الثاني المضاف. بينما كنا نراقب، فتح أحد العاملين أبواب السيارة الخلفية وخرج منها شرطيان يحملان نقالة، عليها جثة مغطاة بملاءة.



الفصل الخامس والعشرون

قلت لهونج بينما كنا نختبئ في الظلال على الجانب الآخر من الشارع: ربما تلك الجثة ليست لرجلنا. ربما يكون موت رجل في هذا العنوان مجرد صدفة».

لم يقل هونج شيئاً، لكن عبرت نظراته عن قناعته الضعيفة بهذه الاحتمالية مثلي. تضاءلت احتمالية كونها صدفة أكثر عندما رأينا آخر فرد من الشرطة يغادر المبنى، وكانت أصغر إصبع في يده اليسرى ملفوفةً بضمادة، وهو الكابتن ويليام بارد.

أو بالأحرى يحاول المغادرة؛ فبينما وقف بارد عند الباب المفتوح، ظهرت شخصية متشحة بالسواد مرتديةً حرملة من خلفه، وبسرعة خاطفة، جذبته إلى الداخل وأغلقت الباب.

قلت «لماذا...».

قال هونج: «بالضبط».

انتظرنا لنرى ما سيحدث بعد ذلك. بعد دقائق قليلة، فُتح الباب مرة أخرى وخرج الكابتن بارد بوجه شاحب، ثم توجه بسرعة نحو شرطيّين. تحدث وأشار بيديه؛ دخل أحد الشرطيّين المبنى بينما ركض الآخر حول المبنى إلى فنائه الخلفي؛ ولكن سرعان ما عاد كلاهما خالي الوفاض. تحول شحوب بارد إلى احمرار غاضب. صعد إلى سيارته، وتحدث بحدة إلى الشرطي الذي يقودها، وانطلقا مبتعدين.

تسكعنا أنا وهونج عبر الشارع، منتظرين أن يظهر دي ويعطينا تعليماته حول خطواتنا التالية. بعد فترة قصيرة، ظهر دي مرتدياً ملابس المدنية مرة أخرى، ممسكاً حقيبة في يده، ودار حول الزاوية باتجاهنا. مرّ بنا دون أن يلتفت، وأشار بإيماءة صغيرة بيده أن نتبعه. فعلنا ذلك، متأخرين عنه قليلاً حتى وصلنا إليه في حديقة قريبة حيث توقف وكأنه يتأمل زهرة السوسن، والتي تحت شمس الظهيرة الساطعة، استحققت حقاً الإعجاب.

قلت، عندما وصلنا إليه أنا وهونج: «دي! ماذا حدث؟».

- ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ لقد أصبحت أحمق عديم الفائدة، هذا ما حدث!

ضحك دي ضحكة غير سارة. ظهرت حبات عرق جديدة على جبينه الشاحب.

- ربما يجب علينا فقط الجلوس وشرب الشاي، والانتظار حتى يتبقى رجل واحد فقط. سيجمع أصول التونتين وسنقبض عليه! ألا يبدو لكما أيها السادة أن هذا سيكون أسلوباً أكثر فائدة للتعامل من الطريق الذي كنا نتبعه؟

كان تعبير دي غير سار مثل ضحكته.

كرر هونج كلماتي بهدوء: «دي، ماذا حدث؟».

أجاب دي: « مات الرجل. توفي هذا الصباح. كنا نظنه مشتبهًا به، لكنه كان جثة! ».

سألت: « كيف مات؟ ».

- كالآخرين، بالطبع! كان ضحية سيف الفراشة. بالطبع كان كذلك، لأن قاتله هو نفسه. رجل لم أتمكن من التعرف عليه، ناهيك بتقديمه للعدالة! ما فائدتي لأي شخص، هل يمكنك أن تجيب على ذلك؟ ما فائدتي؟

مراقبًا دي بعناية، سأل هونج: « ماذا ناقش جاك النطاط مع المفتش بارد؟ ».

- كانت لديهما محادثة رائعة بالفعل. قائد في شرطة العاصمة مرعوب من شخصية خيالية! حقًا، إنه لأمر مضحك. أشرت: « لكن جاك كُسر إصبعه ».

دفع دي وجهه المتعرق قريبًا من وجهي، قائلاً: « لا، يا لاو. أنا من كسر إصبعه. ارتديت زي كابوس طفولته ولم يتجاوز المفتش بارد الشجاع ذلك. خوفي من هذا النوع من النقص في شرطة العاصمة هو ما جعلني مصممًا على التحقيق في وفاة ما بنفسني، لكن يبدو أنني لست أفضل في هذا العمل من المفتش بارد الشجاع ».

سأل هونج، بدا وكأنه غير متأثر بتزايد غضب دي: « هل قال المفتش بارد الشجاع أي شيء يهم جاك النطاط بخلاف تأكيد وسيلة الموت؟ ».

- لم يفعل، لكن جاك فعل ذلك. شرح جاك كيفية عمل التونتين واقترح أن تضع شرطة العاصمة مراقبة على منزل شين شياو وعائلته، وأن تبحث عن الكابتن لو يان وتراقبه أيضًا. كما ذكر جاك جيانج، الذي ربما عاد إلى منزله المفخخ الآن. أي واحد منهم

قد يكون الضحية التالية، وأي واحد منهم قد يكون القاتل، وقد التقيتهم وجهًا لوجه جميعًا ولم أفعل شيئًا!

- دي، الشعور بالاشمئزاز من نفسك الذي تشعر به الآن هو تأثير الأفيون الذي يحاول إحباط محاولتك للتخلص منه...

- هونج، إذا لم تتوقف عن هذا المنطق، سأضطر إلى ضربك.

- في حالتك هذه، لن تتمكن من الفوز.

- حالتني! أحذرك، لا تفترض أن حالتني...

قاطع احتجاجات دي صوت جديد مرح: «السيد دي، سيدي. أنا سعيد لأنني وجدتك. أعتقد أنني أحضرت لك أخبارًا تهمك».

استدردنا جميعًا لنرى اللص، جيمي فينجرز. قال دي: «أنت! لماذا أنت هنا؟».

- كما قلت، يا سيدي. جلبت لك أخبارًا.

- كيف وجدتني؟

- حسنًا، أرجع ذلك إلى الحظ، يا سيدي. هناك شائعات أن رجلًا صينيًا قُتل بالقرب من هنا...

- صيني! رجل صيني. وإذا كانت هذه هي الأخبار التي جلبتها، فأنت متأخر كثيرًا.

- أوه، لا، سيدي، هذه ليست أخباري. كنت أشرح كيف وجدتتك. عندما سمعت عن الرجل الصيني الميت، قلت لنفسني، جيمي، يا فتى، هناك ستجد رب عملك، لأن رجلًا مثل السيد دي سيكون مهتمًا بهذا الشخص المسكين.

قال دي بحدة: «أنا مهتم، وماذا بعد؟».

عبس جيمي فينجرز مرتبًا: «حسنًا، يا سيدي، لذا جئت أبحث...».

قلت للص الشاب: «لا تلتفت لنبرة دي. إنه يشعر بتوعك. من فضلك، استمر فيما جئت لتقوله».

انفجرت اسارير الشاب قائلاً: «أوه، نعم، يا سيدي! (ثم وجه حديثه لدي) آسف لأنك تشعر بالتوعك، يا سيدي».

- لاو، إذا أصررت على نشر أخبار صحتي في جميع أنحاء لندن، فسأشملك في الضرب الذي أنوي توجيهه لهونج. الآن، جيمي، تفضل وأكمل.

بعينين متسعيتين، ابتلع جيمي فينجرز ريقه قائلاً: «حسنًا، يا سيدي، جئت للتو من كنيسة القديس جورج، في بلومزبري، من البعثة المسيحية هناك. يقدمون شايًا مجانيًا للعمال لا بأس به، رغم أن المرء يضطر إلى الجلوس لسماع الكثير من الهراء عن القديسين والخلاص... آه، أعذر يا سادة، إذا كنت قد أزعجتكم!».

قلت بحذر: «أنا المسيحي الوحيد بيننا، وإذا كان الشاي مصحوبًا بإحدى عظمات القس روبرت إيفانز، فلا يمكنني القول إنني أختلف معك. ولكن، أرجو منك الوصول إلى النقطة المهمة بسرعة، قبل أن يوسع دي دائرة الضربات القادمة لتشملك أنت أيضًا».

- أوه، لا، لن يجدي نفعًا! شعرت بإحدى تلك الضربات من قبل ولا أرغب في تكرارها. ما أقوله لك هو بمجرد أن أنهى القس إيفانز عظته وبدأنا في شرب الشاي، اندفع رجل صيني إلى الداخل، وسقط عند قدمي القس وتوسل للحصول على ملاذ. كان يهذي بأن هناك أشخاصًا يلاحقونه من أجل المال، وأنهم قتلوا الآخرين بالفعل. توسل إلى القس للسماح له بالبقاء في البعثة. الآن، بدا لي هذا الأمر وكأنه ذا أهمية لك، يا سيدي، لذا ها أنا هنا.

عادت الابتسامة إلى وجه الشاب. نظرت أنا ودي وهونج إلى بعضنا بعضًا وصحنا بصوت واحد: «جيانج!».

- أحسنت، يا جيمي.

أخرج دي نصف كرونة من جيب صدريته وسلمه للص مردفًا: «إذا حصلت على أي معلومات إضافية عن الصينيين تجدها مثيرة للاهتمام، من المحتمل أن أجدها مثيرة للاهتمام أيضًا».

- نعم، يا سيدي!

أخفى جيمي العملة وانطلق مسرعًا مبتسمًا في الشارع.

قال دي: «الآن، لاو، ستأتي معي. هونج، يجب أن نجد الكابتن لو. هذه مهمة تناسب معرفتك وقدراتك جيدًا».

- هل أنت متأكد أنك لا تفضل أن أرافك؟ حالتك لم تتحسن بعد...

- اللعنة على حالتي! العثور على لو أمر حيوي، وإذا جئت معي أنا ولاو، فمن سيقوم بذلك؟ لا، مهمتك واضحة.

سأل هونج: «حسنًا. إذا نجحت، هل ستراجع عن تهديدك بالضرب؟».

- أعزم ضربك على أي حال، ولكن ليس حتى ينتهي عملنا العاجل. رجاءً، خذ حقيبتني إلى متجرك في لايمهاوس. شكرًا لك. الآن، هيا، يا لاو. أعتقد أنه ليس لدينا وقت لنضيعة.



الفصل السادس والعشرون

كانت كنيسة القديس جورج في بلومزبري صرحًا أنجليكانيًا مهيبًا بتصميم كلاسيكي. شُيدت قبل مئتي عام لخدم أولئك الذين رأوا أنفسهم في ذلك الوقت -ولربما ما زالوا- «الطبقات الراقية». تتميز بسلاسل ترتفع من الرصيف إلى شرفة عالية محاطة بالأعمدة. اعتلى تمثال الملك جورج الأول مرتديًا الزي الروماني قمة البرج المتدرج، المتأثر بوصف بليني الأكبر لضريح هاليكارناسوس. جعلني هذا النوع من العبثية، على الرغم من كوني مسيحيًا، مترددًا في المشاركة في طقوس ديني الذي اعتنقته. لكن القس روبرت إيفانز كان له دور كبير في قدومي إلى لندن، وشعرت أن هذا دين يجب سداذه مبكرًا خلال إقامتي، ولو بتضحية نصف دزينة من صباحات الأحد. لذا، رغم أن زيارتنا السابقة، أنا ودي، كانت فقط لمكتب القس في بيت الرعية، كنت أعرف بالفعل أن داخل الكنيسة يتكون من مقاعد خشبية داكنة مصطفة بدقة بين أعمدة حجرية شاهقة على أرضيات رخامية صلبة، وتطل عليها نوافذ زجاجية ملونة بتصاميم

صارمة تفرض هيبتها على المكان. تركت الكنيسة انطباعاً سائداً في نفوس المصلين بأن الشعور بالسعادة للانتقال إلى السماء لا يتحقق إلا من خلال الصمود القوي والجهد المكثف والعزيمة الصلبة.

بينما كنا أنا ودي نبذل جهداً من نوع آخر -ودي يبدو عليه التعب الشديد والتعرق- تجاوزنا مرة أخرى تلك القداسة المهيبة، وتوجهنا هذه المرة إلى البعثة المسيحية. تقع هذه المؤسسة في الفناء الخلفي للكنيسة، خلف أحجار المقبرة القديمة. وتشغل مبنى متواضعاً كان في السابق إسطبلاً لخيول القس. وعلى جانب منه، كان المبنى ملاصقاً للكنيسة. في الجزء الخلفي منه استند إلى جدار عالٍ، يحيط أيضاً بالمقبرة من ثلاث جهات، مما يجعل الوصول إلى تلك المقبرة ممكناً فقط من الشارع. احتوت العلية في البعثة على نصف دزينة من الأسرة للمحتاجين مؤقتاً (أو أسرة مؤقتة للمحتاجين بشكل دائم، حيث لم يكن القس إيفانز يؤمن بتدليل أولئك الذين لا يستطيعون تحسين ظروفهم في فترة قصيرة نسبياً). في الطابق الأرضي هناك المطبخ، ومخزن للملابس والبطانيات وغيرها من المواد المتبرع بها، ومنطقة تناول الطعام. جميعها مؤثثة بشكل بسيط وعملي، على عكس داخل الكنيسة. كان المبنى نفسه، وعلى النقيض من الكنيسة، في حالة من البؤس والتدهور. من الواضح أن برج هاليكارناسوس حظي بالأولوية في تخصيص أموال بناء الكنيسة على حساب الإسطبلات السابقة.

شققنا طريقنا عبر المقبرة إلى باب مبنى البعثة. رفع دي يده لتحذيري بالصمت ونحن نقرب. رغم رؤيتي لعدم ضرورة هذه التعليمات، فإن حالته الحالية جعلت أي اعتراض غير مرحب به. وضع دي يده على المقبض وأداره ببطء دون إصدار صوت. فتح الباب بالطريقة نفسها.

كنت مرتاحًا لأننا دخلنا بطريقة لا يمكن لأحد أن يلاحظنا إلا إذا كان يواجه الباب مباشرة.

للأسف، جلس جيانج جوان لي على كرسي مستقيم الظهر في مواجهة الباب مباشرة.
من ناحية، كنا قد وجدناه.

ومن ناحية أخرى، كان عنصر المفاجأة لصالحه. بصيحة تقشعر لها الأبدان، اندفع نحونا مباشرة. في اللحظة الأخيرة، عندما حاول دي الإمساك به، قفز جانبًا برشاقة مجنون وركض متجاوزًا إياي، خارج متناول يد دي. دار دي لملاحقته، لكنه استدار ربع دورة أكثر من اللازم واصطدم بي. أطلق دي لعنة وهو يستعيد توازنه ويركض خارج الباب. تبعته، لأرى جيانج يقفز فوق بعض القبور ويتجنب أخرى، متجهًا بسرعة عبر المقبرة حتى وصل إلى الرصيف. اعتقدت أنه سيركض مبتعدًا، لكنه بدلًا من ذلك، صارخًا كطيف هائم، استدار يمينًا، واندفع صاعدًا الدرج، ودخل الكنيسة وهو يصرخ: «ملاذ! ملاذ!».

أخذت ألاحظ، بينما كنت أركض أنا ودي خلف جيانج، أن كل الوجوه في الشارع التفتت إلى المشهد الغريب لرجل صيني يصرخ طلبًا للملاذ بينما يطارده رجلان صينيان آخران. عندما سمعت صفارة الشرطي، خطر ببالي أننا، أنا ودي، قد نجد أنفسنا قريبًا في السجن مرة أخرى بينما يهرب جيانج. ضاعفت سرعتي. إذا تمكنا من القبض على جيانج واحتجازه، يمكننا تأكيد دورنا الفاضل في هذه المغامرة. يمكننا استدعاء المفتش بارد، إذا لزم الأمر، والذي بلا شك سيثبت صحة تفسيرنا. في الواقع، بما أن الموقف يشمل رجالًا صينيين، فمن المحتمل أن يكون بارد قد تم تنبيهه بالفعل. رغم أن فكرة رؤية المفتش لم تكن

تسرني، فإنها بلا شك ستمنح دي متعة كبيرة بوضع الرجل الذي أصبح الآن المشتبه الرئيسي في هذه الجرائم بين يدي شرطة العاصمة.

انطلقت مسرعاً خلف دي، صاعداً درجات الكنيسة بسرعة. فتح دي الأبواب الثقيلة بعنف، وكنت خلفه مباشرة. اضطررت للتوقف والتأقلم مع الظلال داخل الكنيسة. دي، الذي يبدو أنه يمتلك عيون قطة، اتجه مباشرة نحو المذبح. عندما تكيفت رؤيتي، رأيت ما كان يجب أن يراه: في السكون المعتم المعطر بالبخور، كان قماش المذبح يتأرجح.

أشار دي لي بالتحرك إلى الجانب الأيسر من المذبح بينما تحرك هو ببطء إلى الجانب الآخر، متحدثاً بهدوء: «جيانج جوان لي. أنت تذكرني، أنا دي رين جيه. كنا أصدقاء في فرنسا. هذا الرجل الآخر هو لاو شيه. إنه صديقي، وصديقك وأيضاً».

ساد صمت من جهة المذبح. الآن، بعد أن اقتربت منه، استطعت رؤية إصبع قدم حذاء قماشي بارز من بين طيات القماش.

واصل دي: «جيانج، ليس لدينا أي نية لإيذائك. نحن نتفهم خوفك. نأمل أن تتمكن من مساعدتنا في التعرف على الشخص الذي يلاحقك ويلاحق رفاقك».

مرة أخرى، لم يكن هناك رد. نظرنا أنا ودي خلفنا بقلق عندما أضاء ضوء من الخلف، مما أشار إلى فتح باب الكنيسة. وقف شرطي مظلاً أمام الضوء الساطع من المدخل. أشار دي إليه بالتراجع، لكنه دخل وأغلق الباب خلفه. يبدو أن إشارة دي أثرت عليه بعض الشيء، لأنه لم يقترب أكثر. في الوقت نفسه، سمعت صوت صرير خافت من الجهة اليمنى، كصوت مفصلة باب، وأدار دي رأسه في ذلك الاتجاه أيضاً، لكن لم يحدث شيء آخر. كما أن القدم تحت قماش المذبح لم تتحرك.

انحنى دي أمام المذبح قائلاً: «جيانج، سأرفع القماش الآن. لن أقرب أكثر. أريدك أن ترى وجهي وتذكر من أكون وأنني لا أشكل خطراً عليك». مد يده نحو التنورة المخملية الفاخرة التي تحيط بالمذبح ورفعها كما اقترح. في الضوء الخافت، ظهر جيانج جوان لي بعينين متسعيتين ووجه شاحب، ضاغطاً نفسه على الأثاث وكأنه يخشى أن يلتهمه شبح. قال دي: «جيانج، هل تتذكرني؟ هل ستخرج؟».

بعد لحظة طويلة من التحديق الصامت، بدأ جيانج يتحرك ببطء إلى الأمام. توقف، ثم تقدم بضع خطوات، وتوقف مرة أخرى، وأخيراً خرج ببطء من تحت المذبح ووقف على قدميه.

قال دي: «الآن، يا جيانج». لكن جاء من خلفه صوت جهير لرجل مقنع يندفع من ظلال باب المذبح. كان يرتدي سترة وسروالاً فضفاضين باللون الأسود، وقفازات جلدية كبيرة تخص العمال. واستمر في زئيره المخيف وهو يركض نحونا، ممسكاً بسيف مرفوع عالياً. انحنى دي، دافعاً بكتفه إلى ركة الرجل المسلح بالسيف، فسقط الرجل بسبب قوة دفعه الذاتي.

ركض جيانج في المرر كفأر يطارده قط. صاح دي بصوت عالٍ وهو منشغل في صراعه مع المبارز المقنع: «أوقفه!».

مددت قدمي لأعرق جيانج في أثناء مروره بجانبني. نجحت في ذلك، لكنه أسقطني معه ووقعنا معاً على الأرض نتدحرج كالنرد. قفز جيانج بسرعة ناظرًا يمينًا ويسارًا، ثم اندفع تحت أحد المقاعد.

اخترق صوت صافرة الشرطي الهواء.

- قفوا مكانكم! قفوا مكانكم! توقفوا جميعاً!

اندفع الشرطي نحونا وهو ينفخ في صفارته ويلوح بعصاه.

- توقفوا باسم الملك، أيها الأوغاد، وإلا سأحطم رؤوسكم!

رأيت جيانج يظهر من بين المقاعد ويجري في ممر جانبي. انطلقت خلفه محاولاً في الوقت نفسه التملص من الشرطي الذي بدا أنه قرر أننا جميعاً مذنبون ويجب إيقافنا بغض النظر عما كنا نفعله.

انحرف جيانج بين المقاعد بينما وصلت إلى الممر. تبعته عن كثب. قفز على أحد المقاعد ووقف على ظهره، ثم قفز إلى ظهر المقعد التالي. أخذت نفساً عميقاً وتبعته مقلداً حركاته. كنا نقفز مثل القطط من ظهر مقعد إلى آخر، حتى قرر الشرطي أن يجرب هذه الطريقة أيضاً. كان الشرطي ضخم البنية، وكما هو حال الكثيرين، كان أخرق. في أول قفزة له، تسبب في تحطم مدوّ عندما ترنح المقعد الذي هبط عليه وسقط على المقعد الذي خلفه. وللأسف، كان ذلك المقعد هو الذي أقف عليه. فقدت توازني وطرقت في الهواء. وبما أنني لست دي، لم أهبط على قدمي.

نظرت إلى أعلى لأرى دي يندفع في الممر. صرخت: «دي!». بالكاد في الوقت المناسب لتحذيره من الخطر الذي رأيته. استولى المبارز المقنع على شمعدان فضي من المذبح وألقاه باتجاه رأس دي.

انحنى دي، تدرج، ونهض مرة أخرى قبل أن يصطدم الشمعدان بالأرض. لكن هذا التأخير القصير أتاح للشرطي اللحاق بجيانج، الذي يبدو أنه سقط أيضاً عندما حولت قفزة الشرطي المقاعد إلى قطع دومينو متساقطة. نهض جيانج للتو عندما أمسك به الشرطي وأحكم قبضته، واضعاً عصاه على رقبتة. حاول جيانج بكل قوته الإفلات.

اقترب دي قائلاً: «أيها الشرطي، خفف قبضتك. جيانج...».

لكن عندما التقت عيني جيانج بدي، تردد صراخ غير طبيعي في المكان المقدس. اندفع المبارز المقنع بسرعة في الممر. ترك الشرطي

قبضته والتفت لمواجهته، لكن المبارز دفع الشرطي جانبًا وطعن جيانج.

وقفت مصدومًا. استدار دي للإمساك بالمبارز، لكن جيانج، الذي أصيب بجروح قاتلة، سقط على الأرض بينهما. قفز دي فوقه، ثم اضطر إلى الانحناء لتفادي سلاح المبارز -الداو القصير- الذي طار نحوه. وبينما دفع المبارز أثاث المذبح والشمعات في طريقه، اختفى عبر باب الكنيسة.

قفزت لأتبعه. حاول دي اللحاق به، لكن صوتًا ضعيفًا ناداه من الأرض. قال لي دي: «اذهب!»، ثم ركع بجانب جيانج.

عندما اندفعت إلى غرفة الكنيسة، لم أرَ شيئًا ولا أحدًا. وبينما أسرع نحو الباب المؤدي إلى ساحة الكنيسة، خرج القس روبرت إيفانز من مكتبه قائلاً: «ماذا حدث؟ سمعت ضجيجًا كبيرًا!».

دون أن أجيبه، اندفعت خارج الباب. كانت ساحة الكنيسة، باستثناء شواهد القبور وأشجار الظل وزقزقة الطيور، خالية تمامًا.

ركضت عائدًا إلى الكنيسة. صرخت للشرطي: «لقد هرب! لقد هرب! اجمع الرجال الآخرين! اذهبوا وراءه!».

جاء القس إيفانز خلفي مباشرةً. قال: «ماذا حدث؟ أنا... (ثم وقف مذهولًا من الرعب، مشاهدًا المنظر أمامه) هل مات هذا الرجل؟».

عند الكلمة الأخيرة، رفع جيانج ذراعه بصعوبة بينما تدفق دمه بغزارة على الأرضية الرخامية.

قال دي بغضب وهو ينحني فوق الرجل المحتضر: «ليس بعد. جيانج، هل يمكنك أن تخبرنا بشيء يساعدنا في الانتقام لك؟».

لم أتمكن من رؤية ما إذا كان جيانج قد رد، ففي تلك اللحظة انفتح باب الكنيسة مرة أخرى. اندفع الكابتن بارد ومعه اثنان من رجال الشرطة في الممر. صرخ بارد: «ماذا حدث؟ أين المهاجم؟ هل سمحتم له بالهرب؟».

قفز دي على قدميه قائلاً: «سمحنا له بالهرب؟ كدنا نمسك به لولا تقصير رجالك. أفكر في...».

أمسكت بدي بينما اندفع نحو بارد. همست في أذنه: «لا! هذه ليست الطريقة!». دفعني بعيداً محدقاً إلى المفتش، لكنه لم يحاول مهاجمته مرة أخرى.

توقف بارد وكأنه تجمد في مكانه، ناظرًا بدهشة. قال أخيراً: «دي رين جيه؟ هنا في لندن؟ (ابتسم بارد، وكانت ابتسامته غير مريحة) وفي وسط قضية تتعلق بمقتل صينيين؟».

اشتعلت عيناً دي غضباً لكنه لم يرد.

- حسناً، هذه مفاجأة.

نظر بارد إلى دي من أعلى إلى أسفل، ثم حول انتباهه إليّ ببطء.

- ومن تكون أنت؟

أجبت رافعاً ذقني: «لاو شيه. أنا محاضر في الجامعة».

- حقاً؟

لم يكن صوت بارد متشككاً بقدر ما كان مستهيناً. بدا وكأنه يقول إنني قد أكون محاضراً بالفعل، ولكن بما أنني صيني، فلا يمكن لأي محاضرة ألقاها أن تكون ذات قيمة. عاد بنظره إلى دي وهز رأسه، راسماً ابتسامة صغيرة أخرى.

- دي رين جيه. حسنًا، حسنًا. الآن. ستبقيان هنا بينما أحقق في هذه الوفاة. اجلسا، أيها السادة، سيستغرق هذا الأمر بعض الوقت. ثم سنعود جميعًا إلى المحطة معًا ونحظى بفرصة للحديث مطولاً. (ثم قال لشرطيه بنبرة حادة): راقبهما. إذا حاولا الهرب، استخدم عصاك.

ركع بارد بجانب جيانج، الذي أضى وجهه الآن شاحبًا وعيناه محدقتين كحال الجثث. بقينا أنا ودي في مكاننا. رمقنا الشرطي بنظرة صارمة، لكنه لم يحاول إجبارنا على الجلوس كما أمر بارد.

سألت بهدوء: «دي، هل أخبرك جيانج بأي شيء قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة؟».

حول دي نظراته الغاضبة نحوي مجيبًا: «نعم. نعم، أخبرني».

- ماذا قال؟

أجاب دي وهو يعدل ملابسه التي أصبحت غير مرتبة: «قال إن كل شيء بسبب الصور».



الفصل السابع والعشرون

مكتبة

t.me/soramnqraa

همست: «الصور؟ إنها بسبب الصور؟ ماذا يمكن أن يعني ذلك؟».

- لا أعلم.

وجه دي نظرة طويلة إلى القس إيفانز، الذي جلس بثقل على أحد المقاعد. حدق رجل الدين بعينين مفتوحتين على مصراعيهما إلى ما حدث للتو على أرض كنيسته المقدسة.

أردف دي متقدماً نحو القس: «لكنني أعلم هذا. أنت، أيها القس إيفانز، كنت تعلم بوجود جيانج جوان لي هنا».

استدار القس إيفانز نحو دي.

- أنا... أنا آسف، ماذا قلت؟

قال دي بصوت أعلى: «شخص ما نبه القاتل إلى مكان جيانج. من يمكن أن يكون، إن لم تكن أنت؟».

تلعثم القس قائلاً: «لكن، لكن كل من حضر جلسة الشاي في البعثة رأى هذا الرجل يركض إلى الداخل».

أجاب دي بغضب: «لا أحد يعرف من هو إلا أنت».

- أنا؟ لم أكن أعرف! من هو هذا الرجل المسكين؟ (أشار إيفانز بيده

إلى جيانج بارتباك) كان يطلب اللجوء. إنه واجبي المسيحي...

صاح دي ملقياً بنفسه على القس: «واجبك المسيحي!».

- دي! توقف!

أمسكت بكتفي دي وسحبته بعيداً. كان ذلك دليلاً على ضعف حالة

دي منه على قوتي.

- توقف عن هذا فوراً! أنت لا تتصرف بعقلانية!

رد دي بغضب: «العقلانية لم تثبت نفسها كصفة قيمة في هذه

القضية حتى الآن! وبالنسبة إليك، يا لاو، تظهر حقيقتك في مثل هذه

الظروف. تقف مرة أخرى إلى جانب البريطاني ضد مواطنك».

قلت: «مواطني يتصرف بشكل مخزٍ. ما السبب الذي يمكن أن يكون

لدى القس إيفانز لتنبيه القاتل إلى مكان جيانج؟».

- السبب بالتأكيد هو المال. إنه دائماً المال، إلا إذا كانت هناك كراهية

شخصية.

نظر مرة أخرى إلى القس بنظرة غاضبة.

- إذا كنت تفكر في مهاجمة ذلك الرجل مرة أخرى، أنصحك بعدم

فعل ذلك. (جاء الصوت من المفتش بارد، الذي كان واقفاً ويشير

إلى دي بيده الملفوفة) ليس لدي سبب للاعتقاد بأنك لم ترتكب

هذه الجريمة بنفسك.

رد دي بنظرة حادة قائلاً: «ما لديك، يا كابتن بارد، كما هو الحال دائماً، ليس سبباً على الإطلاق».

قفز دي بخفة على ظهر أحد المقاعد. ومن هناك انطلق للأعلى. طار عالياً في الهواء، ووصل إلى إحدى الثريات التي تختفي سلاسلها في ظلام سقف كنيسة القديس جورج العالي. حبست أنفاسي عندما انزلت أصابع يده اليسرى، لكن تمكنت يده اليمنى من الإمساك بها. أصدرت الثريا صوتاً مقلقاً بينما كانت تتأرجح ذهاباً وإياباً.

صاح بارد: «انزل! دي! (ثم التفت نحو القس قائلاً): «أيها القس! أين آلية إنزال الثريا؟ أيها الشرطي، اقطع الحبل!».

بناءً على أوامر بارد، ركض أحد رجال الشرطة إلى السلالم المؤدية إلى منصة الجوقة للبحث عن الحبال المستخدمة في إنزال الثريات. وقف شرطي آخر، بعصاه، تحت الثريا منتظراً أن يسقط دي، سواء مع الثريا أو من دونها.

لكن دي كان لديه خطط أخرى. بدأ في تحريك ساقيه، مؤرجحاً إياهما إلى الأمام ثم إلى الخلف، ثم إلى الأمام مرة أخرى. أصبح قوس تأرجح الثريا أعلى وأوسع. بعد ثالث حركة، ترك دي الثريا وطار إلى الواجهة العلوية فوق الأعمدة عند المدخل.

ترنح. فصرخت متأكداً من أنه على وشك السقوط: «دي!».

لكن لا، استعاد توازنه، وانزلق بقدميه على الحافة الضيقة، وعندما وصل إلى نافذة دائرية ذات الزجاج المعشق التي تصور التنين (حيث كان القديس جورج نفسه على الحائط المقابل)، فتحها وانزلق إلى الخارج.

زأر بارد: «لاحقوه!».

اندفع شرطيان في الممر وراء دي، رغم أنه كان واضحًا بالنسبة إليّ على الأقل، أنه لا أمل لهما في الإمساك به. هرعنا إلى الخارج، وتبعهما بارد.

مع تناقص عدد رجال الشرطة وذهاب بارد، لتمكنت أيضًا من الهروب. ولكن نظرًا إلى أن المفتش يعرف اسمي، ومكان إقامتي في لندن ليس سرًا، بدا أن البقاء وادعاء الجهل هو الخيار الأذكى.

بحثت عن قبعتي حتى وجدتها، ثم جلست على مقعد بعيدًا عن أذان القس إيفانز. ما زال القس في حالة صدمة، ولكنني رأيت أنه من الأفضل تجنب إمكانية تصحيح أي رد قد أقدمه في أثناء استجواب المفتش بارد. انتظرت بهدوء وصبر حتى عاد بارد واقترب مني.

ردًا على مطالب المفتش الصارخة بأن أخبره بمكان دي، وأين يقيم، وماذا يفعل في لندن، أجبت بما يلي: (1) ليس لدي أي فكرة؛ (2) حسب معرفتي، إقامته الحالية في سويسرا؛ و(3) مجددًا، ليس لدي أي فكرة. كانت إجاباتي على هذه الأسئلة كلها صادقة، إلا أن الردين الثاني والثالث حملا بعض التلاعب، إذ اخترت تفسيرهما بشكل حرفي أكثر مما قد يكون مقصودًا. نعم، أقام دي في غرفتي حاليًا، لكنه لا يمكن اعتباره مقيمًا دائمًا هناك؛ وبما أنني في تلك اللحظة لم أكن أعرف حقًا مكانه في لندن، فلم أكن أعلم أيضًا ما الذي يفعله.

قلت: «لقد قابلت هذا الرجل للتو». أدركت أن هذا التصريح قد يوحي بأنني تعرفت على دي قبل ساعة، وليس قبل أسبوع، لكنني اعتبرت أن الأمر يعود إلى الكابتن بارد لطلب التوضيح.

لم يفعل، بل سأل بغضب: «ماذا كنتما تفعلان في كنيسة القديس جورج؟».

- دي هو مواطني. طلب مني أن أريه بعض معالم لندن.

- وصادف أن اخترت هذه الكنيسة، حيث قُتل رجل صيني أمام عينيك؟

- أنا عضو في هذه الجماعة. أعتبر هذه الكنيسة جديرة بالزيارة. لديها، في النهاية، تمثال للملك جورج الأول على قمة البرج. على أي حال، أعذك أيها المفتش، لو كنت أعلم بحدوث جريمة قتل هنا، لنظمت يومنا بشكل مختلف.

قصدت بذلك أنني كنت سأطور خطة لمنعها، لكنني تركت المفتش يعتقد ما يشاء. تابعت قائلاً: «هل يمكنني تقديم شهادتي؟ لدي مسؤوليات في الجامعة. هذه بطاقتي. يمكنك بالطبع الاتصال بي إذا احتجت إلى أي شيء آخر».

لم يبدو بارد سعيداً، لكنه لم يجد سبباً للشكوى من تعاوني. استدعى أحد رجال الشرطة المتبقين، وأوضح أحداث المطاردة والقتل بدقة. سأل الشرطي، وقد حمل صوته المزيد من الأمل المرهق أكثر من التوقع المتحمس: «ولم ترَ أين ذهب المبارز؟».

- صعد إلى الممر وخرج من الكنيسة. بعد ذلك، لا. تبعه ضابط لكنه عاد خالي الوفاض.

ظل الشرطي يراقبني بإخلاص في أثناء إبلاغ المفتش بارد بأن إفادتي قد اكتملت. وبالرغم من أن بارد كان واضحاً عليه التردد في السماح لي بالمغادرة، لم يكن لديه سبب ليطلب غير ذلك. ذهبت للجلوس بجانب القس إيفانز قبل أن أغادر. قلت بهدوء: «سيدي، هل أنت بخير تماماً؟».

قال تلقائياً: «نعم، يا لاو. (ثم أضاف): لا. لا، لست بخير. هذا النوع من الأمور... لا، لا يمكن تحمله على الإطلاق».

قلت: «لا، بالطبع لا. سيدي، لدي طلب واحد فقط».

نظر إليّ بوجه خالٍ من التعبيرات.

تابعت: «سيتمكن القاضي دي من الوصول إلى جوهر هذه القضية أسرع من شرطة العاصمة. لكن هذا لن يحدث إلا إذا ترك حراً ليقوم بذلك. هناك قدر من العداوة بين القاضي دي والمفتش بارد».

حول إيفانز نظره إلى بارد، الذي كان جاثياً بجانب الطبيب الشرعي الذي وصل حديثاً بجوار جثة جيانج.

- حقاً؟

أجبت: «نعم. سأكون ممتناً جداً إذا لم تذكر زيارتنا لك هنا في وقت سابق. معرفة أنني ودي جننا هنا معاً لن تكون ذات فائدة لشرطة العاصمة وستعوق عمل دي».

لم أذكر له أن هذا سيعوقني أيضاً في رغبتني في البقاء بعيداً عن المتاعب، كما أخبرت القس سابقاً، لكنني لم أخبر المفتش الآن، أن دي يقيم في غرفتي في منزل آل ويندل.

قال إيفانز بغموض: «فهمت، لا يجب أن أذكر رؤيتكما في وقت سابق. فهمت».

- نعم، شكراً لك.

لم أكن متأكداً سواء فهم القس إيفانز طلبي بالكامل أو نوى الامتثال له. ومع ذلك، في تلك اللحظة، لاحظ بارد وجودي وهو يرفع رأسه. رمقني بنظرة شك، وأنا الذي كنت متلهفاً للمغادرة. قلت لإيفانز: «اعتنِ بنفسك، يا سيدي». ثم، بعد أن عدلت قبعتي، وقفت وسرت في ممر الكنيسة كأنني رجل لديه مكان ليذهب إليه.



الفصل الثامن والعشرون

ما قمت به شخصياً في الساعات التالية ستعرفه في الوقت المناسب. ظهوري في هذا السرد سيكون موجزاً، ولكن في الوقت الحالي، أدعوك لمتابعة تقدم دي، كما نُقل لي عندما التقيته لاحقاً.

لم يهبط دي من نافذة التنين إلى رواق الكنيسة، بل اختبأ خلف قمة عمود حتى وصل رجال الشرطة إلى الرصيف. عندها فقط خرج من مخبئه. تسلق سقف الكنيسة وعبره، ثم قفز من الجانب الآخر إلى سطح مبنى البعثة. في هذه الأثناء، توقف رجال الشرطة، في حيرة من أمرهم، على الرصيف يبحثان في كل اتجاه. ألصق دي جسده بألواح الأرذواز التي تغطي السطح، ومنع نفسه من الانزلاق ممسكاً بالحافة، واقتلع قطعة حجر مفككة من السقف (كما ذكرت سابقاً، كان مبنى البعثة في حالة سيئة). استهدف بها أحد شواهد القبور وأصاب هدفه بدقة. عندما

سمع رجال الشرطة الصوت، انطلقوا نحو مصدره. شاهد دي وصولهما إلى تلك العلامة دون أن يجدا شيئاً، لكنهما، كما خطط، استنتجا أن هدفهم ذهب في ذلك الاتجاه. اندفعا متجاوزين القبر وخرجا إلى الشارع. بعد لحظة، اتجه أحدهم يساراً والآخر يميناً.

هبط دي بهدوء من على السقف، وتسلسل من شاهد قبر إلى آخر، وعند وصوله إلى بوابة المقبرة، لم يذهب لا إلى اليسار ولا إلى اليمين، بل عبر الطريق مباشرة. انطلق إلى زقاق، وقفز فوق سياج -مفزعاً خادمة كانت تنشر الغسيل- وخرج من الزقاق المقابل إلى الشارع التالي، حيث واصل الاندفاع بسرعة كبيرة.

هل كان اندفاع دي بسرعة على الرصيف محاولة للتملص من رجال الشرطة في حال أدركوا خطأهم وعادوا؟ للأسف، لم يكن الأمر كذلك. سبب له التعب البدني الناتج عن محاولته للتوقف عن تعاطي الأفيون -من حكة الجلد، وآلام العضلات، والتعرق في الجبهة، وتقلصات المعدة- ضيقاً شديداً بعد أن زال تأثير إكسبير هونج وإثارة الحركة. أضف إلى ذلك غضبه واشمئزازه من فشله في حل جريمة قتل ما، ومنع وقوع المصير نفسه لآخرين من رفاقه السابقين؛ وغضبه من عدم كفاءة شرطة العاصمة، ونفاق الكنيسة الأنجليكانية، والغفلة المرضية للشعب البريطاني بأسره؛ كل ذلك جعله يشعر أن هناك طريقاً واحداً فقط مفتوحاً أمامه.

اندفع إلى لايمهاوس بحثاً عن وكر للأفيون.

المكان الوحيد الذي كان يعرفه هو ذلك الذي يديره تشين بنج دا، لكنه لم يذهب إلى هناك، لأنه حتى في حالته المنهكة أدرك أن وجوده لن يكون مرحباً به. بدلاً من ذلك، عند وصوله إلى المنطقة، اضطر إلى البحث في الأزقة الضيقة عن مكان آخر. لم يعرف بالضبط أين يبحث،

لكن الحقيقة المؤسفة هي أن العديد من سكان لايمهاوس استطاعوا بسهولة التعرف على شخص يحتاج إلى ما يبحث دي عنه. سرعان ما وُجه إلى مجموعة من الغرف في قبو. دفع بعض النقود، واستقر على أريكة، طالباً أنبوب أفيون، وعندما انتهى منه، طلب واحداً آخر.

أسدل الظلام أستاره بالكامل عندما نهض دي من على أريكة الأفيون وشق طريقه عبر شوارع لندن. وهنا أعيد دخولي إلى هذه القصة لفترة وجيزة.

تناولت العشاء في منزل آل ويندل كالمتعاد. هزنتني أحداث اليوم، ووجدت نفسي مشغولاً بأسئلة حول مكان دي وما يفعله؛ هل تمكن بالفعل من الهرب من قبضة شرطة العاصمة، أم أنه الآن محتجز في زنزانة المفتش بارد ويحتاج إلى الإنقاذ مرة أخرى؟ وأيضاً السؤال الأكبر: إذا لم يكن جيانج هو القاتل، بل آخر الضحايا، فمن هو الشخص الذي يقتل هؤلاء الرجال؟

حاولت إخفاء مخاوفي عن السيدتين، اللتين كانتا منغمستين في مناقشة حادثة وقعت في محل القبعات. في تلك الحادثة، استهزأت شابة جميلة بمحاولات تودد رفيقها الوسيم، حتى اشترى لها قبعة كانت معجبة بها. عندها تغير موقفها وغادرا المتجر متشابكي الأذرع.

بعد العشاء، احتسينا القهوة في الصالون. تحول اهتمام السيدتان بعد ذلك إلى كيفية قضائي ليومي. فكرت في نفسي: لو تعلمان فقط ما حدث. لكنني رويت لهما يوماً مختلفاً ربما قضيته في وقت آخر مع مواطن آخر، وأنا أستكشف لندن.

عندما اقتربت من نهاية قصتي، أعلن صوت مفتاح يدور ومقبض الباب الأمامي وهو يهتز عن وصول دي إلى المنزل، لكنه لسبب ما لم يتمكن من دخول المنزل.

أدركت بفطنتي السبب.

قفزت على قدمي آملًا أن أكون مخطئًا، وذهبت لفتح الباب. نهضت ماري من كرسيها وتبعنتني.

لم أكن مخطئًا. وقف دي عند عتبة الباب، دون قبعته، معطفه مفتوح، ربطة عنقه مرتخية، وشعره في حالة من الفوضى.

قال دي متلعثمًا: «آه، عزيزي لاو». (حرق إليّ بعينين مشتتتين) لم أستطع... مفتاحي، ترى... سأذهب إلى الأعلى الآن». بينما كان يحاول المرور بجانبه متعثراً، سمعت شهقة ماري من خلفي.

قلت: «دي، لا يمكنك الدخول. يا إلهي، رائحتك تفوح بالآفيون».

شم دي ذراعه وضحك قائلاً: «يبدو كذلك. أعتقد أن هذه البذلة تحتاج إلى تنظيف. الآن، من فضلك، تنحّ جانباً».

أجبت بحزم: «لن أفعل».

قال دي: «بربك يا لاو، هذا ليس الوقت المناسب للألعاب السخيفة. أحتاج إلى الاستلقاء».

- لا توجد ألعاب هنا. لا يمكنك الدخول إلى هذا المنزل. اذهب إلى مكان آخر حتى يصفو ذهنك. أنت عار علينا!

أغلقت الباب في وجهه المندهش وأدّرت القفل. عندما التفت إلى ماري، كانت شاحبة الوجه. سألت: «ماذا حدث للسيد دي؟».

كنت قد استخدمت الكلمة بالفعل، ولم يكن لدي شك أن ماري قد سمعتها. لم أجد طريقاً آخر سوى قول الحقيقة.

- دي، أخشى أن يكون -أخذت بمرفق ماري وقدتها إلى مقعدها في الصالون- قد تعاطى الأفيون.

بدت ماري مصدومة، ووالدتها مذهولة.

صاحت السيدة ويندل، وعيناها الكبيرتان مستديرتان كعملتي نقود: «أفيون!». «أفيون!».

قالت ماري بهدوء، وهي تجلس وتنظر إلى يديها في حجرها: «يا للأسف، لم أكن لأعتقد ذلك عنه. لا، لم أكن لأفعل».

قالت الأم: «ولا أنا! بدا رجلاً محترماً للغاية. إنه قاضٍ، بعد كل شيء. عبست ونظرت إليّ بحدة) ولكن هذا يقودني إلى سؤال آخر. سيد لاو، عندما جئت إلى هنا وعدتنا بأن الأفيون ليس من الرذائل التي تنغمس فيها».

أجبت مطمئناً: «ولا هو كذلك، أؤكد لك. وقوع دي ضحية لإغراء الأفيون أمر مروع، لكنني لا علاقة لي بالأمر. كما رأيت، رفضت دخوله». لكنها لم تهدأ.

- أعلمت بعبادته هذه عندما طلبت السماح له بمشاركة غرفتك؟ أجبت: «لم أكن أعلم بذلك، أعطيتك كلمتي. وأتمنى أن تعرفي أنني رجل يمكنك الاعتماد على كلمته».

تجهمت ملامح السيدة ويندل، لكن رفعت ماري عينيها لتلتقي بعيني. ابتسمت لي ابتسامة باهتة فغمرني شعور بالسعادة. قالت: «نعم، يا سيد لاو. أنا واثقة تماماً من ذلك».



الفصل التاسع والعشرون

وماذا عن دي؟

بعد أن رُفض دخوله في منزل آل ويندل، ماذا حل به؟

تجول دي في شوارع لندن بلا هدف.

في بعض الأحيان لم يكن متأكدًا تمامًا من مكانه. وفي أوقات أخرى عرف المكان بدقة، رغم أنه لم يستطع أن يقول كيف وصل إليه. عندما خرج زوج من الأشقياء من زقاق، ضحك دي ليجد نفسه في أزقة هوتونج في بكين. تخيل أنهم نادوه بـ«رجل الراية» بنبرة مزدرية. رغم أنني، وليس دي، من كان من شعب المانشو، فإنه دافع بشدة عن أسلافي المظلومين ورد عليهم باللغة الإنجليزية قائلاً إنه يأسف لعدم مخاطبتهم بلغتهما الأم، لكنهما كانا قبيحين لدرجة لم يتمكن معها من معرفة إن كانا ألمانًا أم فرنسيين. على الرغم من أن طبيعة الإهانة كانت محيرة لهما، فإنهما أدركا أنها إهانة وهاجماه. لحسن الحظ، لم

يكونا مقاتلين مدربين، لأنه لو كانا كذلك، لما استطاع دي في حالته تلك التغلب عليهما. لكنه في النهاية تمكن من التصدي لهما.

كان متفاجئاً ومذعوراً، وهو يتعثر مبتعداً عن تلك المواجهة، ليكتشف أنه عاد إلى ساحات القتال في فرنسا. تعالت صرخات الجرحى طالبين للمساعدة، وانفجرت القذائف من حوله، وعوت صفارات الإنذار بصخب، لكنه مهما بذل من جهد، لم يتمكن من العثور على موقع المعركة. ركض في كل اتجاه، لكن بدا القتال دائماً كأنه يتعقبه من خلفه.

شعر بارتياح كبير عندما وجد نفسه فجأة وقد عاد إلى لندن، لكن ما زي رين ظهر من الضباب، مكرراً ثلاث مرات: «زوجتي المسكينة أرملة، زوجتي المسكينة»، قبل أن يتحول إلى وه سونج، الذي قدم لدي أنبوب أفيون. وعندما مد يده ليأخذه، تحول وه إلى الممرضة البريطانية التي كانت أول من قدمت الأفيون لدي. ابتسمت ثم اختفت، حاملةً معها الأنبوب.

في وقت لاحق، في مكان آخر، تعثر دي بجثة جيانج جوان لي، ممددة على الرصيف. استدار ليسير في الاتجاه الآخر، لكنه وجد جثة جيانج هناك مرة أخرى. ظهر جيانج في كل اتجاه يتجه إليه، دائماً في الوضعية التي مات بها. وأخيراً، في يأسه، تحدى دي الجثة قائلاً: «كيف يمكنك التحرك بهذه السرعة؟» ارتفعت جثة جيانج في الهواء ضاحكة قائلة: «إنه بسبب الصور».

دوت صرخة: «دي رين جيه!». رفع دي عنقه باحثاً في الظلام فوق رأسه. وقف المفتش بارد، مرتدياً زيه الرسمي البريطاني، بطول عشرين قدماً، رافعاً سوطه ليضرب عاملاً صينياً يئن. طار دي نحو السماء ليوقف ذراعه. قبل أن يصل إليه، صاح بارد: «لماذا أتيت إلى لندن؟ ظننت أنني تخلصت منك! لكن هذه المرة لن توقفني». ثم اختفى.

سقط دي من السماء، وهبط على العشب عند حافة منتزه. انحنى بالقرب منه وجه امرأة بريطانية. ظن أنها أرملة مآ، وحاول أن ينطق باسمها، لكنه لم يتمكن من إصدار أي صوت. انكمش وجهها المذعور بسرعة وهربت عابرة الشارع إلى فم وحش عملاق.

سمع صوتاً يناديه مرة أخرى: «دي رين جيه!». ولكن هذه المرة لم يكن الصوت قادماً من المفتش بارد. كان صوت المفوض لين، وبدأ دي يرتجف. جلس لين مرة أخرى على كرسي القاضي المرتفع، مشيراً بإصبع صارم نحو دي وهو يقول: «لقد تجاهلت أوامري».

كما حدث مع أرملة مآ، حاول دي أن يتحدث لكنه لم يستطع.

أردف المفوض لين بحزم: «جعلك الأفيون عديم الفائدة. أيها القاضي دي، أشعر بالخجل من أجلك. أن تكون منتشياً لدرجة أنك لا تستطيع رؤية ما حدث أمام عينيك!».

بدأ دي في الاحتجاج بضعف، لكن المفوض لين، مثل كل الآخرين الذين رأهم تلك الليلة، اختفى في الضباب.

وظل دي، مستلقياً على العشب، مغشياً عليه.



الفصل الثلاثون

للمرة الثانية، استيقظ دي مع بزوغ الفجر ليجد نفسه متصلبًا ومتجمدًا وفي مكان غريب. شعر بأحاسيس غير مريحة علم أنها بداية أعراض انسحاب خطيرة بسبب الإفراط في تعاطي الأفيون. عرف أيضًا أن الطريقة الوحيدة لتخفيف الآلام القادمة هي أن ينهض، ويتحرك، ويستمر في الحركة.

تعثّر دي وهو يحاول الوقوف، مترنحًا من الحديقة إلى الرصيف، وأخذ يحدق حوله ليكتشف أن المنطقة مألوفة لديه. كان في مايفير؛ وإذا لم يخطئ، فإن منزل الكولونيل ليفينجستون مور، الذي اشترى محتويات متجر ما، على الجانب الآخر من الشارع. لم يُكنّ دي أي اهتمام بالكولونيل مور في تلك اللحظة، ولا رغبة له في أن يراه الكولونيل في حالته المزرية تلك. لكنه شعر بالارتياح لاستعادته إدراك موقعه.

بعد بضعة شوارع، بالقرب من موقع بناء قيد الإنشاء، وجد دي المترنج عربية شاي مخصصة للعمال. أخذ كوبًا، وطلب ثلاث ملاعق من السكر من البائع الشاب الذي غمز قائلاً: «ليلة حافلة، إذا؟».

لم يرد دي، لكنه اشترى كوبًا ثانيًا من الشاي نفسه. شعر ببعض التحسن، فأعاد الكوب المكسورة حافته إلى الشاب ليغسله في ماء الشطف الفاتر، ثم واصل سيره.

وللمرة الثانية، وصل إلى متجر الرقيب هونج في حالة يُرثى لها. رفع هونج نظره من دفتر الحسابات قائلاً: «دي!». وعلى الفور، دار حول المنضدة ليغلق الباب ويقلب اللافتة إلى «مغلق» وهو يردف: «ليس مرة أخرى؟».

أجاب دي وهو يجلس على مقعد: «مرة أخرى، يا هونج. أرجوك، لا تكرر عليّ حججك لهذه الرذيلة. لقد رددتها كلها على نفسي في طريقي إلى هنا. أرجوك، أحتاج إلى كوب من الشاي وحقيبة جاك النطاط الخاصة بي».

- لا يمكن أن تفكر في الخروج بزيك وأنت في هذه الحالة.
- لا أستطيع التفكير في شيء آخر. يجب أن أصل إلى حقيقة ما حدث، يا هونج، وإلا فلن أتمكن من مواجهة أسلافي، أو المفوض لين.

- آه، نعم، المفوض لين. أخبرني لاو أنكما تحدثتما.
- مرتين، يا هونج! إنه يوبخني على تعاطي الأفيون. يتهمني بأنني منتشي لدرجة لا أستطيع رؤية ما حدث أمامي. إذا لم أحل هذه القضية، سأخشى مواجهة المفوض لين في الحياة الآخرة. وكذلك والدي. (نظر دي إلى هونج) ووالدك.

قال هونج، وهو يملأ إبريق الشاي بالأعشاب ويصب الماء الساخن لينقعها: «ظهور المفوض لين في أحلامك ما هو إلا عقلك يخبرك بما تعرفه بالفعل وترفض التصرف بناءً عليه».

- لا شك في ذلك. أو ربما يكون المفوض لين. في جميع الأحوال، يجب أن أواصل عملي.

- اشرب هذا أولاً.

- هل هذا هو المشروب الكريه نفسه الذي أجبرتني على شربه بالأمس؟

- هل أنت في الحالة نفسها التي كنت عليها آنذاك؟

- يا إلهي، يا هونج، منطقتك لا تُحتمل.

لم يرد هونج، بل وقف منتظرًا حتى أنهى دي كوبه. أعاد هونج ملء الكوب، وشربه دي مجددًا، واستمر على هذا المنوال حتى فرغ الإبريق. رغم أن دي لم يكن أكثر ميلًا لتناول مشروب هونج هذه المرة عن المرة الأولى التي تذوقه فيها، فقد اضطر إلى الاعتراف بأنه بمجرد تدفقه إلى جسده، بدأت آلامه وضبابية رؤيته في التلاشي. بعد بضع دقائق، وقف دي، سعيدًا بقدرته على فعل ذلك. قال وهو يصفع جانبيه: «الآن، إذا كنت راضيًا تمامًا عن استعادة قدراتي، فسأكون ممتنًا إذا أعدت لي حقيبتني».

- لست راضيًا.

ورغم ذلك، جلب هونج حقيبة زي دي من تحت المنضدة.

- حسنًا، سأضطر إلى تركك غير راضٍ. جاك النطايط لديه أعمال يجب أن يقوم بها.

اختفى دي في الجزء الخلفي من المتجر وعاد مرتدياً زي الشخصية السوداء الشريرة.

- الآن، أيها الرقيب هونج، أخبرني: هل أحرزت أي تقدم في العثور على الكابتن لو؟

- يؤسفني أن أقول إنه لم يحدث.

- في هذه الحالة، وجهتي واضحة. بما أن الكابتن لو واحد من العضوين المتبقيين في مجموعة التونتين، فمن المنطقي -أترى، يا هونج؟ يمكنني أن أكون عقلانياً أيضاً- الافتراض بأن الآخر، شين شياو، ابن التاجر الكسول قليل الانتباه، وزوج المرأة الهندية الغاضبة، إما أنه القاتل، وإما أنه سيكون الضحية التالية.

بعد أن فتح الباب، نظر دي إلى الشارع ليتأكد من أنه فارغ. ارتدى قناعه وركض إلى المبنى المقابل، حيث أمسك بأنبوب الصرف، وتأرجح إلى السطح، واختفى مبتعداً.

من سطح إلى عمود إنارة إلى زقاق، ثم العودة إلى السطح مرة أخرى، شق دي طريقه بعزم نحو منزل شين شياو، رغم الصداق وآلام الأطراف المتعبة. إذا كان شين هو القاتل، فستكون وجهته التالية منزل الكابتن لو للقضاء على آخر عضو في التونتين سواه. كيف سيتمكن شين من العثور على لو حيث فشل هونج، وكيف عرف هوية الأعضاء الآخرين في التونتين، تلك أسئلة عجز عن إجابتها عقل دي الذي لم يتخلص تماماً من ضبابية الأفق. لكنه ليس وقت التأمل الآن، بل العمل.

وأيضاً، اعترف دي على مضض ولكن بحزم لنفسه، أنه من الممكن أن يكون القاتل هو الكابتن لو. في هذه الحالة، سيكون لو هو من سيصل قريباً إلى منزل شين.

وصل دي إلى سطح مقابل لمنزل شين، حيث وجد شرطياً متمركزاً عند الباب. شعر دي بارتياح قائم عندما أدرك أن المفتش بارد أخذ تحذير جاك النطاط على محمل الجد. وقف دي على حافة السطح، وحرملته ترفرف خلفه، حتى أدرك أن الشرطي قد يراه ويحاول مطاردته. مثل هذا الفعل سيبعد كلاً من الشرطي ودي نفسه عن مراقبة منزل شين.

جثا دي واستقر في مكانه، مصمماً على ترك عقله ينطلق بلا قيود، يتجول بين حقائق القضية كجريان نهر وسط تضاريس وعرة، حتى يظهر له عنصر جديد ذو أهمية لم يلاحظه من قبل. أمل أن يجعل الوقت الذي يقضيه في مراقبة منزل شين مثمراً بهذه الطريقة، بدلاً من أن يكون انتظاراً مجنوناً وربما عديم الجدوى لظهور القاتل!

هب دي واقفاً. ظهر الرجل المقنع ذو السترة الفضفاضة وقفازات العمال -الرجل من الكنيسة، الذي قتل جيانج- على سطح المنزل المجاور لمنزل شين. اندفع دي نحو أنبوب الصرف وهبط. عندما وصل إلى الأرض، كان القاتل قد اختفى. ركض دي عبر الشارع، صارخاً في الشرطي المذهول لاستدعاء المساعدة. وعندما دوت صفارة الشرطي، فتح دي الباب الأمامي بعنف.



الفصل الحادي والثلاثون

اقتحم دي المكان ليشهد مشهدًا مروّعًا كما كان يخشى. وجد شين شياو ممددًا بلا حراك وسط بركة من الدماء على أرضية الرواق، وعيناه المفتوحتان تحدقان إلى الفراغ، وما زال يبدو عليه الارتباك. أما زوجته، فحدقت عيناه المتسعتان بصدمة ورعب إلى رجل مقنع، يمسك بسيف مغطى بالدماء في يده اليمنى المرتدية قفازًا.

قفز دي فوق الجثة ليضع نفسه بين القاتل والمرأة المذعورة. صاح بها: «اركضي! احملّي أطفالك واهربي!». نظرت المرأة إليه، وإلى قناعه وحرملته، ثم صرخت. بعدها، استدارت واندفعت نحو المطبخ إلى الجزء الخلفي من المنزل.

استدار دي لمواجهة المبارز، ولكنه أصيب بدوار شديد أفقده توازنه. ترنح واصطدم بطاولة جانبية، فتطايرت إطارات الصور وأكواب البورسلين وتحطمت على الأرض. رأى المبارز أنها فرصته، فهجم على

دي بسيفه. بشكل محموم، تلوى دي لتجنب ثلاث ضربات عشوائية. تقدم المبارز ودفع سيفه مباشرة نحو دي. استدار دي إلى يساره بالكاد، فوصلت الضربة إلى حد قريب منه لكنها لم تصبه.

فجأة، وجد دي نفسه مجددًا في ساحة المعركة، حيث الانفجارات في كل مكان، ورائحة غاز الخردل الكثيفة، والجنود بعضهم موتى والبعض الآخر يحتضر، ممدون في الوحل. تعثر دي فوق إحدى تلك الجثث وسقط. وعندما ارتطمت ركبتيه بالأرض، نظر إلى الأعلى.

رفع المبارز نصله لتوجيه طعنة أخيرة.

هز دي رأسه ليستعيد وعيه. لم تكن هذه ساحة المعركة، بل ردهة شين شياو. الجثة كانت لشين، والأرضية لم تكن طينًا ودمًا، بل خشب مغطى بسجادة طويلة.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم أمسك بحواف السجادة وجذبها بقوة هائلة. تسببت قوة جذبه في انقلاب المبارز إلى الخلف، وطار سيفه في الهواء. استقر النصل في ألواح خشب الماهوجني بعمق بوصتين، وارتطم المبارز بقوة بالأرض.

قفز دي على قدميه. لم يكن قادرًا تمامًا على التركيز، لكنه أخفى ذلك عن خصمه بقبضتيه المشدودتين وزئير عالٍ. تدرج المبارز، وانتزع سيفه من الحائط، وبدأ أنه يُقيّم فرصه، ثم انطلق مسرعًا خارج الباب الأمامي.

بعد أن توقف لأخذ نفس عميق لاستعادة توازنه، انتزع دي مظلة من الحامل بجانب الباب واندفع خلف المبارز. كان دي في أفضل حالاته قادرًا على الانسياب بين الحشود كنسيم يمر بين الأغصان. لكن المعركة استنزفته أكثر مما توقع. في أثناء ركضه على الرصيف، اصطدم بكثف رجل أعمال وكاد أن يطيح بصبي يبيع الجرائد. ظهرت مربية تدفع عربة

طفل في طريقه، فلم يكن أمامه خيار سوى القفز في الهواء، أملًا أن يرتفع بما يكفي لتجنب الاصطدام بها. وتجنبها بالفعل، وإن كان بفارق بضع بوصات فقط. عند هبوطه على قدميه، رأى المبارز ينعطف إلى شارع سانت جورج.

وصل دي إلى المكان نفسه بعد لحظات من الرجل. لم يره، فتوقف وضيق عينيه ليمسح المنطقة. على متن حافلة تنطلق من محطتها أمامه، لمحت عيناه حركة خاطفة؛ المبارز، وهو يقفز على متنها.

عندما بدأت الحافلة تتهاوى على الطريق الوعر، زاد دي من سرعته فجأة. قفز من الرصيف إلى غطاء محرك سيارة هيسبانو-سويزا، مما جعل سائقها يفتح فمه من الدهشة عندما رأى دي يقفز من أمام عينيه إلى مؤخرة الحافلة. كادت تنفلت قبضته على العمود القائم بجانب الجزء السفلي من الدرج، لكنه تمكن من التأرجح والصعود إلى متن الحافلة. استعاد توازنه، ودفع نفسه بين الركاب المذهولين في الخلف ليصل إلى الطابق السفلي من الحافلة.

جلس المبارز المقنع متكومًا بجانب نافذة قرب المقدمة، ثابتًا تمامًا، وكأنه يأمل في أن يصبح غير مرئي بعدم تحركه. كان السيف مغمدًا؛ شعر دي بالارتياح لرؤية ذلك، حيث يعني ذلك أن الركاب سيكونون في أمان أكبر عندما يمسك بالرجل.

على الرغم من أن المبارز لم يكن قريبًا من أن يكون غير مرئي، فإن الركاب الآخرين كانوا يتجاهلونه، ربما لاعتقادهم أنه مجرد واحد من العديد من غربيي الأطوار في لندن. لكن الظهور المفاجئ لرجل مقنع آخر بزي غريب بدا أكثر مما يمكن للبعض تحمله. بدأ الاضطراب مع محاولة الركاب الابتعاد بسرعة عن دي.

وجه دي نظرة حازمة عبر الحافلة، مشيراً بيديه للجميع للبقاء هادئين. أشار إلى نفسه ثم إلى المبارز. في روايته لهذه القصة، نسب دي الهدوء السريع للفوضى إلى حس الركاب البريطانيين العاقل، الذين أدركوا فوراً أن أفعاله ستكون لصالحهم. لكنني رأيت تلك النظرة الحازمة بنفسى، وشهدت الهيبة التي يتبناها دي عندما يلائمه ذلك. رغم وجود الزي والقناع، لا أشك في أن هذه الصفات، وليس أي عقلانية بريطانية متأصلة، هي ما جعلت ركاب الحافلة يهدؤون.

بدأ دي يقترب بخطوات حذرة عبر الممر. كان على بعد أربعة صفوف خلف المبارز عندما هبط بائع التذاكر، بعد أن أنهى واجباته في الطابق العلوي، من السلم الأمامي بمرح قائلاً: «التذاكر، من فضلكم».

سلمه الركاب تذاكرهم ليثقبها ويعيدها إليهم. والذين لم يكن معهم تذاكر اشتروا ما يحتاجونه من الدفتر الذي كان بحوزة بائع التذاكر. أما المبارز المقنع، فقد تصرف وكأنه لم يسمع شيئاً.

- تذكرتك، يا سيدي.

حدجه بائع التذاكر بنظرة غريبة، لكنه واصل عمله قائلاً: «إذا لم تكن لديك واحدة، لدي واحدة هنا». ومد الدفتر نحوه.

قفز المبارز فجأة. استل سيفه وقطع الدفتر نصفين. تساقطت أوراق التذاكر على الركاب المذهولين كرقائق الثلج.

- مجنون على متن الحافلة!

صرخ بها بائع التذاكر، لكن في لحظات لم يعد المجنون على متن الحافلة، فقد فتح النافذة على مصراعيها وتأرجح خارجها. كان يضحك بهستيرية، ممسكاً بيد واحدة بحافة النافذة بينما كان يغمد سيفه. مثل عنكبوت بشري، بدأ يتحرك نحو المقدمة.

قفز دي فوق رجل متكوم في الممر وقفز إلى الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي. اندفع بسرعة، أملًا أن يتمكن من إزاحة المبارز من الأعلى وإسقاطه إلى الشارع، لكن عندما وصل إلى الطابق العلوي، كان المبارز قد تسلق فوق الحاجز ووقف في ضوء الشمس، يضحك بينما الحافلة تهتز وتتحرك. مكتبة سر من قرأ

جلس بين دي في المقدمة والمبارز المقنع في الخلف عدد من الركاب. رجل مسن يشخر، وأم تحمل طفلها بين ذراعيها، وفي الممر، صبيان بشعر أحمر يتبارزان بالسيوف الخشبية تحت نظرة متسامحة من مربيتهما.

تبادل دي والمبارز النظرات. قبل أن يتمكن أي منهما من التحرك نحو الآخر، ارتطمت الحافلة بمطب. فقد أحد الصبيين توازنه وسقط على المبارز. صفعه المبارز بقوة بظهر يده وأزاحه جانبًا. شهقت المربية.

ركله الصبي الآخر بشدة في ساقه، غاضبًا من الإهانة التي تعرض لها أخوه. وبينما كان المبارز يمد يده نحو الطفل الأصغر، هبطت مظلة دي بقوة على معصمه، قائلاً بصرامة: «ليس لديك خلاف مع هؤلاء الأطفال. معركتك معي».

انتصّب المبارز مرة أخرى ضاحكًا. استل سيفه واندفع نحو دي. شاهد الطفلان، المحتميان في حضن مربيتهما، بدهشة هذا الثنائي من البالغين المقنعين -أحدهما يرتدي حرمة ترفرف!- يتبادلان المبارزة ذهابًا وإيابًا على طول ممر الحافلة، أحدهما مسلح بسيف والآخر بمظلة فقط.

لوح المبارز بسيفه بجنون، محاولًا النيل من دي. لكنه صد الضربة وانحنى ببراعة، لافًا حرملته في يده الحرة وقذفها ببراعة نحو السيف.

تراجع المبارز سريعاً بعيداً عن مرمى الحرملة. احتضنت المربية طفلها بإحكام، وتراجعت الأم إلى الخلف وهي تحمل طفلها الذي بدأ في البكاء. مر السيف بجانب قبعة الرجل العجوز فقطع قممها. استيقظ الرجل، رمش بعينه للحظة، ثم عاد إلى النوم. وفي تلك اللحظة التي تشوش فيها المبارز بسبب الضربة، استغل دي الفرصة وطعن بمظلته جانب الرجل.

صرخ المبارز متألماً. صدّ دي هجومه التالي وطعنه مرة أخرى. نظر المبارز حوله بجنون، ثم اختطف الطفل من بين ذراعي أمه. صرخت المرأة: «طفلي!». أمسك المبارز الطفل بقوة إلى صدره. قال دي متجمداً في مكانه: «يا لك من شرير! هل أنت جبان إلى هذا الحد لتختبئ خلف رضيع؟».

لف المبارز ذراعه بإحكام حول الطفل الصارخ، ورفع السيف في يده الأخرى، ثم تراجع ببطء في الممر. لم يجرؤ دي على الاقتراب، وشعر بالحافلة تبطئ مع اقترابها من محطة التوقف. مال المبارز إلى يمينه، متفحصاً الحشد على الرصيف. فجأة، وبحركة سريعة، قذف الطفل في الهواء، وكأنه صاروخ موجه فوق رأس دي.

صرخت الأم فزعاً. ألقى دي بمظلته وقفز للأعلى بخفة، فأمسك بالطفل في الهواء. سحبته قوة اندفاع الطفل إلى الخلف، فتشقلب دي في الهواء وهبط برشاقة على مقعد فارغ. انطلق الفتى الأكبر ذو الشعر الأحمر من حضن مربيته، وركض نحو دي وهو يمد ذراعيه قائلاً: «الطفل! أعطني الطفل وأجهز عليه، يا سيدي!».

وضع دي الطفل بين ذراعي الفتى بإيماءة شكر سريعة. استنشق نفساً عميقاً، ثم التفت إلى المبارز. عندما رأى المبارز دي خالي الوفاض، تراجع وأعاد سيفه إلى غمده. أمسك بالحاجز وقفز فوقه. حاول الدخول إلى

الحافلة من نافذة الطابق السفلي، لكن تعالت الصرخات وامتدت الأيدي لدفعه للخارج. وجد نفسه معلقاً فوق السيارات المتحركة في الأسفل.

بخفة ورشاقة استخدمها دي في منزل جيانج من قبل، قفز من مقعد إلى آخر، متوجّهاً بسرعة البرق نحو المبارز. تطلع إلى الأسفل حيث تأرجح عدوه فوق حركة المرور المزدحمة. امتلأت عينا المبارز بياس شديد. مد دي يده نحوه، فتشبث المبارز بها بقوة.

في تلك اللحظة، قطعت شاحنة الطريق مما أجبر الحافلة على التوقف المفاجئ. فقد دي، الذي مال إلى الأمام بالفعل، توازنه. ربما كان بإمكانه استعادة توازنه، حتى مع حالته الضعيفة، لولا أن المبارز، مدرّكاً لفرصته الذهبية، جذب يد دي بقوة. فسقط من فوق الحاجز، بينما دفعه المبارز بعيداً في أثناء سقوطه.

بفضل غريزة ولدت من سنوات التدريب، تمكن دي من تعديل وضعه في الهواء، ليهبط على قدميه ويتدحرج، مما بدد طاقة السقوط. ضرب الأرض بيديه لينهي التدحرج، وحاول أن يقف مجدداً. لكن قدرته المعتادة على التعافي بسرعة خانته بسبب أعراض انسحاب الأفيون. مع نفاد الهواء من رئتيه، استلقى دي على الرصيف شاعراً بدوران العالم من حوله. وعندما استقر الوضع، رأى الحافلة تختفي عند زاوية الشارع. لم يعلم ما إذا كان المبارز لا يزال على متنها أم لا.

علاوة على ذلك، وخلال ثوانٍ، وجد دي نفسه محاطاً بنصف دزينة من رجال الشرطة الذين تسابقوا لتطويقه. زمجر؛ فتراجعوا جميعاً كجسد واحد. استمر هذا الجمود لبضع دقائق بينما حاول دي استعادة قوته. زمجرة أخرى وعدة تلوينات بذراعيه المغطاة بالحرملة كانت كافية لمنع تقدم هؤلاء الممثلين لشرطة المدينة، الذين بدوا راضين بمحاصرة رقعة الرصيف التي يشغلها دون اجتياحها فعلياً.

وعندما شعر دي أخيرًا بأنه مستعد للنهوض والمغادرة، ظهر دخيل جديد. اخترق المفتش بارد دائرة رجال الشرطة وشهق عندما رأى من بداخلها. صاح في مرؤوسيه: «لماذا تقفون هنا؟ أمسكوا به، يا شباب!». رد أحد رجال الشرطة قائلًا: «سيدي، إنه... إنه جاك النطاط، يا سيدي».

- بالطبع ليس كذلك! هذا رجل مجنون خطير يأمل في إخافة الناس بزيه الغريب. ارتكب بالفعل عددًا من الجرائم الخطيرة. الآن استخدموا هراواتكم! أمسكوا به!

عندما رفع رجال الشرطة هراواتهم، قفز دي على قدميه قائلًا: «آه، لكنك مخطئ، أيها الشرطي. أنا جاك النطاط وهذه هي الحقيقة. (اقترب بوجهه من وجه بارد وشاهد خوفه وتراجعته) رجالك أكثر حكمة منك، عليّ أن أقول ذلك. ربما تحتاج إلى درس آخر».

وبحركة سريعة، أمسك بيد بارد السليمة وثنى أصغر أصابعها. بينما شحب وجه بارد، أطلق دي ضحكة وأفرج عن إصبعه سليمة.

- الآن عد إلى واجباتك وابحث عن القاتل الذي يروع الناس في منطقتك، أيها المفتش بارد، وإلا سيعود جاك النطاط لزيارتك مرة أخرى!

بركلة دائرية سريعة، أصاب دي أفراد الشرطة جميعهم، ليس بقوة كبيرة، ولكن بما يكفي لجعلهم يتراجعون. ثم قرص أنف بارد وصفعه على رأسه. بعد ذلك، قفز بخفة إلى أعلى السياج، واستدار مجددًا ملوحًا بحرملته، مطلقًا ضحكة مدوية. وبينما كان رجال الشرطة يرتجفون من المفاجأة، قفز دي على الجانب الآخر من السياج وفر هاربًا.

تمكن دي ببراءة من الفرار من رجال الشرطة الذين يطاردونه، مستعيناً مرة أخرى بالأسطح وأعمدة الإنارة والأسوار والأزقة. لم يشعر بالإرهاق إلا عندما دخل من باب متجر الرقيب هونج. عندما رن الجرس فوق الباب، رفع هونج نظره عن صحيفة صينية قديمة كان يقرأها. نهض وأغلق الباب، ثم عاد ليقلب اللافتة إلى «مغلق»، التي لو كانت كائنًا حيًا لشعرت بالدوار.

قال هونج، بينما انهار دي على مقعد: «دي، إذا استمررت في الظهور هنا في حالات يرثى لها، لن أتمكن من إدارة عملي أبدًا».

أجاب دي: «أعتذر. إذا كان بإمكانني طلب كوب آخر من ذلك الشاي الكريه المنعش، سأغادر فورًا».

قال هونج عاقداً ذراعيه: «لا أعتقد ذلك».

رفع حاجبيه مندهشاً: «أيها الرقيب هونج؟ ألم يعد مرحباً بي هنا؟».

أجاب هونج: «أيها القاضي دي، أنت مرحب بك هنا، في أي حالة وفي أي وقت. ومع ذلك، فإن ذلك الشاي لديه قدرات محدودة، كما تقول، على الإنعاش. لقد استنفدت قدراته -وقدراتك- إلى أقصى حد. سأعد لك مشروباً مختلفاً، والذي ستشربه. ثم ستذهب إلى الغرفة الخلفية لتنام».

بدأ هونج يأخذ قبضة من الأعشاب والأوراق والزهور من الأدراج والجرار الزجاجية وعلب النحاس، وأسقطها في إبريق الشاي.

قال دي دون أن يحاول النهوض: «ليس لدي وقت للنوم، يا هونج. لقد قُتل رجل آخر». ثم بدأ في سرد حكايته في أثناء اختمار الشاي.

- إذا كان هذا صحيحاً، وكانت التونتين هي السبب وراء كل هذا، فإن الكابتن لو، للأسف، هو القاتل. يمكننا تحذير البنك من وجود مخالفات وإرشادهم لتنبيه الشرطة وتأخير الكابتن عندما يصل

للمطالبة بالتونتين. سأفعل ذلك في أثناء نومك. لا تعترض، لن يجديك نفعًا. لن يكون نومًا طويلًا، يا دي. تأثير الجرعة يدوم ساعة أو ساعتين على الأكثر. لكنه ضروري. لا يمكنك تقديم أي فائدة لأحد في حالتك الحالية.

قال دي: «حالتي، مرة أخرى! (لكنه بقي في مكانه، وسأل في النهاية) وإذا لم يظهر لو في البنك واحتجنا للعثور عليه؟».

أجاب هونج: «سنجده. بعد أن تنام. بالتأكيد لا يمكنك العثور على أي شخص وأنت في حالتك هذه. لست متأكدًا تمامًا حتى من قدرتك على العثور على فنجان الشاي الذي وضعته أمامك الآن. إذا استطعت ذلك، فاشرب».



الفصل الثاني والثلاثون

وهكذا نصل إلى النقطة التي أعود فيها شخصيًا إلى مجريات القصة. سأظهر بشكل أكثر تفصيلًا لاحقًا، ولكن لا يمكنني تقديم تقرير صادق عن هذه الفترة دون أن أروي أفعالي. ورغم أن هذا السرد موجز وتبدو تلك الأفعال غير ذات صلة كبيرة بالتحقيق، فإنها أثمرت نتائجها، كما ستكتشف قريبًا.

رغم التصرف الصادم لصديقي بوصوله إلى منزل آل ويندل وهو في حالة من البلادة بسبب الأفيون، ذهبت إلى الفراش تلك الليلة بمزاج مرح. تبين أن شجاعة دي وسحره ليسا سوى قشرة رقيقة، وقد تشققت الآن لتكشف عن الرجل المعيب تحتها؛ بينما أثبت بإبعاده عن المنزل ثباتي وعزمي على فعل الصواب، وقد لاحظت ذلك المرأة التي تعني لي أراها الكثير. تجدد شعوري بالارتياح مجددًا على مائدة الإفطار في

صباح اليوم التالي عندما قالت ماري، وهي تدهن شريحتها من الخبز المحمص: «سيد لاو، نقدر دفاعك عن نزاهة هذا المنزل ليلة البارحة». أعلنت والدتها وهي تدخل من المطبخ حاملة صينية البيض: «بالطبع. رجل مغيب بالأفيون في منزلي! كيف له أن يفكر بهذا الشكل!». قالت ماري: «أنا آسفة، لأنك اضطررت للاختيار بين صديقك ومضيفك».

قلت: «في اعتقادي لم يكن هناك خيار».

قالت السيدة ويندل وهي تعدل تنورتها تحتها عند جلوسها: «بالطبع لا. إنها مسألة تتعلق بالسلامة الجسدية. كان من الممكن أن نتعرض للقتل في أسرتنا لو سمح لذلك الرجل بالدخول».

بادرت بالرد: «أوه، لا، لا، القاضي دي لن يؤذي أيًا منكما، أو يؤذي». أضفت الكلمة الأخيرة، رغم أنني كنت أقل يقينًا من ذلك. تذمرت السيدة ويندل وابتسمت ماري بحزن.

قلت: «لا، لم يشكل القاضي دي خطرًا علينا في أي وقت. ومع ذلك، لا أرى كيف يمكن لشخص أن يكون معارضًا بشكل قاطع لتعاطي هذا المخدر، مثلي أنا، وفي الوقت نفسه متسامحًا مع المتعاطي».

سألت ماري: «أليس من المفترض أن نكره الخطيئة ونحب المخطئ؟».

- بالفعل نحن كذلك. لكنني لم أستطع السماح لـدي، الذي انغمس في تعاطي المخدر إلى حد الاقتراب من الجنون كما فعل بالأمس، بأن يدخل دون تفكير إلى منزل محترم ثم يتوجه إلى الفراش. مثل هذا الفعل من جانبي لن يكون حبًا للمخطئ، بل تسامحًا مع الخطيئة. لا أستطيع منعه من فعل ما يشاء. لكن ما يفعله لا

يجب أن يمر دون عواقب. أعتقد أن إظهار هذه العواقب هو النهج الأكثر حبًا.

قالت ماري: «آه، سيد لاو، تفكيرك دقيق ومثالي من الناحية المسيحية. لو أنك فقط تحضر الكنيسة معي! أعتقد أنني يمكنني أن أعدك ببشرى سارة».

يا لها من سعادة غمرت قلبي عند سماع تلك الكلمات! لكنني في الوقت ذاته وبخت نفسي وأنا أقشر رأس بيضتي. هل من الممكن أن ماري لم تسمح لنفسها بمبادلة مشاعري لأنها لم تكن مقتنعة بإخلاصي لإيماننا المشترك؟ هل قلة حماسي لحضور الكنيسة أسيء فهمه على أنه نقص في الإخلاص عندما أعلنت مسيحيتي؟ هل كانت تفكر بي طوال هذا الوقت كـ -واحمرّ وجهي خجلًا- «مسيحي الأرز»؟

قالت السيدة ويندل: «سيد لاو؟ هل أنت بخير؟ لقد احمرّ وجهك تمامًا».

أجبتها: «أنا بخير جدًّا، شكرًا لك، يا سيدة ويندل. أشعر ببعض الحرارة، ربما بسبب تغير الطقس؟ على أي حال، لدي واجبات في الجامعة، لذا يجب أن أذهب. أشكركما كالمعتاد على الإفطار اللذيذ».

غادرت منزل عائلة ويندل بسرعة لأخفي شعوري بالحرج، لكنني مشيت إلى الجامعة بخطوات مفعمة بالحيوية. إذا كانت المسافة بيني وبين ماري يمكن تجاوزها ببساطة من خلال حضوري لقداسات الأحد في كنيسة القديس جورج في بلومزبري، سأصبح إذن أكثر الأعضاء إخلاصًا في الرعاية! ربما أجد شيئًا مثيرًا للاهتمام في عظات القس إيفانز، وبعد كل شيء، مجرد وجود ماري بجانبني سيجعل تلك الكنيسة الكئيبة تفيض بالنور.

بالطبع، لن تكون ماري بجانبني، بل ستكون في شرفة الجوقة، تحت قيادة واشنطن جونز المتحمس، تشدو بصوتها الملائكي مع الآخرين لرفع كلمات التسبيح لخالقنا. في أثناء سيرى الآن، قمت بالشىء نفسه بصمت. شكرته على هذا الصباح الربيعى المجيد وعلى تجديد الأمل فى سعادتى مع ماري.

بدافع مفاجئ، انحرفت عن طريقى إلى شارع قريب. على بعد مسافة قصيرة، يوجد محل مجوهرات طالما أعجبت بنافذة عرضه. ربما لن يكون من السيئ فى هذا الوقت تقديم رمز صغير عن مودتى الصادقة. توقفت لفترة وجيزة متأملًا نافذة العرض، حيث عرضت مجموعة من دبابيس العنق الرجالية، بالإضافة إلى النوع الأحدث من دبابيس الياقات وحتى مشابك ربطات العنق. كنت قد أتقنت استخدام دبوس الياقة، وعقد ربطات العنق بأسلوب فور إن هاند وويندسور، لكن مشبك ربطة العنق لم يدخل بعد إلى خزانتي. فكرت، بصفتى ممثلًا للصين الحديثة هنا فى إنجلترا، ربما ينبغي لى أن أرتدى بأسلوب عصري حديث. تذكرت أن دى، عندما ظهر لأول مرة فى منزل عائلة ويندل، ارتدى مشبكًا لربطة العنق. تفحصت القطع، محاولًا تخيل نفسى أرتدى واحدًا لتثبيت ربطة عنقى بقميصى. وجدت بعض القطع الأنيقة، بما فى ذلك مجموعة صغيرة تحمل شعارات عائلية متنوعة. بالطبع، لم أكن لأجرؤ على ارتداء واحدة منها؛ ومع ذلك، بدت مصنوعة بدقة وأعجبتنى. بدا شعار واحد مألوفًا لى، رغم أننى لم أستطع تذكر أين رأيته. ربما انتمى أحد طلابى إلى تلك العائلة العريقة؟ وجدت الشعار نفسه مرة أخرى فى مجموعة من أزرار الأكمام والدبابيس التى تُرتدى مع الملابس الرسمية. عند تفحصى عن قرب، وجدت أن الشعار موجودًا أيضًا على دبوس عنق وحلية ساعة الجيب. مجموعة شبه كاملة من المجوهرات

الرجالية، ينقصها فقط خاتم التوقيع. هل وقعت عائلة في أوقات عصيبة، دون وجود وريث ذكر ولا أمل في واحد، ومن ثم لا حاجة لديها لزينة الرجال؟ كانت هذه فكرة حزينة، ولم أكن في مزاج للحزن في هذا الصباح الربيعي الجميل. أخرجت نفسي من شرودي ودخلت المتجر.

قلت للشاب الذي يقف خلف الزجاج: «صباح الخير. أود أن أرى دبابيس الزينة، من فضلك».

كان وجه الشاب، وهو يمد يده إلى داخل الخزانة ويسحب صينية مخملية، شديد التجهم لدرجة أنني كدت أسأله إذا كان يشعر بتوعل، لكن انصب انتباهي على الصينية نفسها. احتوت على حلى براقة سيئة الصنع.

قلت: «لا، آسف، هذه لا تناسبني. أحتاج إلى مجموعة من البضائع ذات الجودة العالية».

أجاب الموظف بابتسامة متكلفة: «سيدي، من تجربتنا عادة ما تكون مثل هذه الأشياء موضع اهتمام للرجال من... نوعك».

استشطت غضبًا قائلاً: «من نوعي؟ ماذا تقصد تحديدًا، أيها الشاب؟». في هذه اللحظة ظهر المدير، الذي كان يرتدي وردة في عروة سترته، بجانب الموظف. وسأل: «هل يمكنني مساعدتك؟».

أجبت ملوحًا بيدي فوق الصينية: «بالطبع يمكنك. طلبت رؤية مجموعة من دبابيس الزينة ذات الجودة العالية، وهذا الشاب يعرض عليّ فقط الحلى الرخيصة».

قال المدير: «سيدي، أنا متأكد...». وتوقف عن الكلام بينما همس الموظف في أذنه. استمر في الحديث بصوت منخفض لبعض الوقت. أخيرًا، التفت المدير نحوي بابتسامة عريضة بينما أزال الموظف الحلى

الرخيصة واستبدالها بصينية تحتوي على مجوهرات بأحجار وصنعة فائقة الجودة.

قال المدير: «أعتذر يا سيدي، يبدو أنه حدث سوء فهم. السيد لوتون أخطأ في تحديد هويتك وظنك صينيًا».

- ظنني...

- نعم. كما قلت، أنا آسف للغاية. وجب على الشاب أن يدرك من براعتك في اللغة الإنجليزية وأناقتك أن موطنك الأصلي ليس الصين بل اليابان. أطلب منك السماح. السيد لوتون جديد في متجرنا ولم يكتسب بعد التمييز الذي نأمل أن يطره مع مرور الوقت. تفضل، ألقِ نظرة على هذه. وأشار إلى الصينية التي وضعت حديثًا.

نظرت من المدير إلى الشاب المخرج الذي ارتدى الآن ابتسامة صغيرة اعتذارية. قلت وأنا أرفع قامتي بشموخ: «سيداي، أفهم موقفكما. والآن يجب أن تفهما أنني في الواقع صيني، وأنني لن أخطو إلى هذا المتجر مرة أخرى». استدرت وغادرت، متعمدًا عدم تمنّي يوم سعيد لهما.



الفصل الثالث والثلاثون

قضيت بقية الصباح جالسًا إلى مكتبي في الجامعة في حالة من الكآبة. أن أكون موضع ترحيب في متجر فقط بعد أن تم اعتباري يابانيًا؛ لا، مثل هذا الإهانة لا يمكن تحملها! هل يمكن أن يكون دي على حق؟ هل فعلًا لا يوجد بريطاني قادر حتى على احترام الصينيين، ناهيك بنوع العاطفة التي تجرأت أن تبادلني إياها ماري؟ كرهت أن أعترف بهذه الاحتمالية. لكن إذا كنت صادقًا مع نفسي، أشارت تجاربي منذ قدومي إلى لندن إلى أنه، بالنسبة إلى العديد من الإنجليز، قد يكون هذا هو الحال بالفعل.

وأين دي؟ طرده ليلاً معتقدًا أنني أساعده في النهاية. أم هل فعلت؟ هل كنت في الحقيقة أفكر فقط في أن أثير إعجاب ماري ووالدتها؟ هل اخترت، كما قالت ماري، بالفعل بين صديقي ومُضيفي، وأسأت الاختيار؟

حاولت متابعة عملي على دروس طلابي، لكن بحلول منتصف النهار كنت في حالة سيئة للغاية. احتجت إلى التحدث مع ماري لأطمئن نفسي أنني لم أكن أتوهم في آمالي بالسعادة معها. فقد وعدتني ببشرى سارة، أليس كذلك؟

احتجت أيضًا -عليّ أن أعترف بشكل أكثر إلحاحًا- للعثور على دي والتأكد من أنه لم يتعرض لأي أذى. أن تدير ظهره لرجل في حالة تجعله بالكاد يعرف اسمه! اضطررت لسؤال نفسي: حقًا، يا لاو، هل يمكن أن يُطلق على هذا التصرف فعلًا من أفعال الصداقة؟

عرفت أين أجد ماري. إنها، في هذه الساعة، تؤدي واجباتها في محل القبعات. لذا، رغم أنه من السهل العثور عليها، فإنها لن تكون في وضع يسمح لها بالتحدث معي في أي موضوع جاد.

من ناحية أخرى، لم يكن لدي أي فكرة عن مكان العثور على دي. قد تكون مهمة البحث عنه عبثية، وحتى إذا وجدته، فقد لا يرغب في التحدث معي على الإطلاق.

ومع ذلك، لم أعد أستطيع البقاء ساكنًا. غادرت مكتبي وتوجهت إلى متجر الرقيب هونج.

في اللحظة التي غادرت فيها بوابات الجامعة، استيقظ دي في الجزء الخلفي من متجر الرقيب هونج، شاعرًا وكأنه وُلد من جديد. تمدد، ثم جلس، أنزل ساقيه عن السرير ووقف. وجد ملابسه مرتبة على طاولة حيث تذكر بشكل غامض أنه طواها قبل ساعتين، فارتدى ملابسه وسار نحو المتجر قائلاً: «حسنًا، يا هونج». ثم توقف فجأة. كان هونج يحتسي الشاي مع اللص جيمي فينجرز.

سأل هونج: «دي، هل تعافيت؟».

أجاب دي: «تحسنت كثيرًا، أيها الرقيب هونج، لدرجة أن الجوع بات يسيطر على جميع حواسي. أشعر وكأنني لم أتناول الطعام منذ أيام».

رد هونج: «هذا ممكن بالفعل. معظم الرجال الذين يمرون بحالتك هذه عادة ما يهتملون تناول الطعام».

قال اللص الشاب وهو يقف: «هل أنت في حالة سيئة، يا سيدي؟
أسف لسماع ذلك».

قال هونج لدي: «لقد دعوت السيد فينجرز لمساعدتنا. بما أنني لم أتمكن من العثور على الكابتن لو في لايمهاوس أو في المنطقة المحيطة ببيني فيلدز وشارع مينج، فلا بد أنه يقيم في منطقة لا يسكنها الكثير من الصينيين. إذا كان الأمر كذلك، فقد يكون السيد فينجرز عونًا كبيرًا في عملية البحث».

رد دي: «أحسنت، يا هونج! أعتقد أنه لا حاجة لأن أسألك عما إذا كنت قد أبلغت البنك الذي يُحتفظ فيه بأموال التونتين؟».

- ومع ذلك، فأنت تسأل. نعم، فعلت ذلك. أبلغوني أنه نتيجةً للضجة التي أثارها ابن أخ ذلك الرجل، أصبح المدير يعرف اسم الكابتن لو جيدًا.

- آه، نعم. كانت تلك أروع لحظات لاو. قد يكون متعجرفًا، لكنه يمتلك قدرًا كبيرًا من الإمكانات، يا هونج. (ملاحظة: زودني الرقيب هونج بمعلومات هذا الجزء من المحادثة). إذا، لم يظهر لو للمطالبة بالأموال بعد؟

- ليس بعد. ستُبلغ شرطة العاصمة، وبفضل ورقة نقدية موضوعة في مكانها الصحيح، سأُبلغ هنا في المتجر أيضًا عندما يحدث ذلك.

- لاحظت براعتك، أيها الرقيب. آمل، مع ذلك، بما أنه لا يبدو في عجلة من أمره -ولماذا يكون كذلك، فلا يوجد أحد آخر ليجمع الأموال- أن نتمكن من التفوق عليه قبل ذلك. جيمي، سأزودك بالتعليمات، لكن بعد أن نتناول الطعام أولاً. أعتقد أنك سترحب بتناول بوجبة؟ (أضاف بلكنة الكوكني) أما أنا، إذا لم أتناول شيئًا قريبًا، فقد أضطر إلى أكلك!

ثم نظر دي بنظرة مأكرة وفتح ذراعيه وكأنه سيهجم على اللص، مما جعل جيمي فينجرز يقفز إلى الورا.

قال جيمي: «ويحي، يا سيدي؟» (رأى دي وهونج يبتسمان معًا) كان ذلك رائعًا. رائعًا بالفعل. ظننت أنني أتحدث إلى أحد الشباب».

رد دي: «اكتسبت تلك المهارة بفضل تعليمك، يا جيمي. هونج، هل سنتنضم إلينا وتسمح لي بشراء وجبة لك كمكافأة على كل ما فعلته من أجلي؟».

أجاب هونج: «وجبة لن تكون كافية لتسوية حساباتنا. ولكن بغيابك، سأتمكن من العودة لخدمة زبائني، إن كان لا يزال لدي أي منهم. استمتع بوجبتك ولا تشعر أنك مضطر إلى العودة بسرعة».

رافق هونج دي واللص إلى الباب وقلب اللافتة إلى «مفتوح».

قال دي وهو يمشي مع جيمي في الشوارع المرصوفة بالحجارة: «جيمي، يا فتى، هل سبق لك أن تناولت وجبة صينية؟».

أجاب جيمي: «لا أستطيع القول إنني فعلت، يا سيدي. لكن إذا كنت تدعوني للانضمام إليك، فلن أرفض».

قال دي: «أدعوك بالفعل، يا جيمي، أدعوك. وها قد وصلنا. هذا أحد أرقى المطاعم الصينية في لندن، مما يعني أنه أحد أفضل المطاعم في المدينة بأسرها».

قال جيمي: «إذا كنت تقول ذلك، يا سيدي».

رد دي: «أقول ذلك». دخل دي واللص إلى «حديقة وو»، المكان الذي قدمته له.

أرشدا إلى طاولة وبدأ دي في تصفح قوائم الطعام المكتوبة بخط اليد على الحائط. وعندما جاء النادل مع إبريق الشاي والأكواب وأعواد الطعام، طلب دي الطعام.

قال جيمي، عندما لم يكن هناك ترجمة فورية: «أفترض أنني سأضطر إلى الانتظار لأرى ما سنأكله، إذا؟».

رد دي: «نعم، وبينما ننتظر، أخبرني: هل تعرف كيفية استخدام أعواد الطعام؟».

لم يعرف جيمي، لكن بفضل براعته اليدوية الواضحة، أتقن استخدام الأعواد بسرعة. وبحلول وقت وصول السبرينج رول، كان متحمسًا لتجربة مهارته الجديدة.

سأل جيمي: «وما هذه، يا سيدي؟».

أجاب دي: «إنها لذيذة جدًا، يا جيمي. ويمكنك استخدام أصابعك لرفع واحدة».

- حسنًا، أصابعي هي أفضل ما أتميز به، يا سيدي!

تبعاً لخطوة دي، أمسك بالسبرينج رول وغمسها في طبق الخردل.

تابع دي بنظرة حذرة عندما أخذ جيمي قضمة. اتسعت عينا جيمي، وأمسك بكوب الشاي وابتلعه دفعة واحدة، ثم ضحك قائلاً: «يا سيدي، هذا مذهل! لذيذ بلا شك». التقط المزيد من الخردل مع ما تبقى من لفافته، التهمها بسرعة، ومد يده للحصول على واحدة أخرى.

تناول دي وجيمي فينجرز السبرينج رول بشهية كبيرة مع كميات وفيرة من الخردل الحار، وبعدها طبق من كعك لحم الخنزير المطهو على البخار. وصلت فطيرة الفجل والنودلز المقلية معاً، واستعرض جيمي مهارته في استخدام أدوات المائدة عندما قال دي: «جيمي، أنت طالب بارع، ويسعدني أن أرى كيف تتقبل طعام وطني بهذه السرعة. طاب مساؤك، يا لاو. هل تود الانضمام إلينا؟».

عندما نطق دي بتلك الكلمات، كنت لا أزال على بعد متر خلفه. لم يلتفت في كرسيه، ولم أتكلم منذ أن دخلت المطعم وألقيت نظرة على المكان، آملاً أن أجد دي هنا كما أشار عليّ هونج. عندما رأيته مع اللص الشاب، بدأت أشق طريقي عبر قاعة الطعام المزدحمة.

قلت وأنا أقترب من طاولتهما وأقف بينهما: «دي، طاب مساؤك أيضاً، هل تمتلك عينين في مؤخرة رأسك؟».

نظر إليّ بابتسامة. أوشك جيمي فينجرز على الوقوف، لكنني أشرت له بالبقاء في مقعده. قال دي: «سمعت خطواتك تقترب. من صوتها خمنت أنه أنت، ونظرة التعرف المرتسمة على وجه جيمي أكدت ذلك. ربما أكون أفترض أموراً، يا جيمي، لكنني لا أظن أنك تعرف العديد من الرجال الصينيين في لندن سوى الرقيب هونج، والسيد لاو، وأنا. أعتقد أن هونج، بعدما تخلص مني مؤخراً، لن يأتي إلا إذا كانت لديه أخبار مهمة. ولو كان لديه، لأسرع في الدخول، لا أن يتقدم بخطوات متمهلة. هكذا، يا لاو، تأكدت من وجودك هنا. تفضل بالجلوس».

أحضر النادل كرسيًا في تلك اللحظة، فجلست، مندهشًا مرة أخرى من سرعة تفكير دي. قلت: «دي، ليلة أمس...».

قاطعتني دي قائلًا: «تناول قطعة من فطيرة الفجل، يا لاو. إنها لذيذة جدًا. لم يحدث شيء ليلة أمس يستحق النقاش، باستثناء الاعتذار الذي أدين به لك عن أي إزعاج سببته لك مع السيدة والآنسة ويندل».

- لكنني...

- نعم، الآن يجب أن ننتقل إلى عمل اليوم.

بما أننا أصبحنا ثلاثة على الطاولة، وكل من دي وجيمي فينجرز يتمتعان بشهية كبيرة، طلب دي طبق أرز في إناء فخاري مع النقانق. تشاركنا تناول فطيرة الفجل المالحة والنودلز الحريرية بينما شرح دي لي وللص الشاب الوضع الحالي المتعلق بالكابتن لو.

قلت: «يا إلهي. أنا آسف جدًا، يا دي. أعلم أن الكابتن صديقك. لا بد أن هذا يشكل خيبة أمل كبيرة لك».

وصل الطبق الجديد إلى الطاولة. وبينما كان دي يملأ أطباقنا، قال: «خيبة أمل لي ليست أكبر من خيبة أمل لو في الحياة، لأنه سمح لنفسه بالسير في هذا الطريق. ولكن يجب علينا أن نقوم بواجبنا».

قلت مسترجعًا الأحداث: «ولكن يا دي، الكابتن لو نفسه هو من لفت انتباهك إلى وجود التونتين. بحث عنك عندما علم بوجودك في لندن. لماذا يفعل ذلك إذا كان هو القاتل؟ لماذا لا يواصل أعماله الشريرة، يجمع أموال التونتين، ويبقى في الظل، على أمل ألا تكتشف الدافع وراء جرائم القتل؟».

- لأنه علم أنني سأكتشف الأمر. قضينا سنتين معًا في فرنسا. يعرف أساليب ويعلم أنني لا أستسلم. ربما تتمكن من إنهاء جرائمه

وجمع الأموال قبل أن أكتشف السبب، وربما لا. بقدومه إليّ، أمل في إعفاء نفسه من الشبهة، مما يتيح له الفرصة لإكمال تنفيذ خطته.

قال جيمي فينجرز: «هذا الرجل الذي تتحدثان عنه يبدو ذكيًا جدًا». أجاب دي: «بالتأكيد هو كذلك. أعتقد أنه يتوارى عن الأنظار، منتظرًا فرصته للمطالبة بالأموال».

قال جيمي: «لكننا حذرنا البنك. إذا كان ذكيًا إلى هذا الحد فلا بد أنه يعلم ذلك. ألم يخبرنا الرقيب هونج بأنه رشى موظفًا ليخبره عند وصوله؟».

- نعم، ولكن ربما رشى لو موظفًا آخر ليتمكن من جمع الأموال بسرية، وربما الشخص نفسه. لذا، يتعين علينا أن نبحث عن لو بأنفسنا. (وضع دي عيدان الطعام جانبًا) بما أن لو لم يُعثر عليه في لايمهاوس أو بينيفيلدز، فلا بد أنه في منطقة يلاحظ فيها وجود رجل صيني بسهولة. جيمي، أعتقد أن لديك شبكة واسعة من المعارف في أنحاء لندن».

أجاب جيمي بفخر: «بالتأكيد، يا سيدي!».

- أود منك أن تبسط شباكك على أوسع نطاق ممكن. اطلب من معارفك أن يبلغوك عن أي رجل صيني يعيش في ظروف متواضعة؛ ليس في فقر، ولكن ليس في مجتمع راقٍ أيضًا. لا عمال موانئ ولا دبلوماسيين، أنفهمني؟ رجال هادئون يعيشون حياة هادئة، بعيدًا عن الأحياء التي قد يتوقع المرء أن يجدهم فيها. دع الناس يعلمون أن هناك ورقة نقدية مكافأة لمن يقدم معلومات عن الرجل المناسب. بالطبع، دون أن يعلم الهدف أنه مُطارَد.

يمكنك استخدام متجر الرقيب هونج مقرًا رئيسيًا لك، ولكن يجب أن تتأكد من عدم التدخل في تجارته.

- أنا رجلك، يا سيدي.

بدا جيمي كأنه فلاح من جوانجدونج يتناول وجبته في منتصف النهار، حيث جرف بمهارة ما تبقى من الأرز في وعائه إلى فمه. ثم قفز واقفًا.

ضحك دي قائلاً: «جيمي، إذا عثرت على الكابتن لو، سأطهو لك وجبة بنفسي».

ابتسم جيمي، واستدار بخفة على عقبه، وانطلق مسرعًا خارج «حديقة وو».



الفصل الرابع والثلاثون

قال دي: «أعتقد أن إنهاء هذه الوجبة بوعاء صغير من حساء الجوز قد يكون مناسبًا. إنه مفيد جدًا للدماغ، كما تعلم. لا أدري ما رأيك في هذا، يا لاو، لكن نظرًا إلى تباطؤ فهمي لهذه القضية، أشعر أن دماغي بحاجة إلى بعض المساعدة».

لَوَّحَ للنادل وطلب وعاءين من الحساء. أعدت ملء أكواب الشاي وسألت: «ما الخطوات التالية التي تنوي اتخاذها، يا دي؟ لا يمكن أن تخطط فقط للانتظار حتى يُعثر على الكابتن لو».

قال دي: «كل ما أستطيع التفكير فيه هو أن نشارك في عملية البحث. (نظر إليَّ مردفًا) إلا إذا كنت، نظرًا إلى المشكلات التي جلبتها لك، قد قررت أن تتخلى عن...».

قاطعتَه قائلًا: «دي!».

أوماً برأسه قائلاً: «حسنًا، شكرًا لك. (ارتشف من شايه مضيئًا): توقعت يا لاو، عندما جئت إلى لندن، أن أؤدي عملي بمفردي. لم أتصور أن أجد رجالًا يمكنني الاعتماد على مهاراتهم وثباتهم. اعتقالي مع المشاغبين كان، في نظري، إزعاجًا مؤسفًا وربما خطيرًا. لكن ذلك الحدث جمعني مجددًا بهونج وعرفني عليك. عندما أنظر إلى الورا، أكتشف كم كنت محظوظًا».

شعرت بأن وجهي احمرّ كما حدث على مائدة الإفطار في منزل عائلة ويندل. ولحسن الحظ، وصل حساء الجوز، مما أعفاني من الحاجة للكلام. كنت سأجد صعوبة في الإقرار بأن دي قادر على الشعور بمثل هذه المشاعر، ولم أكن لأتوقع أن أسمعه يعبر عنها.

المهارات التي أشار إليها دي يتمتع بها هونج أكثر مني، على الرغم من أنني تخيلت أنني لست عديم الفائدة كليًا في الانشطة الجسدية. لكن فيما يتعلق بالثبات، كنت واثقًا أن سجلي يضاهاى سجل هونج دون تردد. وعندما سمعت تعبير دي عن الامتنان، تعهدت بصمت بأن أضاعف جهودي في هذا الاتجاه.

بعد بضع ملاعق من الحساء الحلو، تحدث دي قائلاً: «بمجرد أن تنتهي من هذا السائل المغذي للعقل، أقترح أن ننقسم ونبحث في مناطق مختلفة من لندن عن الكابتن لو. يمكننا أن نلتقي بعد ساعتين تقريبًا في متجر الرقيب هونج. ينبغي أن يكون هذا الوقت كافيًا لتحسين رأيه فيّ مرة أخرى. إذا تمكن الكابتن لو من الهروب من شباكنا وحاول المطالبة بأموال التونتين، فسنعرف ذلك حينها. أيها السادة!».

وكما توقعت، بعد سماعه خطوات تقترب كما سمع خطواتي، استدار دي في كرسيه. نظرت إلى أعلى لأرى إزرا باوند والفيكونت وايتكليف. قال دي: «من الجيد رؤيتكما مجددًا».

قال باوند: «وأنت أيضاً، يا سيد دي، سيد لاو». وأوماً برأسه نحوي، بينما ابتسم وايتكليف لكيلا. تابع باوند قائلاً: «يسرني أن أعلم أنك تستمتع بالطعام في حديقة وو. أجده مقبولاً، وكذلك معظم الصينيين الذين أعرفهم».

- أوه، بربك، يا باوند.

تألق خاتم عائلة الفيكونت في الضوء بينما كان يعدل ربطة عنقه تحت مشبكها الذهبي البسيط. أما باوند نفسه، فقد ارتدى وشاحاً من الحرير الأزرق مثبتاً بدبوس من الياقوت، وهي قطعة لباس لم تكن لتلفت الانتباه قبل الحرب، ولكنها اليوم تعتبر بمثابة مظهر من مظاهر الأناقة المتعمدة. تابع وايتكليف قائلاً: «الصينيون الذين تعرفهم يا باوند يشملون كل صيني في لندن يستحق المعرفة».

ابتسم باوند قائلاً: «لا أستطيع إنكار ذلك. أحرص على التعرف على ممثلي هذه الثقافة العريقة في العصر الحديث».

قال دي متفكراً: «حقاً؟ ربما يمكنني أن أطلب منك مساعدتنا إذن». أخرج من جيب سترته ورقتين. ألقى نظرة عليهما، ثم بابتسامة خفية أعتقد أنني الوحيد الذي رآها، وضع إحداهما جانباً وناول باوند الأخرى. كانت قائمة بأسماء الرجال الذين جاءوا من فرنسا، النسخة التي كتبها بالإنجليزية.

أخذ باوند الورقة، وألقى نظرة على القائمة، وابتسم بسخرية: «سيد دي. كما قال وايتكليف، لقد تعرفت على كل صيني في لندن يستحق المعرفة. اثنان من هذه الأسماء لا يعنيان لي شيئاً. وهذا ما كنت أعنيه». وبينما حدق وايتكليف من فوق كتفه، أشار باوند بإصبعه إلى القائمة، مشيراً إلى أسماء ما زي رين وجيانج جوان لي: «هذان الاسمان مألوفان، لكنهما بالتأكيد لا يستحقان المعرفة».

قال وايتكليف، بنظرة حيرة على وجهه: «ما زي رين، أليس هذا صاحب المتجر الذي قُتل الأسبوع الماضي؟ هل كنت تعرفه، يا سيد دي؟».

- نعم، كنت أعرفه. لماذا تقول يا سيد باوند إنه لم يكن يستحق المعرفة؟

أجاب باوند: «لأن كلا الرجلين دنسا نفسيهما وثقافتهما القديمة -ثقافتكم!- بتأديتهما أدوارًا في تلك الأفلام البغيضة».

سأل دي: «أفلام؟ هل لعب ما وجيانج أدوارًا في أفلام سينمائية؟». عادت إلى ذهني كلمات جيانج الأخيرة فجأة. كدت أذكر دي بها، لكنه أرسل لي نظرة حادة قبل حتى أن أفتح فمي.

قال باوند: «أفلام مروعة، تلك التي تروّج لفكرة سخيضة مثل الخطر الأصفر. كأن أي صيني يمكن أن يشكل تهديدًا لرجل أبيض، أو حتى لامرأة بيضاء، وهو ما تركز عليه هذه الأفلام في المقام الأول. فشعبكم ليس مقاتلاً بطبيعته، في نهاية المطاف. فكرة أن فتاة بريطانية بصحة جيدة لا يمكنها التغلب على مهاجم صيني، (وهنا تظاهر بتوجيه ضربة قوية إلى الفيكونت وابتسم مردفًا) هي فكرة بغيضة للغاية».

بدأت أحتج: «ليسوا شعبًا مقاتلاً!». لكن دي ركلني تحت الطاولة. رفعت كوب الشاي ونظرت بعيدًا لأستجمع نفسي. كان دي مهتمًا بوضوح بهذا الموضوع. قال: «أخبرنا المزيد عن هذه الأفلام».

- يُجند الصينيون للعب دور الشرير في أفلام بغيضة لا تهدف سوى لنشر الخوف، الخوف من أن شبكة الشر الصينية ستوقع بالشاب الإنجليزي الطيب وتجذب عذراءه إلى هلاكها. أفهم أنهم يصنعون أفلامًا مشابهة في أمريكا أيضًا. هذه الأفلام تهين شعبنا معًا. (ألقى باوند الورقة على الطاولة بازدراء) لا أستطيع أن أتصور ما

الذي قد يدفع رجلاً صينياً إلى الانحدار والمشاركة في مثل هذه الأعمال الوضيعة.

قال الفيكونت بواقعية: «الجوع يمكن أن يدفع الإنسان إلى فعل الكثير من الأمور».

- الجوع؟ امتلك ما زي رين متجراً مزدهراً، أليس كذلك؟ زرتّه مرات عديدة، يا وايتكليف، واشتريت منه بعض القطع الفنية الجميلة. على حد علمي، در المتجر عليه دخلاً جيداً، شكراً جزيلاً. الجوع الوحيد الذي قد يدفعه إلى هذا الانحدار هو الجوع إلى المال؛ وكما نعلم جميعاً، هذا الجوع هو أصل كل الشرور!

قال دي: «كتابكم المقدس يقول ذلك بالفعل. (أثار إعجابي أن دي، رغم كونه غير مؤمن، قد عرف الاقتباس، لكنه كان رجلاً مملوءاً بالمفاجآت) أعتقد أنك لا تعرف مكان استوديو الأفلام الذي يصنع هذه الأفلام المشينة؟».

رد باوند: «سيد دي! لا تفكر في... أوه، بالطبع، أنت لا تفكر في ذلك! أنت ذاهب لتلقنهم درساً! حسناً، سأكون مسروراً لرؤية ذلك».

قال وايتكليف بنبرة قلقة: «باوند، من المتوقع أن نكون في...».

- أوه، يا وايتكليف، لم أكن أعني ذلك حرفياً! أنا واثق أن السيد دي سيخبرنا بكل التفاصيل في المرة القادمة التي نلتقي فيها. طاب يومكم، أيها السادة.

وضع باوند قبعته على شعره الكثيف.

قال دي: «سيد باوند؟ الموقع؟».

أجاب باوند: «أوه! عذرًا، يا صديقي. الاستوديو يُدعى «برنسلي بيكتشرز»⁽¹⁾، وهو اسم في غير محله إذا كان هناك اسم كذلك. يقع بالقرب من الموانئ في شارع نيو جرافيل».

- شكرًا لك.

- على الرحب والسعة. والآن، بون جورنيه⁽²⁾.

بمجرد أن ابتعد الرجلان عن مسمعنا، قلت: «دي! كلمات جيانج؛ إنها بسبب الصور!» هل تعتقد...».

أجاب دي: «نعم، بالفعل، أعتقد ذلك. أظن أنني سأزور استوديو برنسلي بيكتشرز».

مكتبة
t.me/soramnqraa

أشار إلى النادل طالبًا الفاتورة.

قلت: «سأذهب معك».

رد دي: «لا، أعتقد أنك ستكون أكثر فائدة إذا انضمت إلى البحث عن الكابتن لو. قد يكون هذا خيطًا زائفًا. حتى لو كان صحيحًا أن ما وجيانج شارك في هذه الأفلام عن الخطر الأصفر، قد لا يكون لذلك أي علاقة بالجرائم. أنت تعرف لندن جيدًا. اختر منطقة مناسبة وابحث فيها».

عَبَسْتُ قائلًا: «حسنًا».

- ألا تعجبك هذه الخطة؟

- لا، لا. الخطة جيدة. هناك شيء يزعجني فقط. الرجلان اللذان غادرا للتو، السيد باوند والفيكونت وايتكليف... لا أعرف. لا أستطيع تحديد ما أزعجني.

(1) الترجمة الحرفية للاسم هي: صور الأمير. مما يفسر أنه اسم في غير محله، ويفسر أيضًا علاقته بكلمات جيانج الأخيرة قبيل موته. (المترجمة)

(2) رحلة سعيدة بالفرنسية. (المترجمة)

- هل تقصد أن مظاهر التفخيم والتباهي من الطبقة الأدبية أزعجتك؟
ضحكتُ مجيباً: «لا، ليس هذا هو السبب. أرى ذلك يومياً بين طلاب
الأدب في الجامعة، الذين ليس لديهم ما يبرزونه مقارنةً بإزرا باوند.
(هزرتُ رأسي) لكن لا أستطيع أن أحدد ما هو».
قال دي: «عندما يحدث ذلك، أجد أن الحركة هي العلاج. دعنا نخرج
إلى الشوارع، يا لاو، ونتحرك!».



الفصل الخامس والثلاثون

لم تكن مغامراتي بعد افتراقي عن دي تستحق الذكر، لأنها كانت معدومة. فالمنطقة التي اخترتها لمطاردتي كانت هي نفسها التي أقطن بها: الشوارع المحيطة بالمتحف البريطاني. لم يكن الحي فخماً ولكنه كان محترماً للغاية. وقد فكرت أن اللص، جيمي فينجرز، لن يجد له معارف هنا كما قد يجد في الأماكن الأخرى الأكثر انحطاطاً. وبغض النظر عن الاحترام، كان من المحزن أنه منذ الحرب، أصبحت العديد من المنازل في المنطقة مأوى للأرامل، كما هو الحال في جميع أنحاء إنجلترا. بعض هؤلاء الأرامل، بعد أن فقدن مصدر دخلهن الوحيد، قد اضطررن إلى استقبال مستأجرين، كما هو حالي مع السيدة والآنسة ويندل. قد يكون الكابتن لو مقيماً في منزل محترم على بعد بضع خطوات من منزلي دون أن أعلم بذلك.

لكن إن كان كذلك، لم أرَ له أي أثر. ولا لماري، التي كانت تركض أحياناً في الحي مؤديةً مهمات لمحل القبعات. لم يلعب احتمال لقاء ماري دوراً في اختياري للمنطقة التي سأبحث فيها، بالطبع. ومع ذلك، لازدادت حالتي النفسية، التي تحسنت بالفعل بفضل استقبال دي الودي، بهجة لو رأيته.

لم تكن الخطوة التي اتخذتها، كما اقترح دي، كفيلة بأن تخرج من رأسي الإجابة على السؤال المحير عما سمعته أو رأيته في حديقة وو، ولم أستطع تذكره الآن.

بينما كانت مقابلاتي مع أصحاب المتاجر وأصحاب المنازل غير مجدية، أسفرت تحقيقات دي عن نتائج أكثر إثارة للاهتمام. لذا، دعونا ننتقل إليه الآن.

قادت خطوات دي السريعة إلى مبنى المستودع المتهالك في شارع نيو جرافيل الذي يضم استوديو التصوير، برنسلي بيكتشرز. عند دخوله، رفعت شابة مرهقة رأسها عن آلة الكتابة من طراز ريمينجتون. قبل أن يتمكن من الكلام، قالت: «الباب الثاني على اليسار».

قال دي معتذراً: «عفوًا، لا بد أنك...».

قاطعت قائلة: «الباب الثاني على اليسار. سيراك حالما ينتهي».

- من؟

- السيد بولتون. هو المسؤول عن جميع الأفلام الصينية. إنه الشخص الذي تحتاج لمقابلته إذا كنت تبحث عن دور.

لم يصحح دي سوء فهمها لمهمته، بل شكر الشابة التي عادت بالفعل إلى النقر السريع على آلة الكتابة. توجه إلى الممر المشار إليه ودخل

الباب الثاني على اليسار. إذا كان السيد بولتون مسؤولاً عن «إنتاج» جميع الأفلام الصينية، فإنه بالتأكيد يرغب بشدة في التحدث معه.

كانت الغرفة فارغة إلا من طاولة وبعض الكراسي ذات الظهر المستقيمة. جلس دي وانتظر. وكما قالت الشابة، فتح الباب بعد دقائق ودخل رجل ذو شعر أحمر بربطة عنق مرتخية وسترة مفتوحة.

قال وهو ينظر إلى دي من أعلى إلى أسفل عندما وقف: «نعم، نعم! ستكون مناسباً إذا كنت تستطيع التمثيل. هل تستطيع التمثيل؟ هل تقرأ الإنجليزية أم ستحتاج إلى تعليمات بالصينية؟ تعال، الكاميرا جاهزة، يمكنك أن تظهر لي ما لديك».

- أنت السيد بولتون؟

- بالطبع. تيد بولتون. المخرج. سيبدأ التصوير الأسبوع المقبل. فيلم «أزهار متساقطة». هذا هو سبب وجودك هنا، أليس كذلك؟ للحصول على دور؟ هناك دور المقامر -لا، لا أظن أنك مناسب- لكن لدينا دور العشّاب الثاني ما زال متاحاً، أو حارس باب وكر الأفقون -تخيلته أصغر سنّاً لكنك تبدو قوياً ومتيناً-...

- سيد بولتون، اسمي دي رين جيه ولست هنا للحصول على دور في فيلم.

توقف بولتون قائلاً: «أنت لست هنا لهذا الغرض؟ إذاً، ما الذي تريده؟».

- أحقق في وفاة صديقي ما زي رين.

- أنت تحقق في وفاته؟ أنت لست مع الشرطة، أليس كذلك؟

- لا، لست مع الشرطة. طلبت مني أرملة ما التحقيق في ملابسات وفاته.

لم يكن هذا صحيحًا بالطبع؛ ولكن كما أخبرني دي لاحقًا عند سرد هذه المقابلة، فإن ذكر الأرملة غالبًا ما يلين قلوب الرجال. تابع قائلاً: «علمت مؤخرًا أن مَازي رين كان يمثل في أفلامك. هل يمكنك أن تخبرني كيف حدث ذلك؟».

هز بولتون رأسه بأسف مجيبًا: «مؤسف حقًا ما حدث له. كان موهوبًا، تعلم بسرعة. لم يحتاج إلى بروفات طويلة أو إهدار للوقت. وكان أحد أكثر الشياطين الصينيين إقناعًا في أفلامي. أوه، لا أقصد الإساءة، يا سيد... دي، أليس كذلك؟ أنا لا أرى شعبكم بهذه الطريقة، لا، لا، لا. ولكن هذا ما يريده الجمهور السينمائي، كما ترى. التهديد الشرقي! الخطر الأصفر! هل أنت متأكد أنك لا ترغب في تجربة الحصول على دور؟ يمكن للرجل الصيني أن يجني مَالًا وفيرًا في هذا المجال».

- أنا متأكد تمامًا. ولكنني أرغب في رؤية بعض أعمال مَازي رين، إذا لم يكن في ذلك إزعاج.

- تقصد الأفلام التي شارك فيها؟ حسنًا، هناك الفيلم الجديد الذي شارفنا على إنهائه. لحسن الحظ، صُورت مشاهده بالفعل. سيكون هذا آخر عمل لَمَا، خسارة كبيرة حقًا. تعال، إذا. ستكون من أوائل من يشاهد شيرينا الجديد! عبقرى إجرامي صيني ينافس موريارتي. تعرف من هو، أليس كذلك؟ أعظم أعداء شارلوك هولمز! عبقرى إجرامي. شيرينا الشرقي الجديد هو كذلك، ومثير للإعجاب. سيعشقه الجمهور، يمكنك أن تكون واثقًا. ها قد وصلنا.

ألقي بولتون هذا الكلام بينما كان يقود دي عبر الردهة. دخلا غرفة صغيرة أخرى، هذه المرة دون نوافذ ومجهزة بخزانة، وجهاز عرض، وشاشة، وبعض الكراسي، وُضعت على أحدها مجموعة من الأوراق

المربوطة. فتح بولتون الخزانة وسحب بكرة فيلم في علبتها المعدنية.
قال: «اجلس. سأجهز العرض».

جلس دي ورفع حزمة الأوراق. رأى على الصفحة الأولى الكلمات المكتوبة بالآلة الكاتبة «غرباء على الجبهة الغربية» واسم ما زي رين.
سأل: «ما هذا؟».

- أوه، هذا سيناريو ما زي رين. إنه الوثيقة التي نصنع الأفلام بناءً عليها. توضح للمخرج تفاصيل القصة وما إلى ذلك. ثم يأتي دور المخرج ليحولها إلى عمل فني حقيقي. يجب أن ترى سيناريو هذا الفيلم. (وأشار إلى البكرة في يده) لا شيء فيه سوى الهيكل العظمي. كتبه رجل يدعى آرثر وارد، لا ينبغي حتى أن يُسمح له بأن يطلق على نفسه كاتبًا. أستخدم كلمات أكثر مما كتبها عندما أحلق في الصباح.

- لا شك في ذلك. ولكن ماذا عن سيناريو ما زي رين؟
- ليس سيئًا. مؤثر جدًا. كان ما في فرنسا في أثناء الحرب، كما أخبرني. في الخنادق. على ما يبدو وجد الكثير من الصينيين هناك، وهذا جديد بالنسبة إليّ. أراد أن يصنع فيلمًا عن تلك التجربة. وكان هذا أحد الأسباب التي دفعته للعمل هنا، ليفهم خفايا الصناعة، كما تعلم. طلب مني قراءة هذا السيناريو وفعلت. إنه ليس سيئًا حقًا. لكن لا يمكننا تنفيذه، بالطبع.

- ولم لا؟

- لن يدر عائدًا ماديًا! الجمهور لا يريد مشاهدة رجل صيني يؤدي أعماله اليومية، حتى لو كانت تلك الأعمال تتعلق بالحرب، وبالتأكيد لا يريدون رؤية أبطال صينيين. أعني، هل يمكنك أن تتخيل؟ الناس يريدون الأشرار! التهديد الشرقي، هذا هو المطلوب! وهذا

ما نقدمه لهم. هنا، شاهد هذا. أخبرني برأيك بعد ذلك. سأكون هناك، في استوديو التصوير. إذا غيرت رأيك بشأن الحصول على دور، سأكون سعيدًا بمنحك فرصة.

أرشد بولتون دي لكيفية إطفاء الأنوار وتشغيل جهاز العرض، ثم غادر.

قبل أن يبدأ دي في مشاهدة الفيلم، قرأ سيناريو التصوير الذي كتبه ما. تحدثت القصة عن فتى صيني بسيط يعمل في متجر، جُند للسفر إلى فرنسا بحثًا عن المغامرة والمال والمجد. تعرف دي على بعض الشخصيات التي قابلها الفتى وعدة أحداث وقعت: بعضها كان محببًا، وبعضها مرعبًا، وبعضها مضحكًا، وبعضها محزنًا. سرد ما سنواته في فرنسا، بما في ذلك إصابة الفتى (أي ما نفسه) بشظية، دون تجميل للحقائق ولكن أيضًا دون شكوى أو استدرار للشفقة. ملأت دهشة الفتى أمام عجائب العالم الواسع الصفحات إلى جانب أهوال الحرب.

كان السيناريو، كما وصفه بولتون بلباقة، مؤثرًا.

رأى دي بوضوح لماذا ستفرض شركة أفلام بريطانية مثل هذا السيناريو. قال لي لاحقًا: «أفلام كهذه يجب أن تُصنع في الصين، بأيدي شعبنا. الإنسانية والبطولة التي يتسم بها رجال مثل ما لا تعترف بها بريطانيا، ولا أي من الأوروبيين؛ وبالتأكيد ليس الأمريكيين. فما الذي سيدفع لندن أو نيويورك أو هوليوود لصنع فيلم عن ذلك؟ لا، يا لاو، إنها إحدى تلك الحالات التي يجب على الصين فيها أن تنهض وتمسك بزمام قصتنا ومستقبلنا بأيدينا!».

لكن هذا التصريح المؤثر لم يأت بعد. الآن، وضع دي السيناريو جانبًا، وقام بتشغيل المفاتيح المختلفة، وجلس متكئًا ليشاهد ما زى رين على الشاشة الفضية اللامعة.

كان الفيلم الجديد بعنوان «العشّاب الماكر»، حيث لعب مآ زي رين دور البطولة كمساعد للعشّاب الفاسد، ويدعى أيضًا مآ. حاول، مرتديًا رداءً قذرًا وضمفيرة طويلة، مبتسمًا ابتسامة متملقة، إغواء شابة إنجليزية بريئة (واسعة العينين، ملأى بالثقة، مرتدية ثوبًا أبيض ناصعًا) للانضمام إليه في وكر الأفقون. وعندما ترددت، حملها على كتفه ككيس ثقيل وأخذها هناك، غير مبالٍ بصراخها وصفعاتها اليائسة بيديها الشاحبتين على ظهره. وعندما سيطر عليها المخدر، سلمها للعشّاب الشرير ليواصل إذلالتها. وهو من تجول في لندن ليقوم بالأعمال الشريرة للعشّاب. (لاحظ دي أن العشّاب الماكر نفسه لم يُجسده ممثل صيني، بل أورُبي بأجفان ملصقة، وشارب طويل متدلّ، وأظافر ماندارين⁽¹⁾).

في أثناء تقدم الفيلم، التقى مآ بالبحارة اللاسكار -الذين قُدموا بصورة كاريكاتيرية مريرة في غرف مظلمة لعقد مؤامراتهم الشريرة. سرق رجل دين تحت تهديد السكين واعتدى على دوق. ومع اقتراب النهاية، خاض معركة بالأيدي مع حبيب الفتاة الشجاع، الذي جاب لندن بلا كلل بحثًا عن حبيبته حتى وصل لإنقاذها. هُزم مآ وأنقذت الفتاة (وُحفظ شرفها)، لكن العشّاب الشرير تسلل إلى الظلال، ليعود مجددًا متى رأت برنسلي بيكتشرز أن الوقت قد حان لظهوره.

جلس دي بهدوء طوال عرض الفيلم، وكأن شيئًا لم يعكر صفوه. شاهد الفيلم دون حراك من البداية إلى النهاية. وعندما توقفت الصور على الشاشة، جلس للحظات أخرى. ثم وقف، رفع بكرة الفيلم من جهاز العرض ووضعتها في علبتها الفولاذية. وضعها على الكرسي بجانب سيناريو مآ. ثم غادر الغرفة متوجهًا إلى استوديو التصوير ودخل عبر

(1) تشير إلى الأظافر الطويلة التي كانت تُترك لتطول بوصفها رمزًا للمكانة الاجتماعية العالية والنبل في الصين القديمة. كانت هذه الأظافر الطويلة تدل على أن الشخص لا يقوم بالأعمال اليدوية ويعيش حياة مرفهة. (المترجمة)

الأبواب المزدوجة. كانت الكاميرا دائرة، والمخرج ذو الشعر الأحمر يقف ممسكًا بيده مكبر الصوت بينما كان شاب وشابة يحتضنان بعضهما ويتنهدان في خضم الحب الرومانسي. انتظر دي حتى انتهى المشهد ونادى بولتون «كت». ثم اقترب منه.

- سيد بولتون.

- دي! ما رأيك في شيرينا الجديد، الخطر الأصفر؟

- إنه مربع بالفعل. قبل أن أغادر، لدي سؤال آخر إذا سمحت.

- أنت متأكد أنك لا تريد تجربة الحصول على دور؟ الآن بعد أن رأيت ما يمكننا فعله؟ أحتاج حقًا إلى شخص ليحل محل ما.

- نعم، أنا متأكد تمامًا. لكن أخبرني، كيف جاء ما زي رين إليك؟

تجعد جبين بولتون وهو يجيب: «شاب أنيق يُدعى دوفر. يرتدي خاتمًا صغيرًا في خنصره وملابس فاخرة. تعرف هذا النوع. يجند الصينيين لنا، وللأستوديوهات الأخرى أيضًا، لكننا دائمًا نحصل على أول اختيار لأننا ندفع أكثر».

- تقصد أنك تدفع للرجال الصينيين أفضل أجور؟

- أوه، بالطبع لا، الأستوديوهات كلها تدفع لهم الأجر نفسه. يعمل هؤلاء الصينيون مقابل الفئات! باستثناء ما. أردت الاحتفاظ به، لذا أعطيته بضعة شلنات إضافية. لا، أعني المجندين. الأستوديوهات كلها تدفع لهم. لو لم نفعل ذلك، لاضطررنا للبحث عن الصينيين بأنفسنا. وليس لدي وقت لذلك؛ هناك الكثير من العمل يجب القيام به لصنع فيلم، وكل ذلك يقع على عاتق المخرج! دوفر هذا، لا أعرف من أين يحصل عليهم. لا يبدو من النوع الذي يرتاد الأماكن التي يتجمع فيها الصينيون. باستثناء أوكار الأفيون، ولا

أعتقد أن هناك الكثير من الصيد الجيد للرجال في أماكن يغرق فيها الجميع في سبات عميق، أليس كذلك؟ (غمز بولتون) ولكنه يجدهم، وهم متحمسون جميعًا للعمل. مهلاً، يا دي. (بدا أن فكرة خطرت على بال بولتون حينها) إذا كنت مترددًا بشأن الوقوف أمام الكاميرا، فما رأيك في التجنيد لنا؟ لا بد أنك تعرف عددًا جيدًا من الصينيين. أعني، أنتم جميعًا تعرفون بعضكم بعضًا، أليس كذلك؟ ما رأيك؟

قال دي ببطء: «تبدو فكرة مثيرة للاهتمام. لكنني أرغب في معرفة كيفية عمل دوفر في هذا المجال. هل هناك طريقة يمكنني بها العثور عليه للتحدث معه؟».

- بالطبع، نعم. لا أعرف مكانه بالضبط، لكن لديه هاتف. سأجد رقمه.

وأخرج بولتون من جيب صدره دفتر مذكرات مهترئًا، ومزق زاوية من صفحة سيناريو الفيلم وكتب عليها بقلم رصاص باهت. قال بابتسامة مشرقة: «يمكنك تشكيل فريق. أنت ودوفر تعملان معًا؛ أوه، يروقني عدد الصينيين الذين سأحصل عليهم! (ثم نظر بقلق إلى دي وقال) أنت تعرف كيفية استخدام الهاتف، أليس كذلك؟».

قال دي وهو يأخذ الورقة: «نعم، أعرف. شكرًا لك».

- أطلع إلى تعاوننا! سأرافقك للخارج، هل تسمح لي؟

- لا داعي، أنت رجل منشغل. سأجد طريقي بنفسي.

غادر دي عبر الأبواب المزدوجة مرة أخرى وسار في الردهة. عندما وصل إلى الغرفة التي شاهد فيها فيلم «العشَّاب الماكر»، دخل واستعاد سيناريو ما والعلبة التي تحتوي على الفيلم، وأخفاهما تحت سترته.

أمال قبعته تجاه الشابة الجالسة إلى الآلة الكاتبة، والتي بالكاد ألقى نظرة نحوه، ثم غادر الاستوديو.

لم يعد دي من حيث أتى؛ بل واصل السير على طول الواجهة البحرية حتى وصل إلى رصيف يمتد إلى النهر. وعندما وصل إلى نهاية الرصيف، رفع علبة الفيلم وبحركة دائرية قوية رماها بعيداً في نهر التايمز. هبطت بارتطام مرص، وشاهدها وهي تغرق.

قال لي دي لاحقاً، وهو يروي ما فعله: «نهر التايمز نهر قذر، وبإضافة فيلم العشّاب الماكر إلى الحطام الموجود فيه، زدت من مستوى قذارته عدة أضعاف».



الفصل السادس والثلاثون

قضيت فترة بعد الظهر في بحث عقيم عن إبرة صينية في كومة قش في لندن. أخبرني شخصان عن رجل صيني يقيم مع أرملة في حي المتحف البريطاني؛ وفي كلتا المرتين اتضح أنهما كانا يشيران إليّ. كنت أعرف العديد من أصحاب المحلات في المنطقة، واستفسرت منهم، لكن لم يستطع أحد منهم أن يقول إنه رأى وجهًا صينيًا في متجره مؤخرًا غير وجهي. استنتجت أن لو إن سكن قريبًا من هنا، فلا بد أنه متخفٌ بشكل جيد لدرجة أن والدته نفسها لن تتعرف عليه.

في أثناء مواصلة تحقيقاتي غير المثمرة، استمرت في إزعاجي فكرة أن شيئًا ما قد حدث بالفعل، ولم أدرك أهميته. شعرت بهذا الإحساس لأول مرة في حديقة وو، ولم يغادرني قط، رغم أن اللغز لم يكتمل بعد. وفي النهاية، أثبت هذا الانشغال أنه مفيد. بينما كنت أقلب في ذهني

بدقة المحادثات التي أجريتها مع دي ثم مع باوند وويتكليف، لم أتوصل إلى تفسير لشعوري بالقلق، ولكنني اكتشفت شيئاً آخر مختلفاً.

قال باوند، وهو يعاتب ويتكليف، إن المتجر يوفر لِمَا حياة جيدة. ولم يعترض ويتكليف، الذي يعرف المتجر جيداً بحسب باوند. وعند التفكير في الأمر، كان هذا هو رأي مساعد مََا في المتجر، لي زي رونج. ومع ذلك، أخبرتنا الأرملة الشابة أن آمال مََا الكبيرة في المتجر لم تتحقق بعد. كما ذكرت أنه عمل لساعات طويلة في المتجر، بينما كانت نادراً ما تزوره لأن الزبائن تنزعج من رؤيتها هناك؛ في حين قال لي، على العكس من ذلك، إن مََا قضى معظم يومه في مكان آخر.

ماذا يعني هذا؟ أين قضى مََا وقته إذاً؟

تركت بحثي، وبما أنني لست مثل دي، استوقفت سيارة أجرة لتنقلني إلى لايمهاوس.

بدا المتجر السابق لِمَا زي رين مهجوراً، لكن عندما طرقت الباب ظهر وجه خلف الزجاج. بدأ لي زي رونج يلوح بيده ليبعد المزعج، ولكنه عندما رأي، فتح القفل وفتح الباب.

- لاو شيه! يسعدني رؤيتك مجدداً. هل هناك شيء يمكنني مساعدتك به؟ هل يمكنني أن أقدم لك الشاي؟ أنا أنهي المهام الأخيرة هنا قبل أن أعيد المفاتيح إلى المالك.

من خلال الباب المفتوح، رأيت المتجر المغبر يغرق في ظلام كئيب مع أرفف فارغة وأرضيات عارية. لم أدخل، لكنني قلت: «يسعدني رؤيتك أيضاً، يا لي. لن أزعجك بالشاي، لكن لدي سؤال أرغب في طرحه على أرملة مََا. هل لديك عنوانها في نورفولك؟».

- أخشى أنني لا أملك ذلك. نوت في البداية البقاء مع بعض الأقارب حالما تقرر أين ستستقر، ولكن حسب معرفتي، لم تكن قد قررت بعد أي من أقاربها العديدين سيكون مضيفها.
- ألم يكن هناك وجهة مكتوبة على حقائبها؟
- أرسلت لتنتظرها في محطة القطار.
- فهمت. هذا أمر محبط.
- أعتقد أن المشتري لبضائع المتجر، الكولونيل مور، قد يعرف طريقة للتواصل مع السيدة. في مجال الأعمال التجارية، غالبًا ما تظهر أوراق إضافية تحتاج إلى توقيع وأمور مماثلة. من المرجح أنه أراد أن يكون قادرًا على التواصل معها.
- فكرة ممتازة، يا لي. سأذهب لرؤية الكولونيل. وإذا سمحت لي بسؤال آخر، هل فهمت منك بشكل صحيح أن المتجر وفر لمّا زين حياة كريمة، ومع ذلك قلت أيضًا إنه قضي وقتًا قليلًا هنا؟
- نعم، كلا الأمرين صحيح.
- فهمت. هل يمكنك أن تخبرني أين قضي وقته؟
- نظر لي إلى الرصيف ثم عاد بنظره إليّ.
- لا أحب أن أتكلم بسوء عن الموتى.
- حبست أنفاسي.
- بالتأكيد ما زين رين لم يكن يتردد على أوكار الأفيون؟
- أوه، لا، لا! ما زين رين لم يكن له أي ميل للأفيون، ولا حتى للكحول.
- لا، يا لاء، كان ضعيفًا تجاه القمار.

بينما كنت في طريقي بالحافلة إلى منزل الكولونيل ليفينجستون مور في مايفير، استعرضت في ذهني المعلومات التي قدمها لي زي رونج. ربما، كما فكرت، كانت هذه الرحلة غير ضرورية. يمكن تفسير غيابات ما المتكررة عن المتجر وتقاريره لزوجته بأن أحلامه المتعلقة بالمتجر لم تتحقق بعد بالحقيقة المحزنة نفسها: أنه قضى أيامه وبدد أرباحه في محاولات يائسة للعثور على ثروته من خلال سقوط أوراق اللعب، أو صوت قطع الماي جونج، أو نقاط قطعتين من النرد. كان القمار رذيلة لدى الشعب الصيني أقدم بكثير من عادة تعاطي الأفيون التي انتشرت في الآونة الأخيرة. للوهلة الأولى، بدت العادتان متناقضتين تمامًا. فالأفيون يغرق الرجال في الخمول، بينما يدفعهم القمار إلى الجنون والهيياج. لكن الواقع أن كليهما وسيلة للمتحمسين لهما للهروب من ظروفهم الحقيقية والعمل الجاد اللازم لتحسينها، مفضلين عالمًا مثاليًا لا وجود له سوى في خيالاتهم المحمومة.

لم تقتصر أي من هاتين الرذيلتين على أبناء وطني. حتى شخص مرموق مثل الفيكونت وايتكليف كان عبدًا، وإن كان طوعًا، لألعاب الحظ، هذا إن صدق إيزرا باوند. يا لها من مفارقة مأساوية أن «اللعبة الأحدث التي تجتاح لندن»، والتي أسرت وايتكليف بشدة -لعبة ماي-جونج سريعة الحركة ببطاقتها الجميلة التي تصور المناظر الطبيعية الصينية- هي نفسها التي خسر فيها ما زي رين أمواله بسرعة كما كسبها، وفقًا لما أخبرني به لي.

ترجلت من الحافلة في مايفير وسرت المسافة القصيرة إلى منزل الكولونيل ليفينجستون مور في ساحة بيركلي. حوّلت شمس ما بعد الظهيرة المتأخرة الحجر الباهت للواجهة إلى لون عسلي غني وبرزت حواف الحصان المجنح فوق الباب. في الحديقة عبر الشارع، أظهر

العشب والأشجار المتفتحة درجات لا حصر لها من اللون الأخضر. رفعت الحَلقة من فم الأسد البرونزي وطرقت الباب. في وقت قصير، قادني كبير الخدم الهادئ إلى مكتب الكولونيل.

قال الكولونيل ذو الوجه الأحمر متنهّدًا: «آه، سيد.. لاو، أليس كذلك؟ لاو شيء، صحيح! أنت العالم. أتذكرك. جئت لترى مجموعتي مع ذلك السيد الآخر. عدت لتطلع على المزيد، أليس كذلك؟ أخشى أنه لا يوجد شيء جديد. لكن بعض جواهر مجموعتي تستحق نظرة ثانية. تفضل، خذ وقتك».

تجولت نظراتي في الغرفة. كان الكولونيل محقًا؛ لم أر سوى ما رأيته من قبل.

- في الواقع، جئت في مهمة مختلفة، لكن بخصوص مجموعتك؛ لا أفهم. أأست المشتري لمحتويات متجر ما زي رين؟ المتجر فارغ. أين التحف؟

اتسعت عينا الكولونيل مجيبًا: «أوه. حسنًا. بشأن ذلك، نعم.. وضعتها في المخزن! لفترة قصيرة. فقط حتى.. حتى أجد المساحة المناسبة. الأماكن الصحيحة، كما ترى. يجب العثور على الأماكن المناسبة لتحف جميلة كهذه. من المهم جدًّا، نعم بالفعل، يجب عرضها بشكل صحيح، بالفعل. في المخزن، نعم، هذه إجابة سؤالك».

لم أكن بحاجة إلى قدرات دي التحقيق الدقيقة لأدرك أن الرجل يكذب. لكن لماذا؟ قبل أن أتمكن من استجوابه أكثر، قال: «لكن لم تأت إلى هنا لرؤية تحفي في النهاية، أليس كذلك؟ ما الذي يمكنني مساعدتك به، إذًا؟».

- أملت أن تساعدني في العثور على أرملة ما الشابة. لدي بعض الأعمال مع زوجها لم تكتمل بعد.

- لا، لا، آسف، لا أستطيع مساعدتك. ليس لدي أي فكرة عن مكان السيدة...

في تلك اللحظة، فُتح باب الصالون ودخلت السيدة نفسها إلى الغرفة.
- كولونيل...

وعندما رأتني، توقفت. ثم قالت: «أوه. أوه. أنا آسفة، لم أكن أعلم... سأعود لاحقًا...». وبدأت في التراجع للخروج من الباب.

قلت بحزم: «لن تفعلي ذلك، يا سيدة مَـا. جئت هنا لأعرف عنوانك في نورفولك، لكن يبدو أنه على الرغم مما أخبرتني به أنا ولي ودي، لم تذهبي إلى نورفولك! قال الكولونيل للتو إنه لا يعرف مكانك، ومع ذلك ها أنت هنا في هذا البيت بالذات. أطالب بمعرفة ما الذي يدور بينكما!».

أشك أنهم كانوا سيبوحون لي بأي شيء دون مزيد من الإقناع، الذي كنت أحاول تبنيّه. ومع ذلك، لم أضطر إلى تقديم أي سبب مقنع لأرملة مَـا أو للكولونيل ليفينجستون مور لتفسير موقفهما، إذ تلقيت ضربة قوية على مؤخرة رأسي، وسرعان ما غرق كل شيء في الظلام.



الفصل السابع والثلاثون

في أثناء تعرضي لبعض المتاعب في منزل الكولونيل ليفينجستون مور، كان دي في مكان آخر. ولأن وعيي أيضًا في تلك اللحظة كان في مكان آخر، سنتبع الآن خطوات دي حتى اللحظة التي تلاقت فيها طرقنا مجددًا.



شاهد دي علبة الفيلم تغرق في مياه نهر التايمز البنية. ثم استدار ومشى بعيدًا عن الرصيف. كانت مهمته الأولى هي العثور على كشك هاتف. لم يكن في المنطقة المحيطة بأستوديو التصوير أي وسيلة للاتصال، لكن بما أن دي كان متجهًا إلى ويست إند على أي حال، فقد اتجه في ذلك الاتجاه. «كان لديّ (كما أخبرني لاحقًا) نظريتان أردت اختبارهما». (وهنا أود أن أضيف، بامتنان، أن اختباره كان موفقًا، إذ تبين أن كلا النظريتين صحيحتان). سرعان ما وصل إلى شوارع أكثر

تحضرًا، وعثر على أحد تلك الأكشاك البيضاء الأنيقة. دخل، وأسقط بنسين في الفتحة، ورفع السماعة من مكانها، واتصل بالرقم الذي أعطي له.

أولاً سمع صوت الصفارات، ثم صوت رجل يقول: «نايتسبريدج 4323».

لاختبار نظريته الأولى، تظاهر دي بالتحدث بلكنة فرنسية قائلًا: «بونجور⁽¹⁾. هذا الكونت جوارد يتحدث. أود التحدث إلى الفيكونت وايتكليف، سيل فو بليه⁽²⁾».

- أوه، عذرًا، يا سيدي، إنه بالخارج.
- أوه، كيل دوماج⁽³⁾. اتصلت لدعوة الفيكونت إلى حفل في حديقتي. سيأتي إليّ بعض من... بنات أخواتي... من باريس. أعتقد أن الفيكونت سيستمتع كثيرًا في مثل هذه الأمسية.

- أوه، أنا متأكد أنك على حق، يا سيدي. ربما تود أن تترك لي التفاصيل؟ سأحرص على إخبار الفيكونت فور عودته.

- لا، لا، ترك دعوة في رسالة هاتفية؟ تريه فولجير، مون آمي⁽⁴⁾. سأرسل بطاقة دعوة. الفيكونت يسكن في 17 هالكين بليس، نس باه⁽⁵⁾؟

اخترع دي هذا العنوان من الهواء.

(1) صباح الخير بالفرنسية. (الترجمة)

(2) من فضلك بالفرنسية. (الترجمة)

(3) يا للأسف بالفرنسية. (الترجمة)

(4) هذا مبتذل جدًّا، يا صديقي. (الترجمة)

(5) أليس كذلك. (الترجمة)

- أوه، آسف، يا سيدي، هذا ليس صحيحًا على الإطلاق. سأعطيك
العنوان الصحيح، إذا سمحت لي؟
ثم أعطى خادم الفيكونت العنوان الصحيح للكونت الزائف.

سألته لاحقًا: «لكن، يا دي، ما الذي دفعك أولًا إلى الاعتقاد أن
الفيكونت هو من جنده؟».

- وُصف بأنه رجل أنيق يرتدي خاتمًا صغيرًا في خنصره. مناسب
هذا الوصف وابتكليف، وعلمنا أنه يعرف ما. وعندما سمعت أن
المجنّد يستخدم اسم دوفر...

صرخت: «المنحدرات البيضاء في دوفر⁽¹⁾!».

ابتسم دي بجفاء قائلاً: «بالضبط. قد يتوقع المرء مزيدًا من الإبداع
من شاعر، ولكن كما اتضح، تحطمت تلك الآمال».

تلك التوضيحات جاءت لاحقًا، كما قلت. بعد أن أعرب عن شكره
وغادر كشك الهاتف، شرع دي في اختبار نظريته الثانية.

تقع شقة الفيكونت في لندن في منزل بلاكتورن، وهو قصر مشيد
من الحجر الجيري والطوب بُني قبل بضع سنوات من الحرب. من
السهل أن يخطئ المرء ويظن أن هذا المبنى الضخم هو منزل المدينة
لدوق أو إيرل، أحد أعضاء طبقة ملاك الأراضي الذين يتطلعون إلى
إقامة في المدينة تعكس روعة ممتلكاتهم الريفية. في الواقع، صُمم

(1) المعنى الحرفي لاسم وابتكليف هو المنحدرات البيضاء، والتي تتواجد في منطقة
دوفر. (المتجمة)

منزل بلاكتورن لإثارة مثل هذا الانطباع. في الحقيقة، ضم المبنى المكون من أربعة طوابق أربع عشرة شقة، بالإضافة إلى غرف للخدم في طابق السندرة. وهكذا، يمكن للشبان الأثرياء الحصول على عنوان في نايتسبريدج بتكلفة أقل بكثير من تكلفة امتلاك منزل كامل، بما في ذلك الخدم، في لندن.

حقيقة أن وايتكليف قطن شقة في منزل بلاكتورن بدلاً من قصر أكبر وأكثر فخامة، أشارت لدي إلى صحة نظريته. لاختبارها بشكل أكبر، احتاج إلى الوصول إلى مسكن الشاب. دخل عبر الباب الكبير المصنوع من الحديد والزجاج، وبإعادة تبني هيئة رجل الأعمال ونبرة الأرستقراطي، سأل رجلاً مهيباً خلف منضدة رخامية عما إذا كان الفيكونت وايتكليف في المنزل.

- لا، يا سيدي، الفيكونت بالخارج.

قال دي، رغم أنه كان يعني عكس ذلك تماماً: «يا للأسف، ربما يكون خادمه في المنزل؟».

- لا أدري، يا سيدي. يمكنني الاتصال به هاتفياً إذا أردت.

- إذا تكلمت. ترك لي سجادة لفحصها، كما ترى. إنها قطعة صغيرة لكنها ذات قيمة استثنائية. الفيكونت لديه عين خبيرة! هذه السجادة تحتاج إلى إصلاح، وبما أن متجري؛ حسنًا، التواضع يمنعني، لكن الفيكونت يثق بنا ونسعى جاهدين لنيل رضاه.

- باسم من، يا سيدي؟

- تشانج. لي تشانج.

رفع الرجل المهيب سماعة الهاتف الموضوع على المنضدة الرخامية. اتصل، وتحدث بعبارات رسمية، وبعد انتهاء مكالمته، أخبر دي أن خادم الفيكونت سيستقبله في الطابق الثاني.

دخل دي المصعد. نظر إليه العامل بريية وأغلق القفص، وبدأت الآلة ترفعهم ببطء عبر الفراغ وسط الدرج الواسع. عند وصولهما، منح دي الرجل شلناً لتحسين نظرته تجاه العرق الصيني. خرج دي إلى ردهة فسيحة وفاخرة تحيط بها أربعة أبواب، ليجد رجلاً مهيباً آخر ينتظره عند الباب الوحيد المفتوح.

- السيد تشانج؟

لم يكن من المستغرب أن يكون صوت الرجل هو نفسه الذي سمعه دي عبر سماعة الهاتف في الكشك.

- نعم.

قدم دي انحناءة عميقة ومتواضعة، وارتسمت على وجهه ابتسامة لزجة.

- جئت لأفحص سجادة نينجشيا الجديدة التي اقتناها الفيكونت، لتحديد تكلفة الإصلاحات.

قال الخادم بتجهم: «أنا آسف. لم يترك لي الفيكونت أي تعليمات بهذا الشأن».

لاحظ دي، دون أي مفاجأة، كيف أن موقف الرجل تجاه لي تشانج كان مختلفاً عن تعامله مع الكونت جوارد.

- أوه، يا للأسف. كان الفيكونت حريصاً جداً على أن أفحصها. إنها إحدى مقتنياته الجديدة. من متجر مغلق حديثاً في لايمهاوس، حسب ما فهمت.

- فهتمت. تسلمنا محتويات ذلك المتجر، لكن معظمها لا تزال في الصناديق حتى يتسنى للفيكونت فرصة تحديد مكانها. يمكنك رؤية بعضها بنفسك. (تراجع الرجل، ليسمح لدي برؤية المشهد دون الدخول) لكن حتى هذه اللحظة لم ن فك تغليف أي من السجاد. قال دي، الذي رأى في تلك اللوحة الوجيزة بالفعل ما يكفي: «فهتمت. حسنًا، أعتقد أن الفيكونت سيتواصل معي مجددًا. شكرًا لك». استدار بسرعة وغادر عبر الدرج المفروش بالسجاد، متجاهلاً عبارة قالها الخادم: «هل أستطيع...». رفع قبعته وهو يسير عبر قاعة المدخل، مما أثار دهشة الرجل المهيب خلف المنضدة الرخامية.

لم يكن الكولونيل ليفينجستون مور هو من اشترى محتويات متجر السيد ما بسعر زهيد، بل الفيكونت وايتكليف. كانت هذه نظرية دي، والتي تأكدت عندما رأى بعض التحف المألوفة مصفوفة بالفعل على رفوف منزل الفيكونت. اشتبه دي في أن وايتكليف قد تعرض لأوقات عصيبة، ربما بسبب ولعه بالمقامرة. بيع كنوز السيد ما يمكن أن يقطع شوطًا كبيرًا في تسوية ديون وايتكليف. وحتى يتم ذلك، جنى وايتكليف بعض المال من خلال الأجر الذي يتقاضاه مقابل توفير رجال صينيين لشركة برينسلي بيكتشرز.

وضعت هذه الحقائق وفاة السيد ما في ضوء جديد تمامًا، حيث أشارت إلى أن قتل السيد ما وجرائم قتل الرجال الآخرين قد تنبع من دوافع مختلفة. إذا كان هذا صحيحًا، فقد يكون هناك أكثر من قاتل متورط.

نظرًا إلى أنه لم يعثر على الفيكونت وايتكليف، وجب استجواب الكولونيل مور حول هذا الموضوع. لذلك، توجه دي مسرعًا إلى منزل الكولونيل في مايفير.



الفصل الثامن والثلاثون

استعدت وعيي في ذلك المنزل نفسه في مايفير، رغم شعوري بعدم الاتزان.

فتحت عيني مع إحساس وكأن حدادًا يضرب بمطرقة على السندان داخل رأسي. رأيت أمامي أربعة أشخاص يتحدثون بجدية فيما بينهم. عند أقدامهم جلس قطّان رماديان كبيران يهزان ذيليهما. سرعان ما أدركت أنني أراهم جميعًا بشكل مزدوج؛ فلا بد أنهم في الواقع شخصان وقط واحد، ورؤيتي المزدوجة ربما تكون مرتبطة بالخفقان في جمجمتي. شعرت بالرضا عن نفسي لهذا الاستنتاج المنطقي، ثم واجهت اللغز التالي حول من يمكن أن يكونا. كان الرجل الكبير واضحًا: إنه الكولونيل ليفينجستون مور، الذي أتذكر أنني دخلت إلى غرفة جلوسه. السيدة... يا إلهي، إنها أرملة ما الشابة! نعم، نعم. وصلت بعدي وتفاجأت لرؤيتي كما تفاجأت لرؤيتها. أردت سؤالها عن شيء.

لا أستطيع تذكر ما هو، لكن ربما إذا اقتربت منها؟ حاولت النهوض من الكرسي الذي كنت أجلس عليه ووجدت نفسي غير قادر على الحركة. رغم أن هذا ليس صحيحًا تمامًا: كنت أستطيع التحرك بعض الشيء، لكنني لم أستطع الوقوف.

نظرت إلى معصميَّ ووجدت كل واحد منهما مربوطًا بذراع الكرسي بحبل حريري. يا له من أمر غريب. ماذا يمكن أن يعني هذا؟ هل أصبت بنوبة جعلتني أسقط وأصدم رأسي؟ هل قيدني مضيقي في محاولة لمنع مزيد من الأذى؟

أوشكت على لفت انتباه الكولونيل مور وأرملة ما إلى حقيقة أنني استيقظت وأود الحصول على تفسير لوضعي، عندما سمعت السيدة تقول بلهفة: «لا يمكننا قتله! لن أسمح بذلك!».

- لن تسمح بذلك؟ هل ترين خيارًا آخر؟

لم يأتِ هذين السؤالين من الكولونيل مور، بل من شخصين آخرين دخلا مجال رؤيتي. مرة أخرى، أدركت فورًا أنهما شخص واحد، وكان هذا الشخص هو الفيكونت وايتكليف. وايتكليف هنا؟ مع الكولونيل والسيدة ما؟ ومن كانوا يناقشون قتله أو عدم قتله؟ ازدادت حيرتي بسرعة.

صرخت الأرملة: «لا أريد أن أكون جزءًا من هذا! كان خطأً من البداية».

رد الفيكونت: «لا تكوني سخيفة. كل هذا كان من أجلك. هل اعتقدت حقًا أنني سأسمح لرجل صيني بتربية طفلي؟».

- لم يكن عليَّ أن أسمح لك بالاقتراب مني.

- لكنك فعلت. أردتني بقدر ما أردتُك.

اندماج الفيكونتان والأرملتان أمامي.

قالت وهي تدفعه بعيداً: «لا! كانت لدي... احتياجات، وكنت ضعيفة. كان زوجي رجلاً طيباً».

قال وايتكليف بازدرء: «زوجك، لم يكن رجلاً بحق. لو كان كذلك...».

- توقفا عن هذا، أنتما الاثنان! (جاء ذلك النباح من الكولونيل مور) ما حدث قد حدث. لا يهمني شجاركما العاطفي، على الإطلاق. السؤال هو، ماذا سنفعل الآن مع هذا الرجل (وأشار برأسه نحو) والرجل الآخر؟ الذكي.

ماذا سنفعل الآن مع هذا الرجل؟ تجمد الدم في عروقي فجأة. الرجل الذي يناقشون قتله أو عدم قتله؛ هل يمكن أن يكون أنا؟ قلت: «مهلاً، هل يمكن لأحدكم أن يفك وثاقي ويشرح لي ما يحدث؟».

صاح الفيكونت، مستديراً لمواجهتي: «آه! رائع! لقد سمعنا. جميل جداً. الآن يعرف أكثر من أي وقت مضى. وأعتقد أنك ستسمحين له بالمغادرة ببساطة؟».

قالت السيدة: «لن أسمح لك بقتله».

- لا يوجد خيار آخر!

صاح الكولونيل مرة أخرى: «أغبياء! كلاكما. بالطبع هناك طريقة أخرى. السيدة على حق، يا وايتكليف. لا يمكننا قتله. إنه عالم، ومعروف في بعض الأوساط. موت الصينيين من حولنا لا يثير الكثير من الانتباه، لكن هذا الرجل، إذا وجدوه ملقى في زقاق، سيثير بعض الدهشة. لا، لا. لا يمكننا فعل ذلك».

أكدت، متمنيًا أن أبدو أكثر شجاعة مما أشعر: «آمل حقًا ألا تفعلوا ذلك! فكوا وثاقي في الحال».

قال الكولونيل: «قريبًا جدًّا».

سار إلى الجانب الآخر من الغرفة، خارج نطاق رؤيتي، وسمعت أصوات فتح وإغلاق درج. جاءت أصوات أخرى لم أتمكن من تمييزها. عندما ظهر مجددًا، حاملًا حقنة.

- هنا، يا وايتكليف. ستقوم بالأمر.

سأل الفيكونت: «ما هذا؟».

- إنه الأفيون، يا رجل! سنحقنه به ثم نطلق سراحه. صيني يجده الناس يتجول في الشوارع تحت تأثير الأفيون، من سيصدق كلمة مما يقول؟ مؤامرات في ساحة بيركلي، فيكونت يقتل تاجرًا صينيًا، أرملة تنتظر مولودًا، لا، لا، سواء كان مثقفًا أم لا، سيصبح الآن مجرد مدمن أفيون، مثل الباقين! لن يهتم به أحد. سيكون محظوظًا إذا لم ينته به الأمر في سجن بريكستون. الآن، افعل ذلك.

تجمدت دمائي، التي بالفعل كانت باردة، كليًا. لا. لا! الموت نفسه سيكون أفضل من ذلك! أن يُنظر إليّ كصيني آخر ضعيف الإرادة لا يستطيع مقاومة هذا الطاعون الدنيء؟ أن أقدم تأكيدًا آخر على الصورة المشوهة التي يحملها الكثير من الغربيين عن العرق الصيني؟ عجزت عن الكلام من شدة رعبي.

ابتسم الفيكونت ابتسامة قاسية وأخذ الحقنة من يد الكولونيل. خُيل إليّ أنني رأيت نظرة قلق، بل وتعاطف، على ملامح الأرملة الشابة، لكنها

لم تتحرك لتتدخل بينما رفع الفيكونت كم قميصي وغرس الإبرة في وريد معصمي المقيد.

في البداية، لم أشعر بشيء سوى وخز الحقنة. لكن في غضون لحظات، تلاشى كل خوفي. اندفع بداخلي شعور عظيم بالسلام والاسترخاء لم أعرفه من قبل. تلاشت كل همومي في هدوء وانسجام. غمرتني السعادة من كل جانب، واختفى الضيق إلى مكان بعيد بحيث بالكاد أستطيع تذكره.

نظرت بدهشة إلى الوجوه الثلاثة التي تحديق إليّ. يا لهم من أشخاص طيبين، هؤلاء، قدموا لي هدية عظيمة.

يا للأفيون! إذا كان هذا هو تأثيرك، كم كنت مخطئًا في انتقادك، في تشويه سمعة متعاطيك، في احتقار أتباعك. أي أحمق يمكنه أن يفشل في رؤية مجدك؟ شعرت بالخجل.

دي! يجب أن أعذر لدي. يجب أن أجده وأطلب منه الصفح لعدم فهمي. سأذهب فورًا! لكن رغم محاولتي الوقوف، لم أستطع. نظرت إلى ذراعي وساقِي. لم يعد هناك شيء يقيدني الآن سوى ثقل في أطرافي. رأيت على السجادة ثعبانين، واحدًا على كل جانب من كرسيي، جميلين كالحبال الحريرية. كانت الأزهار في السجادة نفسها مثيرة، تتحرك برفق في نسيم دافئ لطيف. كنت متعبًا. حسنًا. ربما أستريح الآن، وأذهب لاحقًا. سأجد دي عندما أستطيع الوقوف.

دي! لكنه هنا! يا للعجب! صديقي، يندفع إلى الغرفة عبر الباب المفتوح وكأنه علم بمدى رغبتِي في رؤيته. حلق حوله، إليّ وإلى الآخرين. ابتسمت وحاولت التحدث إليه، لكن لسانِي لم يستجب. رأيت الكولونيل يعترض طريق دي. أمسك الكولونيل بملقط المدفأة. كم هو

غريب؛ فالיום دافئ جدًا لإشعال النار. رفع الملقط فوق رأسه وهوى به. انحرف دي جانبًا بسرعة، وانتزع الملقط من يده، وضرب بحافة كفه عنق الرجل السمين. سقط الكولونيل على ركبتيه بصوت مدو. وبعد لحظة، سقط وجهه على السجادة. تحرك قليلًا، ثم استقر، وبدأ يشخر. من مقعدي، راقبت هذا النشاط ببهجة، كأنني أشاهد مسرحية. نظر إليّ دي بقلق وعدم فهم. لم يكن لديه الكثير من الوقت ليفكر في وضعي، لأن الفيكونت وايتكليف تقدم نحوه، رافعًا قبضتيه.



الفصل التاسع والثلاثون

دعنا الآن ننتقل مؤقتاً إلى منظور دي للأحداث، لنسترجع الأحداث قبل عشرين دقيقة أو نحو ذلك حتى أعود إلى مسرح الأحداث. ففي هذه اللحظة تطورت العديد من الأمور.

اجتاز دي ساحة بيركلي متجهاً نحو منزل الكولونيل مور. توقف للحظة قبل عبور الشارع وألقى نظرة حوله. بدت له هذه المنطقة من الحديقة مألوفة. وبينما يحاول استرجاع السبب، وقف عند حافة العشب، محدقاً إلى مسكن الكولونيل على الجانب الآخر من الطريق. انجذبت عيناه نحو الجزء العلوي فوق الباب، حيث كشف الحصان المجنح عن مخالفته.

غمرته فجأة ذاكرة غابرة. في مخيلته كان مستلقياً على العشب، هنا في هذا المكان بالضبط. اقترب وجه امرأة، وجه أرملة ما، منه؛

ثم، بتعبير مروع، تراجعت بسرعة وركضت عبر الشارع إلى فم وحش عملاق.

الحصان المجنح؛ كان هذا هو الوحش! أدرك دي تمامًا أنه كان في أعماق هלוسة الأفيون عندما شاهد هذا المشهد، لكنه الآن يعي أن الكثير مما حدث في تلك الليلة لم يكن وهمًا. في الحقيقة، رأته الأرملة الشابة وهو مستلقٍ هنا. الرعب الذي ارتسم على وجهها لم يكن خوفًا على حالته، كما تخيل -يا لغرور الإنسان!- بل كان خوفًا من أن يكون قد تعرف عليها، هي التي كان من المفترض أن تكون في طريقها إلى نورفولك.

أدرك أيضًا أن المفوض لين، سواء كان تجسيدًا طيفيًا أو كما اعتقد هونج نتيجة محاولة عقل دي في التأكيد على ما كان يعرفه بالفعل، تحدث حرفيًا عندما قال إن دي كان غارقًا في أعماق حلم الأفيون لدرجة أنه لم يستطع رؤية ما وقع أمام عينيه مباشرة.

عبر دي الشارع مسرعًا، لاعنًا نفسه لعدم امتلاكه الفطنة للتمييز بين الحقيقة والحلم من قبل. لو تمكن من التمييز، لربما وصل إلى استنتاجاته الحالية في وقت أبكر بكثير. عند شقة الفيكونت، عندما اكتشف الوجهة الحقيقية لمحتويات متجر ما، اعتقد دي أن الأرملة ضحية مؤامرة دبَّرها الكولونيل مور والفيكونت. لكن وجودها المستمر في لندن ومعرفتها بمنزل الكولونيل جعله يعيد التفكير في اتجاه مختلف تمامًا.

وهكذا، وصل دي بعد لحظات إلى عتبة باب الكولونيل، غير مدرك للأحداث الجارية بالداخل والتي تتعلق بي. لكنه طرق حلقة الأسد البرونزية بشدة وعجلة. عندما فتح له الخادم بيركنز، الذي غفل بدوره عن الوضع في غرفة الجلوس، أدخله إلى المنزل وأرشده إلى تلك الغرفة.

هناك، توقف كلاهما متجمدين في مكانهما أمام المشهد الذي انكشف لهما عند فتح الباب.

استعاد دي رباطة جأشه على الفور، وأمر الخادم: «استدع الشرطة!». - ولكن يا سيدي...

زأر دي بصوت آتٍ من ميدان المعركة: «الشرطة!».

هرب الخادم مسرعاً عبر الردهة إلى الهاتف. اندفع دي إلى الغرفة بقوة. كان الكولونيل مور الأقرب إليه، فانتزع ملقط المدفأة بعجلة. انتظر دي حتى يرفع الكولونيل الملقط فوق رأسه، وعندما بدأ بالهبوط، قفز دي جانباً بخفة. تعثر الكولونيل، غير قادر على إيقاف اندفاعه للأمام الذي زاد بوزن الملقط. كانت رقبته مكشوفة، فوجه دي ضربة قوية إلى عنقه أسقطت الرجل الضخم أرضاً في لحظة.

قال وايتكليف بصوت مفعم بالسخرية كحد السيف: «أوه، لقد قاتلت ببراعة! والآن بعدما انتهيت من العرض الهزلي، أرفع الستار عن العرض الرئيسي!».

حول دي انتباهه بسرعة إلى وايتكليف. بمهارة الملاكمة البريطانية الكلاسيكية، هجم وايتكليف على دي بلكمة يسارية متبوعة بضربة يمينية. تصدى دي للهجوم ببراعة من اليمين واليسار، واستدار بحركة خاطفة، حاول عرقلته بقدمه، ثم أتبعها بركلة خفيفة بكعب قدمه الأيسر تشبه ذيل النمر. تفادى الفيكونت الحركة بسهولة وتجاهل الركلة، متبسماً بازدراء: «أنت سريع الحركة بالنسبة إلى رجل صيني».

حاولت أن أرفع صوتي اعتراضاً على هذه الإهانة الجارحة، لكن صوتي خذلني وأبى أن يرتفع.

عاد الفيكونت للهجوم مجددًا، متظاهراً بتسديد لكمة جهة اليسار لكنه أتى بلكمة جهة اليمين. تصدى دي للضربة منحنيًا. رد وايتكليف سريعًا بضربة علوية يسارية قوية حاول دي تفاديها بنقل وزن جسمه جانبًا. ازدادت المباراة إثارة! رفع دي قدمه اليمنى وصد ضربة يد وايتكليف اليسرى بيده اليمنى. قفز ووجّه ضربة كف النمر إلى صدغ وايتكليف، مما جعل الفيكونت يترنح. أتبعها بلكمة دفع يمينية، لكن صدها وايتكليف. وجه ضربة يسرى من الأسفل وضربة قوية من الأعلى بيده اليمنى خدشت ذقن دي.

تراجع دي إلى الخلف وهز رأسه. تحدث إلى وايتكليف قائلاً: «أنت من قتل ما، بدافع الغيرة والجشع معًا».

رد الفيكونت بابتسامة: «الجشع، بالتأكيد. ورعب من فكرة أن يُربى طفلي على يد رجل صيني. لكن لم يكن لدي أي سبب للغيرة».

- كان ما متزوجًا من حبيبته.

- بالطبع، ولهذا السبب أصبحت حبيبتي. ما كان غير قادر...

قاطعته دي: «أعلم. كنت معه في فرنسا. أصيب بتلك الجروح في أثناء مساعدته لإنجلترا في كسب الحرب».

رد وايتكليف بسخرية: «عن طريق حفر الخنادق».

أجاب دي: «ليحارب فيها الجنود البريطانيون. وإصلاح شاحناتهم، وبناء ثكناتهم، وتحميل أسلحتهم».

قال الفيكونت ببرود: «وقد تلقى أجرًا جيدًا مقابل ذلك. وهذا يجعله مرتزقًا. وبصفتي إنجليزي وطني، لا أجد فائدة من المرتزقة».

- ما تسميه وطنية هو مجرد أمر فارغ، ومهين لأي وطني حقيقي في أي بلد على وجه الأرض.

انقض دي على الفيكونت. بخفة ورشاقة، تجنب وايتكليف ضربات دي، وقفز بخفة إلى الخلف ليتركز خلف كرسيه! هل سأكون الآن جزءاً من هذا القتال؟ وما هي خطوتي التالية؟

لم يكن لدي وقت للتفكير في الأمر؛ فقد تقرر مصيري نيابة عني. انحنى وايتكليف وأطلق سلسلة سريعة من اللكمات، لكن تصدى دي لها جميعاً. اعتقد وايتكليف بلا شك أن دي لن يهاجم وأنا في مسار ضرباته.

كان محقاً. طرحني دي أرضاً.

من مكاني الجديد على السجادة، رأيت دي يقفز ويوجه ركلة هلالية عالية إلى رأس وايتكليف. انحنى الفيكونت لتفاديها. لكن الركلة الهلالية كانت مجرد خدعة! أطلق دي ركلة دفع قوية ألقت بوايتكليف المنحني للخلف عدة أقدام. آه، أحسنت يا دي!

ترنح وايتكليف لكنه لم يسقط. هاجم مرة أخرى بمجموعة من الضربات اليسارية واليمينية. تراجع دي قليلاً لامتصاص الصدمة، فصد الضربة الأولى وأبعد الثانية بمخالب نمر يساري. ثم أطلق ضربة نمر يمنى نحو رأس وايتكليف، لكن الأخير انحنى وتفادى الضربة، محاولاً الهجوم بيده اليمنى. صد دي الهجوم واندفع نحو وايتكليف بضربتين متتاليتين بمخالب النمر اليسرى واليمنى، أصابت فكاه وأحدثت خدوشاً في وجهه.

ثم انفصل الاثنان عن بعضهما.

في تلك اللحظة الهادئة، سمعت صوت القط الرمادي، الذي حلق إلى عيني بينما كنت مستلقياً على السجادة. قال: «يتحدثون عن الوطنيين على الأرض. للوطنية معانٍ عديدة في أماكن مختلفة». وأشار بذيله نحو الأعلى.

نظرت إلى الأعلى، فرأيت أن سقف الغرفة قد اختفى. وفي الأعلى، حلقت العديد من القطط الضخمة في دائرة، تتبعهم النجوم من الخلف، وهم يقولون: «نحن من المريخ. جئنا لنراقب سكان الأرض».

قلت لهم: «يا للروعة، أنتم مرحب بكم للغاية».

- هذا لطف منك. ندعوك لزيارتنا يومًا في بلد القطط على المريخ، حيث يمكنك مراقبتنا.

- سأكون سعيدًا بفعل ذلك.

في تلك اللحظة، عاد انتباهي إلى الغرفة حيث كنت مستلقيًا، لأن صديقي تحدث.

سأل دي، ودهشت لسماعه يلهث: «وماذا عن الآخرين؟ هل قتلتهم أيضًا؟».

واضعًا يديه على ركبتيه ملتقطًا أنفاسه بصعوبة، سخر وايتكليف من دي مجيبًا: «لماذا أفعل ذلك؟ ما الذي سأجنيه؟ موت ما أعاد لي طفلي، وأعتقد أنه حمّلي بعبء والدته، لكنها فتاة رائعة، أليس كذلك؟ بالطبع لا يمكنني الزواج منها. لكنني رجل نبيل. سأعترف بالطفل وسأوفر له مربية، وهذا يجب أن يناسب الجميع».

غطت أرملة ما الشابة، التي بالكاد استطعت رؤيتها وهي تحوم في الهواء الضبابي عند نهاية الغرفة، فمها بيدها.

تابع دي قائلاً: «وكذلك، بموت ما، حصلت على محتويات متجره، التي تنوي بيعها لتخلص نفسك من أزمك المالية».

- بالتأكيد. سأعطي بعضها لصديقي مور هنا - وأشار إلى الكتلة النائمة بجواري على الأرض - لتأديته دور شايлок في معاملتنا، حيث كانت أمواله... مستنزفة.

- بسبب المقامرة. حيث التقيت ما في أحد الأوكار المشبوهة. همس القط الرمادي لي: «أعتقد أن دي يحاول تشتيت انتباه الفيكونت بهذه الاستفزازات».

أجبت بهدوء: «حقاً؟ هل يمكننا القول إن استراتيجيته ناجحة؟». هسهس القط: «لا». قفز إلى الجانب الآخر مني بحثاً عن الأمان عندما اقترب وابتكليف.

قال وابتكليف رداً على تعليق دي: «أوه، مشبوهة؟ نادي «سكند سنز» هو مؤسسة محترمة للغاية بالنسبة إلى صالة قمار. في الواقع، إنه الأقدم في لندن وقد عمل منذ أكثر من مئة عام».

أجاب دي: «وهذا لا يثبت سوى أن هذه الرذيلة متجذرة بعمق في ثقافتكم».

- وبشكل أعمق في ثقافتكم. رغم عراقة المكان، فقد حافظ على مواكبته للعصر. «سكند سنز» أول صالة قمار في لندن تقدم لعبة ماي-جونج. كان ما أحد أوائل المتحمسين للعبة. مسكين ما، كان مخلصاً للمقامرة مثلي، ولكن بموارد أقل بكثير.

قال دي: «استنفدت موارده، بلا شك بتشجيع منك، مما سمح لك بإقناعه بالظهور في تلك الأفلام المثيرة للاشمئزاز. الأفلام التي حتى صديقك باوند لا يتحملها».

رد وايتكليف: «أوه، باوند. إنه مغرور بنفسه، ألا توافق؟ لكنك اكتشفت أنني وراء ذلك. يا لك من صيني ذكي. دوفر، وايتكليف؛ فكرة عبقرية، أليس كذلك؟».

- لا، بل كسولة إلى حد ما.

تنهد وايتكليف قائلاً: «أعتقد أنني محظوظ لعدم اهتمامي برأيك. وبالمناسبة، لا تظن أن إقناع ما كان صعباً. نادراً ما قابلت رجلاً متحمساً لتحقيق ثروته دون أن يعمل فعلياً، باستثنائي ربما. إنه لأمر مؤسف حقاً أنني اضطررت لقتله. كان لديه عين ثاقبة للتحف. أما أفضل القطع من متجره، فلن أبيعها أو أسلمها لمور هنا. الكولونيل مغرور ولا يملك أي تمييز. سيصدقني عندما أشرح له قيمة ما يحصل عليه».

- هل ستغش شريكك في هذه الجريمة إذا؟

- بالطبع! أتوقع أن تجد شرفاً بين اللصوص البريطانيين أكثر مما هو موجود بين بني جلدتك؟ (ضحك الفيكونت) لا، سأحتفظ بأفضل القطع لنفسني. الفن الصيني، في النهاية، هو الأرقى في العالم، كما هو حال مطبخكم. من المؤسف أنه، بعد الإطاحة بالإمبراطور بشكل أحق والسقوط الجماعي في فخ الأفيون -أشار إليّ مبتسماً وأنا مستلقٍ على السجادة- أصبح شعبكم منحطاً جداً وغير جدير بما أنتجه أجدادكم عبر القرون.

مرة أخرى، رغبت في الاعتراض، لكنني لم أتمكن من رفع صوتي أو حتى تحريك إصبعي.

اندفع الفيكونت فجأة نحو دي، واستؤنفت المعركة.

هجم وايتكليف بوابل من اللكمات. تمايل دي يمينًا ويسارًا، متفاديًا جميع اللكمات، حتى وجد فرصة للرد. وجه ركلة خاطفة إلى ساق وايتكليف، وفي الوقت نفسه، ضربه بمخلب النمر على وجهه. ثم تبع ذلك بضربة سريعة بيده اليسرى.

تجمد الفيكونت للحظة من الصدمة. اندفع دي نحوه، صادمًا إياه بكتفه وموجهًا ضربة بمخلب النمر إلى منطقته الحساسة. دار دي حول نفسه وأطلق ضربة مرفق طائرة نحو الفك، لكنني تفاجأت عندما رأيته يخطئ الهدف. استقام وايتكليف وابتسم، ولاحظت أن دي تصيب عرقًا بغزارة.

لاحظ صديقي القط الأمر نفسه. قال: «المشكلة، كما أراها، هي أن دي ما زال يعاني من آثار محاولة الإقلاع عن الأفيون الذي سخر منه الفيكونت. إنه ليس في أفضل حالاته».

أجبت: «ربما تكون محقًا. ماذا ينبغي أن نفعل؟».

قال القط: «في رأيي، لا يمكنك ترك الإهانات التي وجهها الفيكونت لشعبك دون رد. أما أنا، فسأبحث عن مخبأ في أعلى الرف».

قفز القط إلى قطعة الأثاث ولف ذيله حول جسده المتكور. أصبحت الأمور الآن متروكة لي. رفعت نفسي حتى جلست منتصبًا، مما تسبب في دوار برأسي. سرعان ما استقامت الغرفة، لكنني رأيت، لدهشتي، أن دي ووايتكليف قد تم استبدالهما. أرهقتهما المعركة بلا شك، فتراجعا ليتيحا المجال لمساعدتهما. جرت المعركة الآن بين تنين صيني بخمسة أصابع، كالمرسوم على راية الإمبراطور، وأسد من شعار النبالة البريطاني.

مستخدمًا الكرسي المقلوب كدعامة، دفعت نفسي إلى وضعية عمودية. رأيت أن الأسد أوشك على التغلب على التنين، الذي بدا مريضًا إلى حد ما. التفت إلى القط، الذي فرد ذيله وأشار إلى مزهرية على الرف أسفل مكان جلوسه. تذكرت تلك المزهرية من الجولة التي قدمها الكولونيل لي ولدي في مجموعته من «الروائع». قال إنها ترجع إلى حقبة مينج، لكنها بالطبع لم تكن كذلك. لاحظت على الفور أن القطعة تفتقر إلى دقة حتى أكثر خزفيات مينج تميزًا. إنها ترجع بوضوح إلى حقبة تشينج، لكنها صممت على طراز مينج. لا بد أنها صنعت للتصدير ولم تُصنع قبل أكثر من خمسين عامًا.

قلت للقط: «فكرة رائعة. شكرًا على الاقتراح». أخذت المزهرية من الرف، عبرت الغرفة، وحطمتها على جمجمة أسد إنجلترا.



الفصل الأربعون

استنزفت عملية تتويج الأسد البريطاني بكنز مينج المزيف ما تبقى لي من قوة. وبغمزة نحو صديقي القط، الذي لعق كفه معبرًا عن موافقته على أفعالي، استلقيت بسعادة على السجادة وأغمضت عيني. وهكذا، سنستأنف الآن القصة من جديد من خلال عيني دي المفتوحتين.

غُطيت السجادة برجال فاقد الوعي، ففحص دي كلاً منهم بحثًا عن علامات الحياة. وعندما تأكد من أنهم ما زالوا يتنفسون، توجه نحو الشخص الوحيد الذي كان واعيًا، الأرملة ما، الجالسة على كرسي في زاوية بعيدة من الغرفة، وهي تبكي.

قالت وهي ترفع وجهها المبتل بالدموع نحو دي: «أنا أشعر بخجل شديد».

سألها دي بنبرة صارمة: «هل اشتركتِ في قتل ما؟».

- لا، لا! روجر - الفيكونت وايتكليف - اشتعل غضبًا عندما أخبرته أنني أحمل طفله. لكن غضبه لم يكن موجهاً نحوي، بل نحو زي رين. قال إن زي رين ليس له حق في هذا الطفل، وأنه سيكون من الفضاعة لو حتى لمس أي طفل من سلالة وايتكليف. تفوه بأشياء مروعة عن شعبك. (جفت دموعها المتجددة) لم يعلم زي رين شيئاً، لم أخبره. وفي يوم من الأيام، عدت من التسوق لأجد الشرطة في المتجر، وزي رين ميتاً على الأرض. عرفت فوراً ما حدث. وبعد مغادرة الشرطة، ذهبت إلى بيت بلاكثورن وواجهت روجر. لم ينكر مطلقاً.

- لكن لماذا لم تخبري السلطات؟

- كنت في حيرة تامة، لم أعلم ماذا أفعل. قال روجر إنه إذا ذهبت إلى الشرطة، سيخبرهم أنه فعل ذلك بناءً على طلبي، وسأذهب إلى السجن أيضاً. سيولد طفلي هناك ويُنتزع مني! قال لي... قال إذا بعث له محتويات المتجر بسعر رخيص، من خلال الكولونيل حتى لا يبدو الأمر مريباً...

- وأيضاً لأن الفيكونت قد استنفد موارده بشكل كبير.

- لم أكن أعرف ذلك حينها. قال إنه إذا فعلت ذلك، سيتزوجني. وبدأت في البكاء مرة أخرى.

قال دي: «من الواضح أن هناك شيئاً آخر لا يملكه، بالإضافة إلى الموارد، وهو أي نية للوفاء بوعده بالزواج منك».

- نعم، سمعته يقول ذلك لك. (بدت محبطة) أترى؟ اعتقدت أن لدي ثلاثة خيارات. إما أن أكون أرملة فقيرة مع طفل، معتمدة على أقاربي في نورفولك؛ وإما أن أكون الفيكوننت وايتكليف، والدة ابن نبيل؛ وإما أن أحاول إبلاغ السلطات بجريمة روجر، وأقضي بقية

حياتي في سجن هولواي! أوه، سيد دي، ماذا كان بوسعي أن أفعل؟

لم يكن على دي أن يجيب على هذا النداء، إذ في تلك اللحظة، دوى طرق عنيف على الباب الأمامي. قاد الخادم، بيركنز (الذي اكتشفنا لاحقاً أنه شاهد المعركة بعينين متسعيتين من المدخل)، أربعة من رجال الشرطة ومفتشين إلى غرفة الجلوس. في هذه الحالة، لم يكن الأمر يتعلق برؤية مزدوجة، بل بسيطرة مزدوجة. كل مفتش، وكان هناك اثنان بالفعل، أحضر معه رجاله من الشرطة. أحد المفتشين، رجل طويل ونحيف، كان غير معروف لدي. أما الآخر فكان الكابتن بارد.

قال بارد، واضعاً يديه على وركيه: «حسنًا! ماذا لدينا هنا؟».

أجاب دي بهدوء: «أيها المفتش، ألا تتجاوز نطاق سلطتك قليلاً؟».

أقر بارد: «هذا من اختصاص المفتش فوكس. مكتبه في سكوتلاند يارد. (كان الحسد جلياً في نبذة صوته) لكن بما أن الأمر يتعلق بالصينيين، استدعيت أيضاً. أمسكوه يا رفاق».

قال فوكس بنبرة هادئة: «لنتروى. (شد بارد على أسنانه بصمت، مما أوحى لدي أن فوكس كان أعلى رتبة) أود سماع رواية الجميع أولاً. أيها الرفاق، تفحصوا حالة السادة الممددين على الأرض، وأنت سيدي -ثم التفت فوكس إلى الخادم- إذا كنت ستتصل بالإسعاف، والذي أعتقد أننا سنحتاجه، ربما يمكننا أن نبدأ مع السيدة».

ملحمة معركة بيركلي سكوير، كما سردها أرملة ما، لم تختلف في جوهرها عن النسخة التي قدمها بيركنز. استجوب المفتشان كل شاهد على حدة في غرفة الطعام، بينما بقي رجال الشرطة مع باقي الحضور، سواء كانوا في وعيهم أو مغشياً عليهم. صحت الأرملة والخادم افتراض

بارد الخاطئ بشأن تورط دي، ووصفوه بدلاً من ذلك كبطل الحكاية. وأوضحت الأرملة أيضًا دور الفيكونت والكولونيل في محنتها.

في الوقت الذي جرت فيه هذه المقابلات، كنتُ أحاول إعادة الاتصال بقطط المريخ، لذا لم أكن على علم بردة فعل دي على خبر تعاطيَّ الأول، وإن لم يكن طوعًا، للأفيون. أتصور أنه قد ابتسم ابتسامة صغيرة، رغم أنه عندما استجوبته لاحقًا حول هذا الموضوع أنكر ذلك بشدة. على أي حال، عندما وصلت سيارة الإسعاف، حُمل الكولونيل مور والفيكونت وايتكليف إليها، أما أنا فلم أكن من ضمنهم.

قال دي للمفتشين: «إذا كانت رواية السيدة للأحداث دقيقة، فسوف يفيق صديقي قريبًا. إذا تفضل السيد بيركنز بإحضار بطانية له -هز الخادم رأسه موافقًا وذهب لإحضار البطانية- لدي نقطة أو نقطتان لمناقشتها معكم، أيها السادة. عندما يكون لـاو جاهزًا، سأرافقه إلى مسكنه».

أجاب المفتش فوكس: «ستطلب منه القدوم إلى سكوتلاند يارد في أقرب وقت ممكن، يا سيدي؟ سنحتاج إلى إفادته».

قال بارد: «فوكس! يجب أن أعترض. هل ستسمح لكلا الرجلين بالمغادرة؟ ما الضمانة بأن أيًا منهما سيظهر مجددًا؟».

أجاب فوكس، مشيرًا إليَّ حيث كنت مستلقيًا: «هذا الرجل، حسب جميع الروايات، أكاديمي معروف وذو سمعة طيبة. أما الآخر -موجهًا إشارة إلى دي- فكما أخبرنا الشاهدين، هو منقذ صديقه والوسيلة التي من خلالها تعرفنا على القاتل. على أي أساس تريد مني احتجازهما؟».

قال بارد متذمرًا، مشيرًا إلى دي: «أعرف ذلك الرجل، لا يمكن الوثوق به».

- إن تصريحًا، حتى لو كان من مفتش في شرطة العاصمة، بأن رجلاً لا يمكن الوثوق به، ليس كافيًا لتبرير اعتقاله. هناك أوقات يجد فيها كل شرطي أن هذا الأمر غير مريح، ولكن هكذا تجري الأمور. ستأكد من أن صديقك سيأتي إلى سكوتلاند يارد، أليس كذلك، يا سيدي؟

كرر فوكس لدي، مع تشديد طفيف على كلمة «سيدي».

قال دي: «نعم، بالطبع. أعتقد أن صباح الغد سيكون مناسبًا؟ أشك في أنه سيكون جاهزًا قبل ذلك. حسنًا، أعدك بذلك. الآن، بشأن نقطة أخرى، (تابع وكأن بارد لا يستشيط غاضبًا) أنا والأرملة ما أخبرناكما أن الفيكونت وايتكليف اعترف بقتل ما زي رين. أنا على استعداد لتصديقه وتصديق السيدة عندما تؤكد أنها لم تكن لها أي علاقة بالجريمة».

قال بارد: «لا تزال شريكة بعد ارتكاب الجريمة».

قال فوكس، وهو يفرك ذقنه المشذب: «ربما، في ضوء الحالة... الحساسة للسيدة، قد نوصي السلطات بالتساهل معها. سيكون ذلك التصرف المسيحي الصحيح، أليس كذلك، يا بارد؟».

بينما تمتم بارد بشيء عن أن المسيحيين لا يتزوجون من الصينيين ثم يقيمون علاقات مع الطبقة الأرستقراطية الصغرى، قال دي لفوكس: «سيكون ذلك تصرفًا نبيلًا، أيها المفتش. لكنني الآن أود لفت انتباهك إلى أمر آخر. الفيكونت ينكر تورطه في قتل الرجال الآخرين الذين شاركوا في التونتين».

قال فوكس: «تونتين؟ جرائم قتل؟ من هم هؤلاء الرجال؟».

قال دي بأدب: «مفتش بارد؟».

أطلق بارد زفرة وبدأ يشرح لزميله عن التونتين والرجال الذين لقوا حتفهم. وأنهى حديثه قائلاً: «أما بالنسبة إلى إنكارات الفيكونت وايتكليف، فمن الطبيعي أن يدعي أنه ليس له علاقة بتلك الوفيات!».

سأل دي: «ولماذا؟ لقد اعترف بارتكاب جريمة قتل واحدة. لا يمكن إعدامه أكثر من مرة. فلماذا لا يعترف، بل ويتفاخر، وهو ما يبدو طبيعته، إذا كان قد ارتكبها جميعاً ونجا منها؟».

قال المفتش فوكس: «نقطة ممتازة. ولكن، إذا لم يكن الفيكونت هو من ارتكب تلك الجرائم الأخرى، فمن فعل؟ هل لديك نظرية؟». أجاب دي: «لا».

ما زلتُ غير واعي، وإلا لذكّرت دي بشكوكنا تجاه الكابتن لو. لم يضيف دي أي شيء حول هذا الموضوع. قال فوكس: «حسناً، في هذه الحالة، أميل إلى الاتفاق مع المفتش بارد. (عندها، أطلق بارد نحيباً) من الطبيعي أن ينكر المرء جريمة. ربما نجده يعترف لاحقاً، أو ربما يعيد النظر في اعترافه السابق ويتراجع عنه. هذه مسألة سنضطر إلى متابعتها مع تطور الأحداث. إذا سمحت لي بالمساعدة في تحقيقك، يا بارد».

اتضح، من النظرة على وجه المفتش بارد عندما غادر الرجلان، أن هذا الطلب لم يكن سوى مجاملة لحفظ ماء الوجه لم يجدها بارد ممتعة على الإطلاق.



الفصل الحادي والأربعون

في النهاية، لم يكن دي هو من رافقني إلى المنزل؛ أو بعبارة أدق، رافقني دي جزءًا من الطريق فقط. عندما استعدت وعيي بما يكفي للرحلة، أَسْتُدْعِي الرقيب هونج. قادنّا الخادم بيركنز إلى غرفة الجلوس الخاصة بالكولونيل، حيث كنت جالسًا على كرسي، لدهشتي الغامضة ولكن السعيدة. أحضر بيركنز لنا جميعًا الشاي، فقال له دي: «أشكرك كثيرًا. أعتذر عن كل هذا الإزعاج. أخشى أنك ستجد نفسك قريبًا بلا عمل».

- نعم، سيدي. حتى لو لم توجه الشرطة تهمةً ضد الكولونيل مور لأي سبب من الأسباب، فإنه بوضوح ليس الرجل النبيل الذي ظننته، وبالتالي لا يمكنني الاستمرار في خدمته. وأيضًا -نظر حوله في الغرفة- الكولونيل لديه ذوق سيئ للغاية في التحف. سأقدم استقالتي إلى محاميهِ فورًا.

- إلى أين ستذهب؟

- أوه، لا تقلق عليّ، يا سيدي. رجل بخبرتي دائماً ما يكون مطلوباً.
أنا وسكوربيون سنجد طريقنا.

- سكوربيون؟

- نعم، يا سيدي. هيا، يا سكوربيون.

تبع القط الرمادي، وذيله مرفوع عالياً، الخادم إلى الخارج. كنت متأكداً من أنني رأيته يغمز لي في أثناء مروره.

بعد أن تناولت الشاي وشعرت أنني قادر على الوقوف - وإن لم يكن ذلك من دون ذراع هونج القوية لأستند إليها - استدعى دي وهونج سيارة أجرة، وتوجهنا إلى منزل السيدة والآنسة ويندل. بينما كنا نقترّب، بدأت أشعر بالقلق بشأن مظهري المتسخ.

قلت لرفيقيّ: «لا أحب أن أظهر بمظهر غير مرتب أمام السيدتين».

قال دي: «سنروي قصة أنك كنت ضحية حادث اصطدام مع سائق متهور. لن تشعر السيدتان إلا بالتعاطف معك».

أخذت نفساً عميقاً وأنا أقول: «آه، شكراً لك. وأيضاً، يا دي، أشعر أنني يجب أن أعذر. عندما وبختك على تعاطيك للأفيون، لم أكن أدرك تأثيرات هذا المخدر. الطريقة السحرية التي يبدد بها، كما تفعل الشمس مع ضباب الصباح، الهموم والمشاكل التي تثقل قلب الإنسان...».

قال هونج: «من فضلك لا تكمل. ستذكر دي بالعديد من الأسباب التي تجعله يستمر في تعاطي هذا المخدر».

- ليس لدي رغبة في ذلك. ولكن بالتأكيد هناك العديد من الأسباب للإقلاع عن تعاطيه.

- هناك سببان فقط، لكن كلاهما مضمون. أحدهما فقدان القدرات، والآخر فقدان الحياة.

ضحك دي وقال: «أيها السادة، يمكنكما الاستمرار في النقاش أو التوقف أو فعل ما تشاءان. توبيخات المفوض لين كافية لي. لقد تخلصت من هذه العادة».

تساءل هونج، مائلاً نحوي ليستفسر: «توبيخات؟ هل تحدثت إلى المفوض أكثر من مرة؟».

- بالكاد تحدثت معه. لكنه تحدث إليّ مرتين، نعم. بدأت أشك أن علاقتنا ستستمر. آه، ها قد وصلنا. هونج، أترك لاو في رعايتك، حيث لم أعد مرحباً بي في منزل عائلة ويندل. سأستقل سيارة الأجرة وألتقي بك في متجرك.

- بما أن لا شك أنك ستتحذ مقررًا لك هناك. حسنًا، سأبقى هنا حتى يغفو لاو مرة أخرى. لا، لاو، لا تعترض. وربما، دي، إذا حضر بعض الزبائن، ستمكن من تلبية احتياجاتهم بأفضل ما يمكنك؟ أجاب دي: «مهاراتي في إدارة المتجر محدودة، ولم أجرب مهاراتي كعشاب من قبل. مع ذلك، سأبذل قصارى جهدي».

- أدين لك بذلك. هيا، يا لاو.

أخرجني هونج من السيارة وأدخلني إلى منزل عائلة ويندل حيث، كما توقعت، أحدثت السيدات ضجة حول إصابتي. قلت لهن مطمئنًا: «أنا بخير تمامًا».

وقد تأثر قلبي بالاهتمام الذي أبدينه نحوي. (أعترف، خاصة ذلك الذي أبدته ماري).

- أو على الأقل، سأكون بخير صباحًا. إذا سُمح للرقيب هونج
بمرافقتي إلى الطابق العلوي...

قالت ماري: «أوه، رقيب هونج، إذن أنت رجل عسكري؟».

أجاب هونج: «كنت كذلك في وقت ما، أما الآن فأنا تاجر هنا في لندن،
وأعيش حياة هادئة دون أحداث. (شعرت بنبرة من السخرية في صوته،
لكن وجهه لم يعكس ذلك. واصل قائلاً): أمل أن يُسمح لي بالبقاء حتى
يستحم لاو شيه ويخلد إلى الراحة. كما أرجو، إذا تكرمت، بإحضار
إبريق من الماء الساخن، فقد جلبت بعض الأعشاب ليستعيد لاو صحته».
قطبت السيدة ويندل جبينها وقالت: «ليست أفيونًا أو أي شيء من
هذا القبيل، أليس كذلك؟».

- بالتأكيد لا.

قالت السيدة، رغم أن نبرتها لا تزال متشككة: «حسنًا. يمكنك تجهيز
الحمام للسيد لاو وسأضع إبريق الماء على النار».

ساعدني هونج في الوصول إلى غرفتي، ووقف بجانبني بينما أستحم
(لم أحتج إلى مساعدة في الانغماس في الماء الساخن، لكنني احتجت
إلى إقناع للنهوض منه)، وعندما استلقيت في سريري، أجبرني على
تناول مشروب جعلني أفهم بشكل مباشر مدى صحة شكاوى دي
السابقة. كنت سأشتكي منه أيضًا، لولا أنني عندما أخذ الكوب من يدي
استلقيت وغرقت في نوم بلا أحلام.

مكتبة

t.me/soramnqraa



الفصل الثاني والأربعون

استيقظت في الصباح بشعور غريب بأنني لم أتحرك طوال الليل. وعندما مددت أطرافني، شعرت بالنشاط والانتعاش. ارتديت ملابسني وكنت على وشك الإسراع إلى الطابق السفلي لتناول الإفطار، إذ كنت جائعًا جدًّا، عندما وجدت ملاحظة على طاولة الزينة. كانت تقول: «اتصل بسكوتلاند يارد. حدد موعدًا لمقابلة المفتش فوكس، لكن لا تذهب هناك فورًا. تعال إلى متجري. هونج».

المفتش فوكس؟ من هو، ولماذا يجب أن أقابله؟ أو لا أقابله؟ حاولت تذكر أحداث اليوم السابق. امتلأ ذهني بصورة ضبابية: إبرة تحت الجلد، الكولونيل، الأرملة مآ، قط رمادي. ققط أخرى في السماء، وأسد إنجلترا؛ هزرت رأسي. لم ينتج عن هذا الفعل سوى ألم في مؤخرة جمجمتي. ربما كان هونج محقًّا في إرشادي للانضمام إليه في المتجر قبل أن أواجه مفتشًا في سكوتلاند يارد.

لكن أولاً، الإفطار.

في طريقي إلى الإفطار، توقفت عند الهاتف في المدخل الأمامي واتبعت تعليمات هونج، محدداً موعداً مع المفتش فوكس في وقت لاحق من اليوم.

غردت ماري عندما دخلت غرفة الطعام: «السيد لاو! كيف تشعر الآن؟».

- أفضل بكثير، شكرًا لك. تبدين رائعة، إذا سمحت لي بقول ذلك.
كانت ترتدي بذلة بلون الفانيلا الزرقاء الفاتحة فوق بلوزة بيضاء مع قوس صغير عند العنق.
- أوه، شكرًا جزيلاً.

ابتسمت ماري ببهجة، وبدأت في دهن الزبدة على التوست لإخفاء ارتباكي المفاجئ، بينما سكبت السيدة ويندل الشاي وبدأنا الإفطار. تناول كل منا وجبته، وكان نصيبي أكبر مما اعتدت عليه. لم يمر هذا الأمر دون تعليق، مما أتاح لي الفرصة لمدح عصيدة السيدة ويندل. (وجدت أن النساء البريطانيات يستمتعن بتلقي المديح على طهيهن، بخلاف سيداتنا الصينيات اللواتي يعتبرن الثناء إحراجاً كبيراً). وقفت السيدة ويندل لتبدأ في إزالة الأطباق من الطاولة، ووقفت معها من باب اللباقة.

وقفت ماري أيضاً قائلة: «يجب أن أغادر الآن. سأتوقف عند الكنيسة لرؤية واشنطن -السيد جونز- في طريقي إلى المتجر. سيد لاو -خطت إلى المدخل لترتدي قبعتها، التي كانت اليوم من نوع كلوتش ناعمة زرقاء بشريط أخضر أنيق- أثق أنك لا تزال تنوي الانضمام إلينا للتعبد يوم الأحد؟».

- نعم، بالتأكيد أنوي ذلك.

- أنا سعيدة بذلك. (ابتسمت ماري، ثم التفتت بعيداً عن المرأة وقالت) أتعلم، نويت التحدث معك بعد قداس الأحد، ولكن تعال معي إلى الصالون الآن لننتحدث.

نتحدث؟ في الصالون؟ أنا وماري؟

دخلنا إلى الصالون.

قالت ماري: «مساء الأمس، بعد أن خلدت للنوم، جلس صديقك السيد هونج معنا لاحتساء الشاي وأخبرنا بتفاصيل حادثك. بدا الأمر مروّعاً! رجل سكير يبيع الخِرْق! يصطدم رأسك المسكين بالأرض بتلك الطريقة - وكل تلك الكدمات-!..».

ارتعاش صوتها أثار في نفسي إحساساً غريباً، لكنه جعلني أخشى أن تغلبها المشاعر قريباً. سارعت لأقول: «أوه، لكنني بخير تماماً الآن، كما ترين».

- نعم، أعلم، وهذا هو مغزى حديثي! سيد لاو، كان من الممكن أن تُقتل. لكنك لم تُصب بأذى. الله يراك. أخبرتك أن لدي بشري سارة. وهذا هو الدليل! الله يحبك!

وقفت أمامي، وعيناها تلمعان.

- أنا... لكن... ما هي البشري السارة؟

- الإنجيل! البشري السارة! أي بشري أعظم من ذلك؟ سيد لاو، منذ أن أخبرتني بنيتك الحضور إلى الكنيسة يوم الأحد، شعرت بأن الله يريدك أن تدرك مدى محبته لك. كما هو مكتوب في لوقا 15:24: «لأن ابني هذا كان ضالاً فوجد». أنتم الصينيون أطلقتم على إمبراطوركم لقب ابن السماء، ولكنه أُطِيح به. أما ابن الله فلا

يمكن أن يُطاح به أبدًا! وأنتم، أيها الشرقيون، الأبناء الضالون. الله يحبك، يا سيد لاو، ويبتهج بعودتك إليه!

عندما سمعت هذا الكلام، أصبت بحيرة تامة ولم أستطع النطق. شعرت فجأة بضعف في ركبتني، بلا شك نتيجة لما مررت به من تجارب أمس. مددت يدي لأستند، وجلست على كرسي. لكنني لم أستطع التصويب بدقة، فاصطدمت بطاولة صغيرة، مما تسبب في تطاير مربعات من الورق المقوى الملون في كل اتجاه. قلت: «أوه! أعذر بشدة!».

- لا، يا سيد لاو، لا تنهض، عليك أن تستريح. سأقوم بذلك. (بدأت ماري تجمع المربعات المتناثرة بسرعة) على أي حال، كنا قد انتهينا من اللعب. خسرت أُمي شلنين لصالحني! هل تعرف هذه اللعبة؟ ماي-جونج؟ إنها الهوس الجديد الذي يجتاح لندن! تحتوي البطاقات على صور جميلة للصين. أهدى حبيبي هذه المجموعة لأُمي. تعرفه، معلم الموسيقى في الكنيسة، واشنطن جونز. ستراه مرة أخرى يوم الأحد. آمل أن تتعرفا جيدًا على بعضكما. أعلم أنكما ستكونان صديقين رائعين. (ثم خفضت صوتها لتحدث بسرية) لا أخفي عنك سرًا، يا سيد لاو، أعتقد أنه على وشك أن يتقدم لخطبتي. وإذا فعل، فأنا أنوي القبول.

قلت بمرارة: «ثم أظهرت لي بطاقة تصور الأزقة في بكين! قالت إنها تجد أجواء الأزقة ساحرة ومرعبة في آن واحد. مرعبة! مسقط رأسي في شارع يلوثرريد».

كنت جالسًا على مقعد في متجر الرقيب هونج، أشرب الشاي وأروي لهونج ودي تفاصيل أحلامي المحطمة.

صب هونج المزيد من الشاي قائلاً: «أتعاطف معك، يا لاو. مما لاحظته، الأنسة ماري ويندل ساحرة بالفعل».

قال دي: «أنا أيضًا آسف جدًا».

- أنت؟ لا أعتقد ذلك. لقد شككت في فرص سعادتي مع ماري منذ البداية.

- كثيرًا ما تبين لي، يا لاو، أنني على حق، ولكنني ندمت على الظروف التي جعلتني كذلك.

تابعت قائلاً: «والقمار! اكتشفت أن السيدتين تراهنتا فيما بينهما على «اللعبة التي تجتاح لندن». اللعبة نفسها التي سمعنا عنها لأول مرة من الفيكونت وايتكليف البغيض».

قال دي: «تلك اللعبة، وذلك الفيكونت، هما أكثر بغضًا مما تتخيل». بدأ دي بسرد قصة زيارته إلى شركة «برينسلي بيكتشرز» لنا. وعندما انتهى، قال: «وهكذا، يبدو أن خسائر ما في لعبة ماي-جونج كانت السبب في سلوكه المتدهور على الشاشة الفضية».

قلت: «هذا مروع، حقًا مروع. يجب أن يُحاسب الفيكونت وايتكليف على أفعاله. ودي! (هتفت عندما تذكرت شيئًا) كان يجب أن ألاحظ! لأنني رأيت بالفعل، هل تفهم؟».

أجاب دي: «أعتقد أنك رأيت الكثير بالأمس».

- لا! أعني، نعم، رأيت الكثير بالتأكيد، لكن هذا كان قبل كل ذلك. مجوهرات الفيكونت! رأيتها. ذهبية، مع ختم عائلته. في متجر للمجوهرات. المجموعة كاملة. اعتقدت أنها تساوي الكثير.

سيشتريها أمريكي ما ويستعرض بها مشيرًا إلى أنه مرتبط بالأرستقراطية البريطانية. كنت أعلم أن الشاعر مألوف، لكن لم أستطع تذكر أين رأيته. بالطبع، رأيته على خاتم التوقيع الخاص بوايتكليف. لو أدركت أنه خاتمه، لعلمت أنه يعاني من ضائقة مالية في وقت أبكر.

قال دي: «لكان ذلك مفيدًا بالطبع، لكن لا أعتقد أنه كان سيغير النتيجة كثيرًا».

هزرت رأسي قائلاً: «إنه رجل سيئ تمامًا. واعترافه بأنه قتل ما زي رين.. هذا يكاد يكون دليلًا على أنه مسؤول أيضًا عن الجرائم الأخرى، أليس كذلك؟».

أجاب دي: «في الواقع، لا أعتقد ذلك».

قلت: «حقًا؟ من، إذًا؟ أوه! أعذر. لا يزال عقلي يعمل ببطء. قبل أحداث الأمس المثيرة كنا نبحث عن الكابتن لو لهذا السبب بالذات».

قبل أن يتمكن دي من الرد، سمعنا طرقًا متواصلًا على الباب المغلق. أشار هونج للمتسول بالابتعاد، لكنه لم يغادر بل زاد من شدة طرقاته. نهض هونج وسار عبر المتجر ونظر من خلال الزجاج. تمتم ثم فتح المزلج، وأدخل جيمي فينجرز.



الفصل الثالث والأربعون

قال الشاب اللص، وهو يدخل متجر هونج بخطى واسعة: «أيها السادة! صباح الخير عليكم جميعًا! أمل أن يكون الجميع بخير. سيد هونج، أليس هذا الشاي نفسه الذي تناولته هنا بالأمس؟».

- نعم، يا جيمي، إنه الشاي نفسه. تفضل بالجلوس وانضم إلينا.
قال جيمي فينجرز وهو يجلس: «أوه، رائع! شاي السيد هونج لذيذ بلا شك. شكرًا. (قبل كوبًا من هونج متابعًا) سيد لاو، تبدو شاحبًا قليلًا. ليس بك خطب ما، أليس كذلك؟».

- أنا بخير تمامًا، شكرًا لك.
لم أرغب في تحميل الشاب جيمي بمشكلاتي العاطفية أو قصة تعاطي الأفيون غير المقصودة.

- سعدتُ لسماع ذلك. الآن (ابتسم ناظرًا حول الغرفة) جئت حاملًا أخبارًا سارة.

سأل دي: «هل وجدت الكابتن لو؟».

أجاب جيمي فينجرز: «لا يمكنني أن أكون متأكدًا أنه هو، لكن يُقال إن رجلًا صينيًا، في سن ووصف يشبه ما أعطيتني إياه، يعيش في شقة في جورج كورت، ليس بعيدًا عن ستراند. عاش هناك لسنوات. إنه منعزل، لا يختلط مع الآخرين، ولا أحد من الشباب يعرف أي شيء عنه، حتى اسمه. ولكن، (أنهى حديثه بابتسامة) يُقال إنه رجل عسكري».

احتسينا أربعتنا الشاي وغادرنا المتجر كرجل واحد. قال دي: «ليس عليك المجيء إذا لم تشعر بالقدرة على ذلك، يا لاو».

لكنني أوقفت هذا الحديث قائلاً: «تم مطاردتي، وضربي، وإفقادي الوعي، وحُقنت بالأفيون في سعي وراء هذا القاتل. لن أترك الأمر الآن».

- حسنًا. وأنت، يا جيمي؟ لقد انتهى عملك.

- أوه، لكن يا سيدي، إذا سمحت لي؟ أود أن أشاهد معركة أخرى. سيكون شرفًا لي أن أشاهدك مرة أخرى.

قال دي: «أعتقد أن احتمال وقوع معركة ضئيل، لكن تعال معنا».

ورغم تفضيله المعتاد للسير على الأقدام، فإنه مراعاةً لصحتي، قادنا دي إلى شارع التجارة حيث استوقفنا سيارة أجرة متجهة إلى جورج كورت.

العنوان الذي أعطانا إياه الشاب اللص كان يخص بناية صغيرة من الشقق. داخلها، وبعد مشاورة هادئة وتسليم مبلغ من الفضة للمدير اللامبالي، حصلنا على رقم شقة الكابتن لو وتصريح باستخدام السلالم للوصول إليها. عند وصولنا إلى الطابق الصحيح وتحديد الباب المناسب، طرق دي الباب.

جاء الرد: «تفضلوا بالدخول».

كنت على وشك أن أوصي بالحذر، لكن دي أدار المقبض ودخل مباشرة. جلس الكابتن لو على كرسي أمام الباب، وهو يحمل مسدسًا في يده.

صرخت: «دي!».

لم يتردد دي، واكتفى لو بالابتسام. وضع المسدس على الطاولة بجانبه وقال: «آه، إنه أنت، يا دي. ومعك لاو وهونج، إذا لم أكن مخطئًا. ومن يكون الرجل البريطاني الذي لا يزال في الردهة، مختبئًا خلف الباب؟». تحدث لُو بالإنجليزية، ربما ليفهمه الرجل البريطاني المختبئ. رد دي باللغة نفسها: «مرحبًا، يا كابتن. إنه جيمي فينجيرز، أحد شركائي. اخرج يا جيمي، وقابل الكابتن لو».

خرج جيمي من مخبئه، وكانت تعابير وجهه متشككة. خلع قبعته وقال: «سيدي، اعتقدت أننا نبحث عن قاتل. هل أخطأت في توجيهك إلى الرجل الصحيح؟».

- لا، يا جيمي. إنه الرجل الصحيح، لكنه ليس قاتلاً. أليس كذلك، يا كابتن؟

قال لو: «لست كذلك. عندما طرقت الباب، ظننت أنك قد تكون القاتل».

- ولهذا السبب تحمل مسدسًا والباب المفتوح.

- نعم. قررت، إذا كان الرجل أحق بما يكفي ليأتي إلى هنا، أن أنهى أمره. أيها السادة، تفضلوا بالجلوس. يؤسفني أنني لا أملك سوى كرسيين إضافيين فقط. هونج، هل تمانع في صب مشروب لنفسك ولأصدقائك؟ لدي بعض الماوتاي الممتاز في الخزانة.

أخذ دي كرسياً من الطاولة الصغيرة وجلبه ليواجه لُو. عبر هونج الغرفة إلى الخزانة، حيث أخرج زجاجة وأكواب نببذ من البورسلين الرقيق. تبادلنا أنا وجيمي نظرات متحيرة وبقينا واقفين.

قال الكابتن: «حسنًا، يا دي، هل حددت هوية القاتل؟».

- أعتقد أنني فعلت.

سألت: «ولكن يا دي، إذا كنت تقول إن القاتل ليس الكابتن لو، فهل هذا يعني أنك تعتقد الآن أن الفيكونت وايتكليف هو المسؤول عن الجرائم؟».

قال جيمي: «فيكونت! نبيل يجوب لندن طاعناً رجالاً صينيين؟ هذا أمر لا يصدق. انتظر حتى أخبر الشباب!».

- نعم، حسنًا، سيأتي كل هذا لاحقًا. أعتقد أن الكابتن لديه شيء ليقوله. بما أنه مريض، أقترح أن نستمع إليه.

قال الكابتن لو: «إذًا، أنت تعرف».

- لم أستطع إلا أن ألاحظ، يا كابتن، أنك لم تعد الجندي القوي نفسه في ميادين فرنسا.

قال لو: «نعم، بعد وصولي إلى إنجلترا بفترة قصيرة، أخبرني طبيب بأنني لن أعيش طويلًا. ذهبت فوراً إلى عَشَّاب صيني، وبفضل ذلك تمكنت من تجاوز توقعات الطبيب بخمس سنوات».

قال دي: «وانضمت فوراً إلى جمعية التونتين، بما أنك لا تحتاج إلى الثروة، وكنت أكبر بكثير من الرجال الآخرين، كان ذلك مؤشراً آخر لي على أنك مريض».

- انضمت من أجل الرجال. اعتقدت أنه ليس لدي أي فرصة للحصول على المال. فأنا مريض والرجال جميعهم أصغر مني.

بما في ذلك، كما أكد لي مدير البنك، الشخصين اللذين لم أكن أعرف هويتهم. ارتبك المدير من حقيقة انضمامي من الأساس، وزاد ارتباكاه عندما زدت مساهمتي.

- إذًا، كنت أنت.

- نعم، الأمر كذلك. ربما كان تصرفًا غير ناضج مني أن أتركه في حيرته، لكنني استمتعت بذلك. هل لاحظت يا دي أن جميع مديري البنوك، سواء في الوطن أو في الخارج، يتسمون بالغطرسة نفسها؟ (ابتسم لو) أفراد عائلتي في الصين قليلون وبعيدون القربة. هم أيضًا أثرياء ولا يحتاجون إلى شيء مني. لا، هؤلاء الرجال كانوا عائلتي، وتوطدت علاقتي بهم في ساحة المعركة. انضمت إلى جمعية التونتين من أجلهم.

- ولكن رحل الرجال جميعهم الآن.

- مأساة. ظننت أنني سأكون الأول، لكنني الأخير. هونج، هل يمكنك أن تقدم الماوتاي لزملائك؟ شكرًا لك. (وزع هونج أكواب النبيذ) ولكن لا شيء لي. للأسف، الماوتاي متعة أصبحت بعيدة عن متناولي الآن. لدي هنا إكسير الأعشاب في هذه الزجاجاة. سأصبه في كوب نبيذ، وبينما أتناوله، سأتحيل المتعة التي تستمتعون بها يا سادة. تركت وصية، يا دي. عينتك وريثي.

تلقى دي هذا الإعلان، الذي قيل دون تغيير في النبوة، بأصغر إيماءة. انتابني شعور غريب أنه توقع ذلك بطريقة ما.

تابع لو: «ستحصل على كامل أموال التونتين، آمل أن تستخدمها لإعادة جثث الرجال إلى الصين، إلى مسقط رأسهم، بما في ذلك جثتي عندما يحين الوقت. بالإضافة إلى ذلك، أود منك أن تقدم المساعدة لزوجتي الرجل الذي قُتل ولديه أطفال صغار».

تحدث دي بجدية: «شين شياو. أتشرف بتنفيذ طلبك. بعد إذنك، يا كابتن، أود أيضًا أن أساعد أرملة السيد مآ. إنها حبلى».

رفع لو حاجبيه مندهشًا: «أهي كذلك؟ لكنني ظننت أن مآ...».

- الطفل ليس طفله. لكن تعرضت المرأة لظلم كبير وأعتقد أنها ستستفيد من فرصة لبداية جديدة.

ابتسم الكابتن لو. بينما رفع لو كأسه نحونا: «بالطبع، إذآ. (رأيت جيمي فينجيرز يمسح دمعة من زاوية عينه) هيا الآن. سيعود الرجال إلى وطنهم، وستُراعى الأرامل، وكل شيء سيكون على ما يرام. جانبي⁽¹⁾!». رفعنا جميعًا كؤوسنا وشربنا.

البايجو هو مشروب كحولي نادر في لندن، وهذا النوع المعروف بالماوتاي لم أذقه منذ أن غادرت الوطن. أغمضت عيني لأغرق في عبيره النفاذ ومذاقه الداكن، ولأشعر بالدفء الذي ينتشر في أحشائي. ولذلك، لم أدرك أن الكابتن لو انحنى إلى الخلف في كرسيه وأسقط كوب النبيذ مفارقًا الحياة، إلا عندما سمعت صرخة الشاب جيمي.

(1) كلمة صينية تعني: في صحتكم. (الترجمة)



الفصل الرابع والأربعون

نهضت من كرسيي مسرعًا لنجدة الكابتن، لكن أشار دي إليّ بالعودة قائلاً: «لا جدوى، يا لاو، لقد رحل. هذا ما أراده. صمم على البقاء حيًا حتى يُقبض على القاتل، حتى لا يسرق الشرير أموال التونتين عندما تُسلم لآخر رجل. وكان هذا الرجل الأخير هو نفسه، والآن انتقلت الأموال لي، لأحقق بها ما طلبه. لقد أراح نفسه من الألم».

قلت: «إذًا، القاتل هو بالفعل وايتكليف؟ أعترف، يا دي، أنني في حيرة. قبل قليل فقط قلت إنك لا تظن أنه هو».

- ما زلت على رأيي. لكنني أعلم من هو القاتل. هيا يا سادة، حان الوقت لإنهاء هذا الأمر.

هززت رأسي. على ما يبدو أنني ما زلت أفكر ببطء، فلم يكن لدي أدنى فكرة عن هدف دي أو إلى أين نحن ذاهبون. انحنى هونج احترامًا للكابتن لو، الذي بدا مسالمًا في كرسيه. كما ألقى جيمي الشاب نظرة

أخيرة على الكابتن ورفع قبعته احترامًا. ثم توجهنا جميعًا إلى أسفل السلالم وعبرنا الردهة، مرورًا بالمدير الذي كان منشغلًا بقراءة صحيفة الديلي ميرور، فلم يلحظنا إطلاقًا.

مرة أخرى، حملتنا سيارة أجرة عبر شوارع لندن، وهذه المرة عائدين إلى لايمهاوس. خلال الرحلة، قلت: «دي، إذا كنت لا تعتقد أن الكابتن لو هو القاتل، فلماذا طلبت إبلاغ الشرطة إذا جاء ليطالب بأموال التونتين؟».

أجاب دي: «من أجل حمايته. ما طلبته، إذا كنت تتذكر، هو أن يحتجزه مدير البنك. وأن يبلغ هونج في الوقت نفسه مع الشرطة. خشيت عندما تكون أموال التونتين في حوزة لو الشخصية. وأيضًا، (أردف وهو ينظر إليّ بعناية) لم أكن متأكدًا تمامًا، يا لاو. رغم أن الكابتن لو الذي عرفته في زمن الحرب لم يكن ليقوم بأفعال شريرة كهذه، فإن الناس يتغيرون. أحيانًا يختارون التغيير. وأحيانًا يُجبرون على ذلك ولا يرون أي خيار آخر».

كان وجهتنا، كما اتضح، متجر هونج. فتح هونج الباب ثم انطلق لمقابلة مدير الجنازات الصيني لترتيب مراسم دفن الكابتن لو. بمجرد دخولنا، أغلق دي الباب مجددًا وتوجه إلى الغرف في الجزء الخلفي من المتجر.

قال جيمي فينجرز: «سيد لاو، هل لديك فكرة عما من المُفترض أن نفعله الآن؟».

- يؤسفني أن أقول، يا جيمي، أنني لا أملك أي فكرة. في مواقف كهذه، وجدت أنه لا يمكنني سوى الانتظار حتى يوضح دي نواياه. لذلك أقترح -أشعلت عين موقد الغاز- أن نرفع كوبًا من شاي الرقيب هونج الفاخر لذكرى الكابتن لو.

كنا أنا وجيمي نفعل ذلك بالضبط عندما انفتح الباب المؤدي إلى الغرفة الخلفية. استدار جيمي برأسه ثم قفز من مقعده صارخاً: «لا! لا! لا يمكن أن يكون! إنه جاك النطاط، أنا متأكد مثل تأكدي من مولدي! نحن في عداد الأموات! نحن هالكون! سيد دي! أنقذنا! سيد دي!».

أطلق الشخص المقنع ذو الرداء ضحكة مدوية. تراجع جيمي إلى الخلف متعثراً. ضحكت أنا أيضاً، لكنني تماكنت نفسي بما يكفي لأقول: «دي، أنت بلا قلب. تعرض هذا الشاب المسكين لصدمة كبيرة اليوم».

انحنى الشخص وأزال قناعه ليكشف عن وجه دي المبتسم. قال معتذراً: «أعذر، يا جيمي. لكن إذا كنت ترغب في البقاء في خدمتي، فممن الأفضل أن تكون مستعداً للمفاجآت من حين لآخر».

مسح جيمي جبينه، والتقط قبعته من الأرض قائلاً: «سيدي، لقد كنت تمثل لي مفاجأة تلو الأخرى منذ لحظة لقائنا».

سألت: «هل سنخرج فوراً، يا دي؟».

أجاب: «لا، سننتظر هونج، وأيضاً حتى تصل هذه الرسالة إلى وجهتها. (ثم سلم دي جيمي ورقة مطوية) جيمي، هل يمكنك العثور على فتى مناسب لإيصال هذه الرسالة؟ أعطه هذا الشلن، وأخبره أنه سيحصل على آخر عند إتمام المهمة».

ابتسم جيمي، وأعاد قبعته، وانطلق في طريقه.

سألت: «دي؟ هل أنا أيضاً سأكون جزءاً من المفاجأة؟».

- أخشى ذلك. سأحتاج إلى وجودكم أنتم الثلاثة كشهود محايدين في حال لم تصل رسالتي إلى هدفها.

- فهمت. حسناً، إذن، احتسي كوباً من الشاي.

شربنا الشاي بصمت. لم يتغير مظهر دي، لكنني تخيلت أنه يشعر بالحزن، على الكابتن لو، وعلى الرجال الآخرين الذين عرفهم والذين انتهت حياتهم قبل أوانها.

وفي الوقت المناسب، عاد هونج، وبعد ذلك بوقت قصير، عاد جيمي فينجيرز أيضًا.

قال اللص: «تمت المهمة، رغم أنني اضطررت لطلب المساعدة من ثلاثة أولاد، حيث رفض الأول والثاني الذهاب».

- لكن في النهاية وجدت ولدًا يتمتع بشجاعة كافية؟

- نعم، يا سيدي.

سألت: «دي، إلى أين أرسلت هذا الطفل؟ إلى وكر من الأفاعي؟».

أجاب دي: «قد تكون محققًا، يا لاو، الرسالة موجهة إلى سكوتلاند يارد. الآن! دعونا ننطلق! (قفز من مقعده، ولف حرمة جاك النطاط حول نفسه) هيا، جميعكم. اتبعوني!».

لم يكن اتباع هذه التعليمات بالأمر السهل، فبمجرد أن خرجنا إلى الشارع، قفز دي إلى أسطح المباني. اضطررنا، أنا وهونج وجيمي فينجيرز، إلى الركض على طول الشارع ونحن ننظر إلى الأعلى كما يفعل المرء عند ملاحقة طائرة ورقية انقطع خيطها. فكرت وأنا أركض أن التشبيه قد لا يكون خياليًا تمامًا، فقد بدا دي مملوءًا بالعزم والقوة.

بعد بضعة شوارع، قفز دي إلى الأرض أمامنا. رغم أننا كنا نعلم أنه فوقنا، فإن ظهور جاك النطاط فجأة كان مفاجئًا للغاية. قفز جيمي وأخذت أنا نفسًا عميقًا، بينما لم يظهر على هونج أي انزعاج.

قال دي، متحدًا بلكنته العادية: «أيها السادة، إذا تفضلتم بالاختباء في هذا الزقاق ومراقبة مدخله. سأكون شاكرًا لكم». ثم اختفى.

امتلئنا لطلبه. كان مدخل الزقاق بجانب حانة «كوبرز بيتش»، لذلك احتوى على عدد من البراميل تمكنا من الاختباء خلفها. ضج المكان بحركة المارة والبائعون هنا وهناك. ثم ظهر في مجال رؤيتنا الكابتن بارد. همست لهونج: «أوه، لا، سيُفسد خطة دي، أو إذا تمكن دي من القبض على القاتل رغم وجوده، فسيأخذ بارد الفضل منه».

أجاب هونج، بينما هبط جاك النطاط من السطح وسحب بارد إلى الزقاق: «أو ربما شيء آخر تمامًا».

انحنيت أنا وهونج وجيمي، لأن جاك سحب بارد نحو البراميل التي كنا نختبئ خلفها.

صرخ بارد: «أنت! أبعد يدك عني!».

قال جاك النطاط: «الكابتن بارد، أنت في طريقك لاحتساء كأسك المسائية، إذا؟». ثم أطلق سراحه.

عندما أطلق سراح بارد، عدل طيات معطفه قائلاً: «أيًا من تكون حقًا، إذا كان لديك قصة عن صيني آخر ميت، فسيتعين عليك إخبار شخص آخر بها. أنا في طريقي للاحتفال، لأننا حللنا القضية وألقينا القبض على الرجل الذي قتلهم جميعًا. أعتقد أن هذا يجب أن يجعلك سعيدًا، لأنك كنت مهتمًا جدًا بهم. إذا جئت لتشكرني، فأنت مرحب بك جدًا. الآن أفسح الطريق».

- آه، لكن يا حضرة الضابط، القضية لم تُحل إلا جزئيًا. سمعت من الأخبار أنكم قبضتم على فيكونت. هذا الشرير هو من قتل صاحب المتجر، السيد ما، وهذه هي الحقيقة. لكنه يقول إنه لم يقتل الرجال الآخرين، وأنا هنا لأخبرك أن هذه هي الحقيقة أيضًا!

- وماذا تعرف عن هذا الأمر؟ إلا إذا كنت أنت القاتل!

نظر بارد حوله، كأنه يبحث عن شرطي للقبض على جاك النطااط.
قال دي: «لا، لم يكن جاك النطااط، لكنني سألت نفسي سؤالين أو ثلاثة. قلت، جاك، كيف عرف القاتل ماهية أفراد جمعية التونتين؟ حتى لو كان واحدًا منهم من فرنسا، لم يكن ليعرف أكثر من أسماء الآخرين الذين جاء معهم. أما الرجلان المضافان، كيف عرفهما؟ ولو كان واحدًا من المضافين، كيف عرف أي شيء على الإطلاق؟ ثم قلت لنفسني، آه يا جاك، أنت أحمق، وهذه حقيقة! لأن هناك نوعًا من الرجال يمكنهم معرفة هذه الأشياء، وبسهولة أيضًا».

- عمّ تهذي؟ أفسح لي الطريق!
حاول دفع جاك، لكنه قفز جانبًا، ولف ذراع بارد خلف ظهره، متحدّثًا في أذنه.

- شرطي! آه، هذا هو. الشرطي يمكنه دخول البنك كما يدخل أي مكان آخر إذا كان يحقق في جريمة قتل. إذًا، كيف عرف هذا الشرطي بوجود جمعية التونتين من الأساس؟ مهلاً، هذا أمر بسيط! (شد جاك ذراع بارد بقوة أكبر) لأنه من أبتكر هذه الفكرة هناك في فرنسا!

- آه! أطلق سراحني، أيها المجنون المتنكر!
- انظر، يا حضرة الضابط، اكتشف جاك أن هؤلاء الرجال سمعوا لأول مرة عن شيء مثل جمعية التونتين في فرنسا. ومن من؟ من ضابط بريطاني! أخبرهم هذا الضابط، إذا أردتم القدوم إلى لندن بعد الحرب، قد أتمكن من ترتيب ذلك. بالطبع، ستودون إنشاء واحدة من هذه الجمعيات، لأن لندن يمكن أن تكون مكانًا خطيرًا. أوفى هذا الضابط بوعده، وعندما وصل الرجال إلى هنا، زارهم من وقت لآخر؛ للتأكد من أن أحدهم لم يميت بعد! لأن هذه كانت فكرتك

من البداية، أليس كذلك، أيها المفتش بارد؟ لمراقبتهم، لأنهم كانوا بمثابة خطة تقاعدك الصغيرة. لا عجلة في جمع أموال التونتين. يمكن حل الأمر عندما يحين وقته.

ولكن بعد بضع سنوات، قُتل السيد ما المسكين. وأنت، يا حضرة الضابط، شعرت بالإرهاق من شوارع الميناء القاسية. ثم رأيت فرصتك تلوح في الأفق. فتوجهت إلى البنك وطلبت من المدير: «أرني سجلات التونتين!»، علم المدير أنه لا ينبغي له فعل ذلك، لكنه علم أيضًا أن الشرطي يستطيع أن يطالب ويهدد ويتسبب في مشكلات لمن يرفض. ففكر المدير: ما الضرر؟ وهناك كانت الفرصة السانحة! وفجأة، أضحت أسماء وعناوين جميع أعضاء جمعية التونتين ماثلة أمامك. والسلاح المستخدم في جريمة القتل الأولى موجود في غرفة الأدلة لديك! يا لها من ضربة حظ! فتشرع في قتلهم واحدًا تلو الآخر، لأنهم في النهاية ليسوا سوى صينيين. وعندما يبقى واحد فقط، تفكر في نفسك: تحلّ بالصبر، أيها الضابط، وانتظر حتى يجمع هذا الشخص المال. ثم سأذهب لقتله، وبعدها كم سأصبح شرطي ثري! آه، كانت خطة محكمة، يا كابتن بارد، وباك يشيد بذكائك. لكنك ارتكبت خطأ أو خطأين صغيرين.

قال بارد بهدوء وهو لا يزال في قبضة جاك: «حقًا؟ وما هي تلك الأخطاء؟».

- حسنًا، يمكن لمدير البنك التعرف عليك.

- كان لي الحق في طلب تلك السجلات!

- آه! إذا، كنت هناك بالفعل؟

- أنا... ماذا... أطلق سراحني!

- لا، لا يستطيع جاك القيام بذلك، أيها الضابط. لأن زوجة ذلك الرجل شين يمكنها التعرف عليك أيضًا. لقد سمعت صوتك بوضوح عندما تحدثت إلى زوجها.

- لم أنطق بكلمة! أنا...

تجمد بارد، واتسعت عيناه من الرعب عندما أدرك ما فعل.

- دعني أذهب!

كافح للخلاص من قبضة جاك.

- آه، يا كابتن بارد، يظن جاك أنك قد أوقعت نفسك في فخك الخاص. أيها السادة، أخرجوا الآن.

نهضنا أنا وجيمي وهونج من خلف البراميل.

- هؤلاء الرجال سمعوا وسيشهدون بكل شيء.

نظر بارد إلينا وضحك بسخرية: «صينيان ولص؟ يشهدون ضد كابتن في شرطة العاصمة؟ لن يكون لكلماتهم أي وزن».

قال صوت آخر برزانة: «أخشى أنك قد تكون محققًا، يا بارد. (خرج المفتش فوكس وشرطي من الظلال، مضيئًا) لذا من حسن الحظ أن السيد دي أرسل لي ملاحظة لأكون هنا في هذا الوقت. للأسف، قد لا تكون هيئة المحلفين البريطانية مستعدة لإعطاء الوزن المتساوي والعاقل لشهادة جميع الرجال. ولكن شهادة مفتش من سكوتلاند يارد ستلقى اهتمامًا».

صاح بارد بغضب: «دي! ذلك الوغد! ذلك الشيطان الصيني! كان يجب أن أعرف أنه وراء هذا! أين هو؟».

رد فوكس، وهو يتفحص المكان بنظراته: «لا أعلم. ظننت أنه سيكون هنا».

- اعثروا عليه! اعتقلوه! واعتقلوا هذا الوغد أيضًا! جاك النطاط؛
اكشف عن هويته، يا فوكس!

بدفعة قوية ألقى بارد في أحضان الشرطي التابع لفوكس، قفز جاك
برشاقة على برميل ثم إلى السطح الذي هبط منه. أطلق ضحكة وداع
مدوية وهو يقول: «لن يُكشف النقاب عن جاك النطاط اليوم!». واختفى
خلف الحافة.

سأل الشرطي، رافعًا صفارته إلى شفتيه: «هل يجب أن يطارده
الرجال، يا سيدي؟».

أجاب فوكس: «لا. أي ذنب اقترفه هذا الرجل؟ التسكع في الشوارع
مرتديًا زيًا غريب قد يكون تصرفًا غريبًا، أو افقك، لكنه ليس جريمة. وقد
سلمَ لنا مجرمًا حقيقيًا، أليس كذلك؟ لا، أعتقد أن الشخص الوحيد الذي
يجب اعتقاله هنا اليوم هو الكابتن بارد. زميل في القوة؛ يجب أن أقول،
أنني مصدوم ومُحبط. أيها الشرطي، أبعده عن ناظري».

بينما سحب الشرطي بارد نحو سيارة الشرطة المنتظرة، التفت
فوكس نحونا قائلاً: «شكرًا لكم، أيها السادة. سنحتاج إلى إفاداتكم،
رغم أنه من غير المحتمل أن تُستدعوا للشهادة في المحكمة. أعتقد أنني
أنا والشرطي سمعنا ما يكفي. ومع ذلك، يجب أن أقول، إنه أمر مثير
للاهتمام، أليس كذلك؟ وجودكم هنا بهذه الطريقة المريحة».

رددت بسلاسة: «أوه، ليس صدفة على الإطلاق. لقد تلقينا إشعارًا من
دي، كما فعلت أنت، أيها المفتش. طلب منا الحضور في هذا الزقاق في
هذه الساعة».

- حقا؟ وأعتقد أن الحال نفسه ينطبق على ذلك الرجل المرتدي زيًا.
هل لدى أي منكم فكرة عن هوية هذا الرجل الحقيقية؟

قال جيمي فينجرز: «بالتأكيد نعرف».

قلت: «جيمي!».

توجهت نحوه، لكنه تجاهلني وأكمل حديثه.

- إنه جاك النطاط! كيف يمكنك الشك في ذلك، أيها المفتش؟ من غيره يمكنه التحرك بتلك الطريقة، محلّقًا عبر الأسطح وما شابه؟ حقًا، رأيت بعيني...

قال هونج: «شكرًا، يا جيمي. بقدر ما يسعد المفتش بلا شك سماع حكاياتك عن جاك النطاط، أعتقد أنه لديه الكثير ليفعله؟».

رد فوكس: «أجل، وأود العودة إلى المنزل لاحتساء الشاي مع زوجتي. إذا تعهدتم بالحضور إلى سكوتلاند يارد بحلول منتصف النهار غدًا لتقديم إفاداتكم، سيوفر عليّ ذلك عناء البحث عنكم».

قال ذلك بنظرة ثابتة نحو جيمي، الذي رد بابتسامة بريئة لدرجة أنني أنا وهونج، والمفتش لم نستطع إلا أن نضحك.

قال هونج: «سنكون هناك، ثلاثتنا».

قال المفتش: «إذا صادفتهم دي، أحضروه معكم». ثم أمال قبعته وتبع الشرطي خارج الزقاق.



الفصل الخامس والأربعون

جلست أنا ودي إلى طاولة العشاء مع عائلة راسل في منزلهم، حيث أقام دي لبقية فترته في لندن. اعتذر عن الإقامة في الغرفة الضيقة خلف متجر هونج ولجأ إلى ضيافة عائلة راسل بعد أن قُبض على الكابتن بارد ولم يعد هناك أي احتمال لمزيد من المتاعب التي قد تسيئ إلى سمعتهم. (قال برتراند راسل ضاحكًا بشدة: «ومع ذلك، يبدو أنك نسيت أنني كنت سجينًا سابقًا. لست واثقًا من أن بإمكانك فعل شيء يضر بسمعتي، يا دي. على العكس، فإن جهودك في مكافحة الفساد في شرطة العاصمة ستعزز من سمعتي على الأرجح».)

كنا ننهي ما تبقى من حساء لحم الضأن الذي أعدته السيدة هينيسي، وقد أضفت عليه الأعشاب من متجر هونج نكهة لذيذة، تلك الأعشاب التي تركها دي معها. خلال الوجبة، روى دي لعائلة راسل مغامراتنا الأخيرة.

قالت دورا راسل: «السبب وراء إصرار بارد على القبض عليك، يا دي، لم يكن فقط العداء الذي نشأ بينكما في فرنسا، أليس كذلك؟ الأمر الآخر كان خوفه من أنك ستكشف هويته بالفعل».

- نعم. كلما تعمقت في التحقيق -بأن خطة التونتين اقترحها ضابط بريطاني على الرجال في فرنسا، وأن القاتل علم هوية جميع المشاركين فيها، بما فيهم الأعضاء الجدد- ازداد شكي في الكابتن بارد. شهدني أحقق في قضايا عديدة خلال الحرب، وأدرك أنني لن أتوقف حتى أكتشف الحقيقة. أمل في إبعادي على الأقل حتى يحصل على الأموال. بل أظن أنه كان سيفرح لو تمكن من إبعادي نهائيًا.

ارتجفت دورا راسل قائلة: «أنا سعيدة جدًا لأن الأمور لم تصل إلى ذلك الحد. أخبرني، هذا الرجل جاك النطاط....».

أجاب دي بابتسامة: «كنت محظوظًا بالعثور عليه، ومحظوظًا أيضًا لأنه كان على استعداد لمواجهة الكابتن بارد، بالإضافة إلى المهام الأخرى التي أداها لي في الأيام الماضية. شعرت أنه قد يكون من المفيد، في بعض الأحيان، إرباك الناس قليلًا. جاك النطاط كان الشخص المناسب لتحقيق ذلك».

- ولكن من هو حقًا، يا دي؟

أجاب دي ضاحكًا: «إنه جاك النطاط، بلا شك!». فضحك الجميع، وكفّت دورا راسل عن متابعة هذا التساؤل.

انتقلت أنا أيضًا إلى مسكن جديد. ظلت السيدة ويندل تراقبني بنظرة مشوبة بشيء من الريبة، بصفتي صديق دي متعاطي الأفيون ومريض العشّاب هونج. ومن جانبي، لم أتحمل إشراقة الفخر التي تعلو وجه ماري عندما تتقاطع طرقنا، كما تتوهج امرأة بفخر عندما تُعلّم

كلبًا خدعة جديدة. وفي هذه الحالة، كانت الخدعة هي مسيحيتي؛ رغم أن اعتناقي للمسيحية قد حدث قبل سنوات من انتقالي إلى لندن، فإن ماري بدت وكأنها تأخذ الفضل الكامل لذلك، وكانت تكرر باستمرار: «أنا فخورة جدًا بك، يا سيد لاو». أرغمت نفسي على حضور الكنيسة ذلك الأحد كما وعدت. التقيت حبيبها واشنطن، الذي أصبح الآن خطيبها واشنطن. بعد أن أديت واجباتي في هذا الجانب، لم يعد لدي أدنى اهتمام بالاستماع إلى عظات القس إيفانز الرتيبة. كما لم أعد أطيق حماس ماري الجارف تجاه الخطط التي وضعتها هي وواشنطن لرحلتهما التبشيرية إلى وطني، حيث كانا ينويان دعوة أبناء قومي الوثنيين إلى المسيحية. للحفاظ على علاقتي الخاصة بالمسيح بعيدة عن الوعظ الفارغ والتعاطف المتغطرس، شكرت السيدتين كثيرًا على ضيافتهما وانتقلت إلى الشقة في شارع جورج التي قطنها سابقًا الكابتن لو. تساءلت كم من جيراني سيلاحظ أن الرجل الصيني الذي سكن المكان سابقًا هو الآن شخص مختلف.

حدثت دورا، مما أعادني إلى الحاضر وإلى الحديث الدائر حول مائدة عائلة راسل: «إذًا، يا دي، هل ستغادرنا قريبًا؟».

أجاب دي، وشعرت بوخزة غير متوقعة في قلبي: «نعم. أتممت الترتيبات لإعادة جثامين جميع الرجال، بما فيهم الكابتن لو، إلى بلداتهم لدفنهم. سأرافقهم بالسفينة إلى الصين، وأتأكد من وصولهم إلى وجهاتهم، ثم سأعود إلى جينيف لأتولى مهامهم. ومع ذلك -ابتسم- أعتقد أنني سأعود إلى لندن بحلول الخريف».

صرخت مندهشًا: «دي! هذا رائع! سأنتظر عودتك بفارغ الصبر». لم يمض سوى بضعة أيام منذ أن قابلته، وكنت في حالة يرثى لها. ولكن معرفتي بدي غيرت نظرتي تمامًا لشوارع لندن وحتى لأمر العالم.

قال دي بابتسامة أخرى: «لا تفرح كثيرًا، يا لاو. إذا عدت، فسيكون ذلك بتعليمات من المفوض لين».

عقد راسل حاجبيه قائلاً: «المفوض لين؟ لين تسي شو؟ دي، الرجل ميت منذ سنوات. هل ترك تعليمات لأعمال مستقبلية؟».

- لا. المفوض لين يزورني في أحلامي.

قالت دورا وعيناها تتلألآن: «أحلام، يا دي؟ ظننتك أكثر عقلانية من ذلك».

- النصيحة الجيدة قيمة مهما كان مصدرها، يا سيدتي. وإذا تلقيت مثل هذه النصيحة، فأميل إلى احترام رغبات من يقدمها.

- وهل قدم لك المفوض نصائح جيدة في أحلامك؟

- هو من أقنعني بالإقلاع عن تعاطي الأفيون. ذلك وحده يجعلني أقدر طلباته الأخرى.

سألت: «وهل قدم لك طلبًا، يا دي؟».

- على ما يبدو، قد يحدث هنا في الخريف حدث يتطلب اهتمامي. إذا وقع ذلك، سأعود، وإذا عدت، فقد أحتاج إلى مساعدتك مرة أخرى. لذا، يا لاو، أنصحك بالتفكير مليًا قبل أن تعلن أنك تتطلع إلى عودتي. وفي هذه الأثناء، كيف ستستثمر السلام والهدوء اللذين ستنعم بهما في غيابي؟

- إلى جانب مداواة جروحي والاستقرار في شقتي الجديدة؟ في الواقع، أعتقد أنني جاهز لبدء كتابة كتاب.

- عن هذه القضية؟

- ليس كما حدثت بالضبط. لست متأكدًا أن القراء البريطانيين أو الصينيين سيرحبون برواية يكون فيها الرجال الصينيون ضحايا

أبرياء، وفيكونت وكابتن شرطة هما الأشرار، وتُحل القضية بواسطة قاضٍ صيني وجاك النطاط.

- وروائي صيني.

احمرَّ وجهي خجلًا.

- وكذلك عشَّاب صيني ولص. لا، تلك القصة ليست جاهزة بعد لروايتها. لكن قصة مَآ زى رين، والوحدة التي دفعته للزواج، والكثير من التجارب التي مررت بها هنا، (بما في ذلك تعلقي المؤسف بماري، والذي أعتقد أنه يستحق كتابًا بمفرده) يمكن أن تصنع رواية مؤثرة عن حياة رجل صيني في لندن. ما زلت لا أعرف كيف أنهي الحكاية.

قال دي: «حسنًا، يا لاو، يبدو أنني سأنتظر قراءة هذا كتاب بفارغ الصبر. وبالنسبة إلى نهاية قصتك، تذكر: لا توجد نهاية حقيقية لقصة». قال برتراند راسل: «لا شيء يمكن أن يكون أكثر دقة من ذلك، ولكن العشاء انتهى. أقترح أن ننقل لاحتساء قهوتنا في المكتبة. إذا كنتم مستعدين لبعض التسلية، لدينا لعبة جديدة رائعة تُدعى ماي-جونج. هل تعرفونها؟ إنها تجتاح لندن بأسرها. هيا، دعونا نخض هذه التجربة».

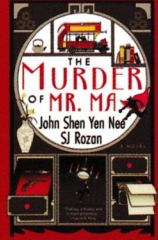
مكتبة
t.me/soramnqraa

The MURDER of MR. MA مقتل السيد مَا

في لندن عشرينيات القرن الماضي، يتشابك العالم الغربي مع الجالية الصينية وفنون القتال في مغامرة بوليسية مشوقة. تعرف "لاو شيه" المحاضر الصيني في جامعة لندن، إلى القاضي "دي رين جيه" من خلال الفيلسوف الشهير "برتراند راسل" في موقف بالغ الغرابة. يطلب راسل من لاو شيه أن يحل محل القاضي في السجن لفترة قصيرة. ينجوان معاً من هذه التجربة، ويقرر لاو شيه مرافقة دي في تحقيقاته في جريمة قتل السيد "مَا زي رين".

خلال التحقيق، تقع جرائم قتل أخرى مرتبطة بالجريمة الأساسية، طُعن الضحايا جميعهم حتى الموت بسيف الفراشة. يجدان حياتيهما في خطر مستمر، وتتعدد الأمور مع ظهور أدلة جديدة وشخصيات غامضة تُسهم في توتر الأحداث وتشويقها. ويزداد الخطر مع اقترابهما من كشف الحقيقة.

ستجذبك الرواية بأسلوبها المستلهم من مغامرات شيرلوك هولمز، فهي تجربة قراءة لا تُنسى.



غلاف: محمود هشام

مكتبة

t.me/soramnqraa



www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb